

الأعمال الإبداعية

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

خيرى شلبى

سارق الفرح



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

سارق الفرح

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: بناء المستقبل

التقنية: ألوان زيتية على سيلوتكس

المقاس: ٤٢ × ٩٠ سم

غسان سباعى (١٩٣٣ -)

فنان سورى، درس الفن فى القاهرة، واستكمل دراسته فى باريس، وهو مصور واقعى تعبيرى، وفى اللوحة المنشورة على الغلاف يبدأ الفنان رحلته الاجتماعية من المرأة لبناء المستقبل، فالفنان يتمثل دور كاشفى الأسرار لفض ستار المستغلق، لكنه يقوم بذلك كله بعين الفطرة والبساطة دونما تشنج وصراخ، وهو يضع الكثير من العناصر (سمكة الأحلام، الأقفال، صناديق الأسرار، السماء البنفسجية) تتآلف فى نعومة بالغة الرقة والحساسية ورغم الحدة المتعمدة فى بعض العناصر إلاّ أن اللوحة بشكل عام تعتمد على العناصر الدائرية والمنحنيات الناعمة.

محمود الهندى

سارق الفرح

خيرى شلبى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

سارق الفرح
خيرى شلبى

الغلاف
والإشراف الفنى
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفني والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشـباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص، ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «مكتبة الأسرة» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سمير سرحان

سمبـــو

العزومة جاءت على المرام . لم يتخلف أحد من مشايخ العرب المدعوين ، الذين ذهبت الركائب بالرجال لعزومتهم فى بلدان بعيدة ، من البحيرة والغربية ، ومن النجوع والبرارى ، حتى امتلأت زريبة العماروة بعشرات الركائب المزدانة السروج ، المزركشة البرادع ، ما بين حمير وبغال وجياد . حتى طائفة الأفندية الذين لم يكن من المتوقع حضورهم جميعا حضروا وفى صحبتهم ناس مدعوون من قبلهم . وازدانت دار العماروة بالبياض الجديد ورسوم السباع على واجهتها منقسمة على أكثر من بقعة تلتف حول فتحة الباب ، وهى كتابة قديمة تتجدد كل عام عند عودة أحد العماروة من الحجاز.

وفى قاعة الطبيخ وفى الفناء وفى المندرة تتصادم الأجساد ببعضها من فرط اللخمة والحماسة والطهمة ، وليس على الوجوه سوى الإبتسامة العماروية البلهاء الطيبة التى تضاعف ألغادهم تحت أذقانهم فتضىء وجوههم المحمرة المليئة بالدماء والملامح المنتفخة فى وسامة طريفة محببة ، وليس على الألسن سوى كلمات «كل سنة وانت طيب.. مبروك.. عقبال عيالك .. يارب نولها للجميع» . ذلك أن هذه العزومة التى تقيمها العماروة اليوم ليست ككل العزومات إنها عزومة مزدوجة ، فثلاثة من العائلة عادوا من أداء فريضة الحج ، واثنان من شبانها قد نجحا فى كليتى الحقوق والطب ، وبنت من العائلة ستعلن خطوبتها اليوم ، وأربعة أطفال من أبناء العائلة سيتم ختانهم على حجر العروس بعد ساعات قليلة .

وقد تم كل ذلك على خير وجه ، كما رسم له الحاج محمود عمرو وتمناه . وزعت الشربات وأكياس الحلوى ، ووزعت الزغاريد فى كل سماوات البلدة ، ووزعت التهانى والإبتسامات والأحضان على كل الحاضرين .

ثم جاء دور الطعام ، فامتدت عشرات الطبالى وفوقها عشرات الصوانى النحاسية الكبيرة . وامتدت أناجر الفتة ، ترتص فوقها هبر اللحم المسلوق ، بجوار سلطانيات الشوربة الكهرمانية المزدانة بفصوص التقلية ، وأطباق عليها أكوام اللحم المشوى والمحمر . فأكلوا جميعا حتى التخمة .

وكانت البقعة التى يجلس فيها الحاج محمود عمرو الكبير تضم نخبة خطيرة من علية القوم : مشايخ عربان باشوات ، ومأمور المركز ، ومهندس الرى ، ومفتش الرى ، وشكرى زعلوك أشهر محامى فى البندر وصهر الحاج محمود ، والحاج سالم المسلمانى شيخ البلد الذى تمت اليوم خطوبة ابنه على بنت محمود عمرو الصغير ابن أخ الحاج محمود عمرو الكبير .

وكان من الواضح أن الحاج محمود عمرو الكبير ينتظر شيئا ما ، إذ راح يتطلع بناظريه نحو الفناء كأنما يستعجل حضور الشيء ، ولم يهدأ إلا بعد أن ظهر الولد سمبو ، وهو من عبيد العماروة أبا عن جد ، عمره فوق الأربعين بقليل ، لكنه رفيــع ، سنار ، طفلى الملامح ، حاد النظرات، فى عينيه بريق دائم يشرح كل أعماله وأقواله ، فيجعلك تحار إن كان هو صادقا فيما يفعل أو يقول ، أم أنه يمزح ؟ وغم أنه لا يمكن أن يمزح فى بعض الأفعال والأقوال وإلا طارت رقبته فإن أسياده لابد أن يستوضحوه كلما تكلم قائلين : «بذمتك ودينك ؟ جد ؟ » . وهو قد بات يعرف هذا ، فصار يتبع قوله على الفور : «وحق دى الليلة ومساها حصل!» .

إقترب سمبو يحمل صينية عليها بطيخة نمس كبيرة مشقوقة نصفين بالطول . وضعها أمام الحاج محمود عمرو ورفاقه ، واستدار مسرعا ليحضر صينية غيرها . نظر الحاج محمود عمرو فى الصينية وصاح :

- سكِّينة يا ولد .

صاح سمبو وهو يهرول :

- حاضر ياسيدى .

وبعد قليل عاد سمبو مهرولا يحمل صينيتين ، على كل منهما بطيخة كبيرة مشقوقة ، وضعهما فى مكانين متجاورين ثم انطلق مهرولا . فلحق به صوت الحاج محمود عمرو صائحا :

- سكِّينة يا ولد

فرد من بعيد فيما يهرول :

- حاضر ياسيدى .

وفى الطريق التقى به فى الفناء من سلمه صينيتين ، فانطلق عائدا بهما إلى المندرة ليضعهما فى مكانين أمام بقية الضيوف ، ثم انطلق مسرعا ، فلحق به صوت الحاج محمود عمرو بعصبية :

- سكِّينة يا حمار بسرعة .

صاح سمبو فى ارتباك وخوف :

- حاضر يا سيدى .

ثم وسع من هرولته فاندفع يجرى . وبعد بضع دقائق عاد يحمل مقصا كبيرا ، تقطر منه مياه الغسيل التى لم تستطع إزالة ما تراكم عليه من صدأ وغلظة . مقبضاه ملفوفان بخيوط من صوف الغنم لتريح يد من يمسك به لفترة طويلة . من الواضح أنه المقص الذى يستخدمه العماروة فى جز فراء الغنم ، بكل بساطة وهدوء تقدم سمبو مادا يده بالمقص .

بهت الحاج محمود عمرو وفاضت الدماء فى وجهه وتفصد العرق من

جميع أنحاء جسده . ودب الحرج فى جميع الجالسين فكتموا الضحك لدقائق ، لكنهم عجزوا عن الكتمان ، فانفلتت القهقهات منطلقة صافية تهز الأبدان بشدة ، فيما هم ينظرون إلى سمبو باستنكار مضاعف لتغطية شعورهم بالحرج . كل ذلك وسمبو واقف فى مكانه لا يريم ، ممسكا بالمقص فى انتظار أن يمد الحاج محمود يده ويأخذه . فى حين بقى الحاج مسمرا فى جلسته فى ذهول ، تنطلق من عينيه طلقات رصاص مكتومة الصوت ، ولولا بقية من هدوء لقام الآن ونفضه فى الأرض حتى يزهق روحه . ما أثار ثائرة الحاج محمود عمرو وبلله بعرق الغضب أن سمبو لم يكن فى يوم من الأيام غبيا هكذا .. فما الذى حل به اليوم ؟ أهى ربكة العزومة باعتبارها أكبر عزومة أقاموها فى حياتهم ؟ ربما .

وكان الأمر على وشك الإنتهاء حينما سارع أحد غلمان الدار وجاء بسكينة كبيرة نظيفة أنيقة بمقبض من الفضة ، سلمها لواحد ممن فى حضرة الحاج محمود عمرو . وجاء غيره بمثيلات لها ، ينضح منظرها بالثراء الفاحش ، وزعها على باقى المجاميع ، الذين تناولوها ، سموا وشرعوا فى الحال فى تشريح البطيخ وهم يكتمون الضحك بقوة الحرج فلا يقدرون . واستدار الغلام فسحب سمبو من كتفه ، لكن الحاج محمود بآخر ما فى أعصابه من هدوء زأر فيه :

– إستنى هنا يا ولد .

فتسمر سمبو فى مكانه قائلا من ريق ناشف :

– نعم ياسيدى .

قال الحاج محمود فى رصانة تنذر بالخطر :

– أنا يا ولد قلت لك هات سكينة ولا هات مقص ؟

قال سمبو والبريق المعهود فى عينيه يزداد تألقا وغموضا :

– السكينة يا سيدى

- أمّال جبت المقص ليـ .. يـ .. يـ .. يه ؟!

هكذا قال الحاج محمود عمرو وهو يحدجه بنظرات متوعدة فقال سمبو :

- عشان البطيخ يا سيدى !

شاطت كل أعصاب الحاج محمود عمرو ، فتذرع بسخرية مفتعلة ، وسأله باسما :

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟!

- بالمقص يا سيدى !

هكذا أجاب سمبو فى بساطة منقطعة النظير ، وكأنه قذف الحاج محمود عمرو بجردل من الخراء فى وجهه ، حتى أن الرجل تأفف ولوى ملامحه وميل رأسه بعيدا ، وظهر عليه الألم . هو الذى لم يستطع مخلوق فى البلدة كلها أن يستفز غضبه صار الآن فى قمة الغضب ، وفى قمة الشعور بضرورة التمسك بالهدوء . ظهر على وجهه كأنه قد أصيب بمرض السكر فجأة ، وكبر فى السن عشرين عاما ، وخرج صوته من جراب صدىء :

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكنية ولا بالمقص ؟

- بالمقص يا سيدى .

وهنا تفجرت المندرة كلها بضحكات صاعقة داوية ، فكأنها كلها وقع أحذية وبراطيش وصرم قديمة تنهال على رأس الحاج محمود عمرو ووجهه ، فما ازداد إلا تشبثا بالهدوء فعاد يسأل من جديد :

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

- بالمقص يا سيدى

- طب امشى انجر من قدامى !

وكانت هذه العبارة هى ما ينتظره الجميع من أول المبتدا . وكان من

الممكن أن ينتهى الأمر هكذا بالفعل ، ولكن الحاج محمود عمرو بعد هذه الواقعة البسيطة العابرة صار غيره قبلها . إنزوى طوال القعدة وقد تعكر دمه ، وضؤل جسده ، وتدلت شواربه وبدا كأنه انحط إلى مخلوق من الدرجة العاشرة . راح يتميز غيظا وكمدا وقهرا ، ويحاول إخفاء ذلك فيكشف عنه . الجميع قد أحسوا بذلك فراحوا يداعبونه ، ويسخرون من غباء سمبو ، ويجرجرون الحاج محمود عمرو للفرفشة والإندماج معهم . وكل ذلك لا يزيده سوى غيظ على غيظ ، وقهرا فوق قهر ، ودماغه شاتت ، يودى ويجيب : هذا المخلوق الغبى الحمار كيف يصر على حكاية المقص أمام هذا الجمع الحاشد فيسبب له هذه الفضيحة الشنعاء ؟! وطاف بذهنه أن أحدهم أو معظمهم ربما اضطر فى بعض الأحيان أو فى معظم الأحيان إلى تشقيق البطيخة بالمقص ولكن هذا الولد الغبى كيف يقول هذا أمام الناس ؟ وهكذا ركبه النكد وأحس أن العزومة كانت شؤما على مزاجه . وانفضت العزومة وهو لا يدرى كيف تمكن من توديع الضيوف .

وكان الفجر قد أوشك على الأذان حينما عاد الحاج محمود عمرو وحده إلى الدار . فجلس فى مكانه المعتاد فى المندرة ، وطلب الولد سمبو فجاءوا به وهو ينتفض مذعورا من الخوف ، ولسانه يلعق شفتيه فى كل برهة . وقف أمام الحاج محمود عمرو خافض الجبين يتوجس حائرا ، حتى لقد أشفق عليه الحاج وقرر أن يعفو عنه بعد أن يوبخه بكلمتين قاسيتين وينبهه إلى حموريته حتى لا يقع فيها مرة أخرى . فظل برهة طويلة ينظر إلى سمبو ولا يدرى كيف يبدأ كلامه ، لكنه بكل هدوء الأب حين يعاتب طفله بلهجة يطمئنه من خلالها قال :

– إحنا يا واد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

– بالمقص يا سيدى !!

طارت الشومة فى الهواء كلمح بالبصر ، ثم هوت على كتف سمبو فدكته . فصرخ صرخة فزعة مفزعة كقرع الهاون . وشعر الحاج محمود

عمرو بأن الضربة كانت أقوى من اللازم وأنها ضربة موت لولا أن الله ستر . فهدأ نفسه وقال :

– إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

– بالمقص يا سيدى !!

وهنا فقدت الهراوة السيطرة على نفسها ، فصارت تنشال وتنحط على كتف سمبو فى غيظ شديد . وسمبو يتلقى الضربات ينتفض تحتها، يتلوى من الألم ويطلق الصراخ الملتاع المستغيث . فى حين وقف رهط كبير من رجال الدار على مبعدة يبسملون ويحوقلون يطلبون من الله الستر وتعدية الليلة على خير قبل أن يموت الولد فى موضوع هايف كهذا، صار الكبار منهم يتشفعون للولد ، يطلبون من الحاج أن يصلى على النبى ويفضها سيرة . والحاج لا يعرف كيف يمنع نفسه من الإستمرار فى الضرب ، إلى أن تعب هو ، ولهث ، فأوقف الهراوة وأسند جسده عليها وقال للولد من خلال لهاثه :

– إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

– بالمقص يا سيدى !!

فما كان من الحاج محمود عمرو إلا أن عدل ثيابه حول جسده ، وأحكم لف الشال على كتفيه ، وخلع الزعبوط ولبسه ، ثم تقدم نحو باب المندرة صائحا فيمن حوله :

– هاتوه وتعالوا ورايا . .

كانت الكلمة أمرا لا يجرؤ أحدهم على مخالفته . فسحبه بعضهم ومضوا خلف الحاج محمود عمرو ، الذى فتح الباب وخرج إلى الحارة ، ثم إلى شارع داير الناحية ، فعبر الجرن الكبير ، وانتقل إلى الأرض المزروعة ، ومضى على شواطئ القنوات ومن خلفه رجال يمسكون بالولد سمبو ، لا يعرفون إلى أى مكان هم ذاهبون، ولا ماذا يقصد الحاج من وراء ذلك ، لكنهم لا يملكون إلا المضى خلفه .

أشـرفوا جميعا على مصرف نمرة تسعة ، أكبر مصرف فى العب كله ، متصل بفرع رشيد مباشرة ، لا حد لعمقه ، ملئ بالمياه على الدوام إما من الصرف أو من الفيضان ، ويتبارى شبان البلدان الواقعة عليه فى عبوره ، وفى كل عام لابد أن يغرق فيه نفر أو نفران ، والقصـــص المخيفة

تترى على شطآنه ليل نهار عن الجنيات التى تسكنه ، وعن أرواح الغرقى .

على شاطئ هذا المصرف وقف الحاج محمود عمرو ، فجاء الرجال وتوقفوا بجواره وقد شلت أذهانهم عن التفكير . تقدم الحاج محمود عمرو من سمبو وقال له فى إنذار أخير مغلف بشىء من الهدوء :

– إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

– بالمقص يا سيدى !!

– غرقوه .

هكذا صاح الحاج محمود عمرو آمرا ، رافعا ذراعه لتأكيد الأمر :

– غرقوه !!

فانتفضوا جميعا . وتقدم شابان فأمسكا سمبو من إبطيه ، وبدلا من رميه فى قلب المصرف نزلوا به شيئا فشيئا على الشاطئ فى انتظار أن يغير الحاج رأيه فيأمر بإعادته . فلما بقى الحاج على رأيه توغلوا شيئـا فشيئـا حتى صـاروا قاب قوسـين أو أدنى من منطقة العمق السحيق. وكانت المياه قد وصلت إلى قرب صدورهم وهنا صاح الحاج محمود عمرو من فوق الشاطئ :

– إحنا ياولد بنشقق البطيخ بالسكين ولا بالمقص ؟

– بالمقص يا سيدى !!

– غرقوا ديك أمه !

هكذا جعر الحاج محمود عمرو بعصبية وجنون . وكان الشبان قد صاروا ميالين إلى إغراقه بالفعل والخلاص من هذه المحنة التى لم تكن تدور لهم فى بال . فدفعوا سمبو نحو العمق السحيق فصارت جثته تختفى تحت الماء شيئا فشيئا إلى أن غابت رأسه تماما . وهنا جعر الحاج جعرة أخيرة كأنما ليخلص بها ضميره :

إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

لم يسمعوا صوتا ، لكنهم رأوا ذراع سمبو مرفوعة تطفو على سطح الماء فاردا أصبعيه يحركهما بعلامة المقص . فنشن الحاج بالهراوة على ذراعه وقذفه بها لتصنع فى الماء ضجة كبرى دون أن تصيب ذراع سمبو، التى كانت قد تهدلت واختفت تحت الماء . فأشار الحاج إلى رجاله أن اخرجوا ، فخرجوا . ومضى بهم عائدا إلى الدار ، وهو طوال الطريق لا يكف عن البصق والشتم والهذيان .

طَبَقُ الأرض

كل زملائي الأنفار يحبون العمل في أرض عائلة الجوابر ؛ هذا ما بان لى ، من يوم ما اشتد عودى فكبرت على نقاوة اللطع من أشجار القطن وعلى الجرى وراء حمار السباخ ؛ وصرت أستطيع الشغل فى العزيق وشتل الأرز وتطهير المصارف وجمع القطن وحش البرسيم .. وكل هذه أعمال تحتاجها أراضى الجوابر . النفر بسبعة قروش فى اليوم ، ومواسم الشغل تهجم مرة واحدة قبل البذار وعند الحصاد. نفر كثيرون يأخذونها من قصيره ويلبدون لمقاول الأنفار كى يضمهم فى ترحيله لثلاثة أشهر أو أكثر أو أقل ، يضمنون الموسم كله ، ولا الحوجة للعمل يوما والإنتظار يومين ، يقبضون عربونا مجمداً ينفع فى مصلحة كبيرة . ونفر أكثر لايحبون الترحيلة ، قطعت الغربة حتى ولو لساعة واحدة ؛ وطالما أن الزمن النذل رخص للخسيس أن يتحكم فى الأصيل ، فتحكم بتحكم وخسيس بخسيس ونبقى فى بلدتنا أحسن ؛ خسيس تعرفه أحسن من نصف خسيس لم تعرفه بعد . هؤلاء ربنا يكرمهم أيضا ، لأن الكل لابد أن يبيت متعشيا فى النهاية ، وشغل البلدة كثير ، ليس عند العائلات وحدهم ، بل وعند ناس من ذوى الفدان والفدانين ..

الترحيلة تأخذ الواغش وتمضى به إلى بلاد بعيدة ؛ الباقون يمزمزون فى الشغل عند أهالى البلد . كل عائلة عندها شغل لابد أن تبيِّت على الأنفار قبل دخول الليل. المحظوظ من يبيِّت عليه مرسال من عائلة الجوابر – ليس ببعيد أن يستندل النفر فيرجع فى كلامه إذا بيِّت عليه

مرسال من عائلة أخرى ثم فوجيء بمرسال الجوابر يجيء ليبيت عليه قائلا : عندنا عزيق بكره يافلان ؛ في الحال سيرد قائلا : إحنا خداميتك يابا الحاج ، ثم يتسلل قبل أذان العشاء متوجها إلى دار من بيت عليه من قبل : عدم المؤاخذة يا حاج فلان ! وحق دى الليلة ومساها الولية أمي كانت اتفقت مع الجوابر من غير ما أعرف ! سامحنى بكره بس ! ..

وكنت فرحا بفأسي التي اشتريتها من مولد سيدى ابراهيم الدسوقي جديدة وصنع لها النجار يدا طويلة سرحة خشنة كي لا تتزحلق في يدى إذا عزقت . أضعها على كتفي وأمشي مختالا بين الرجال ، معجبا بشراشيب دكة السروال ابو حجر الطويل ، والصديرى فوق الفانلة أم كم طويل ، ومنديل محلاوى مربوط حول رأسي فوق الطاقية اتقاءً لحرارة الشمس ، وآخر معقود على رغيفين وخيارتين من بلاص المش نسميه حمام البلاص ، وعقدته مدخولة في يد الفأس ؛ ذلك هو غدائي الذي ساكله عندما يمر قطار الظهر البعيد ..

فرحتي في ذلك اليوم لا تقدر بمال ؛ لأنني صرت رجلا بين الرجال، ولأنني سارح للشغل في غيطان الجوابر . قال الولد حموده الجرف في غبطة وهو يعض على نواجذه :

– «إبسط ياعم ! يومك نادى بإذن الله !»

وكان الحاج محمد جابر يشخط في الأنفار المتخلفين عن الركب ، ويهدد بضرب الشلوت في القلب إذا لم يكن للواحد همة . طرف نبوته راح يزغد أجناب من يطولهم . قلت للولد حموده الجرف :

– «الحاج يأخذنا بالشدة من أولها !»

قال :

– «وإن يترك الواحد منا يرفع قامته دقيقة واحدة !»

قلت :

– «ربنا يستر فى هذا اليوم !»

قال :

– «وإذا لم يعجبه عزيق أحد يخطف الفأس منه ويريه الشغل على أصوله ! وعندما يرد الفأس يضرب صاحبه بيد الفأس على دماغه !»

– «يعنى أوسخ من شغل الوسية!»

– «الوسية أرحم !» .

– «فلماذا تحبون الشغل عندهم ؟!»

– «لأنهم يقدمون للأنفار فطورا ! هذا كل ما فى الأمر !»

– «ياسلام ! .. سيفطروننا اليوم !»

– «قبل نزولنا الخطوط نفطر !»

– «كتر خيرهم والله ! يتأمروا على كيفهم بقى !»

ومشينا فى اتجاه قرص الشمس الأحمر حتى وصلنا إلى حوض البقمة بعد نصف ساعة سيرا على الأقدام بين الحقول ، الحاج محمد جابر أمامنا راكبا حماره ، والحاج سالم جابر – إبنه الكبير – وراءنا راكبا حماره ، ومن ورائه أم حنفى التملية ، الملاية ، تحمل على رأسها حلة الغسيل الكبيرة ، وبجوارها ابنتها سعدية تحمل قفة مغطاة بحزمة من البرسيم . وكان موكبنا يستطيل كلما حودنا فى طريق ضيق . وإذ توقف حمار الحاج محمد جابر توقفنا ، عند ساقية على شاطىء قناة رفيعة تفصل بين حوضين من الأراضى .

وقال الحاج محمد جابر :

– «كل واحد يقعد فى مطرحه !»

فتقرفصنا جالسين فى صف طويل على الجرف الطرى للقناة . نزل هو فربط حماره في وتد على مدار الساقية . وجاء نحونا بقدمين حافيتين مفرطحتين ، تختمان الأرض الطرية ببصمات غائرة ، إذ تترك قدمه فى

الأرض ختما كاملا ، بأصابع خمس متلاصقة وكعب مستديرة . صرت أتأمل فى أقدامه المطبوعة على الأض فأتذكر ما يشاع فى البلدة من أن العتقى لم يفلح فى تفصيل بلغة على مقاس هاتين القدمين ، وأنهم نجحوا فى تفصيل بلغة له عند عتقى فى بندر دسوق لكنه لم يطق لبسها فرمى بها ولم يعد يلبسها إلا عند صلاة الجمعة . وكنت أعجب من الشقوق الغائرة فى كعبيه كشقوق الأرض الشراقى ، وكانت ناشفة صلبة لدرجة أنه كان يستعين بكعبه فى دق مسمار فى خشب أو غرز وتد فى الأرض .. صرخ الحاج محمد فى أم حنفى :

– «مدى يامرة واعملى لك همة شوية !»

فأسرعت تتمايل تحت ثقل الحلة الكبيرة . فلما صارت أمامه ساعدها على إنزال الحلة إلى الأرض . ثم وصلت البنت سعدية فأنزلت القفة ، فأزاح عنها حزمة البرسيم فإذا هى مليئة بالأرغفة الطرية . صار يوزع على كل واحد رغيفا . ثم جاء الحاج سالم ورفع غطاء الحلة فإذا هى مليئة بشربة العدس . صار يقلبها بمغرفة كبيرة من الخشب ، فيتصاعد منها الدخان حاملا رائحة العدس الفواحة . صاح الحاج سالم وهو يقلب العدس بالمغرفة :

– «طبعا ما عندناش صحون تكفيكم !»

صاح فيه الحاج محمد :

– «صحون إيه يا جدع ؟ نعمل سفرة ؟! أنا سأعمل لك صحونا ربانية !»

ثم غرز كعب قدمه فى الأرض الطرية ، وبرمه ، فصنع حفرة تشبه الطبق ، ثم نزع كعبه صائحا فى الحاج سالم :

– «إغرف هنا !»

ونقل كعبه إلى بقعة مجاورة فضغط به الأرض وبرمه صانعا حفرة

أخرى كالطبق الغويط. وهكذا مضى يصنع بكعب رجله حفرا فى الأرض كالأطباق ، والحاج سالم من خلفه بالحلة يضع فى كل حفرة مغرفة من العدس . إنحنى الأنفار على الحفر يقتطعون اللقم ويغمسونها فى الحفر ثم يطوحون بها فى أفواههم . نقرتنى نظرة الحاج محمد من بعيد ، فاقتطعت اللقمة بسرعة ، وانحنيت على الطبق .

العروس

الفرحة دوت فى صدرى أول ما وقعت عينى عليها بين يدى الصياد؛ سمكة بنِّية كالعروس المجلوة المزوقة بأطياف حمراء وزرقاء وخضراء ، فى حجم وليد صغير؛ تنتفض بالحياة وبالفزع ، كأن شبكة الصياد الجهنمية قد انتزعتها من مخدع الفرح ليلة عرسها عارية من الفراش . إستبشرت خيرا بمنظرها ، وطار قلبى من الفرح لمّا رأيت الصياد يحملها بين يديه ويضعها ضمن البيعة التى سأبتاعها منه لأسرح بها فى شوارع أسيوط أو فى حلقة السمك بسوقها الكبير ..

وحدها وزنت أربعة كيلو جرامات وربع ؛ أزاد الصياد فوقها بقية الخمسين كيلو التى أبتاعها فى العادة كل يوم . ثم أشار إلى السمكة البنية الكبيرة قائلا :

«عندك زبون لها ؟»

قلت بحماسة كبيرة كأننى أدفع عنها عين حسود مجهول :

– وماذا تكون هذه ؟

ثم إننى أحكمت «الجَنْبة» ، لمت أطرافها حول السمك ، قربت أذنيها من بعضهما ؛ أدخلت الشومة فيهما ؛ وحملت الشومة على كتفى ، والجنبة نائمة على ظهرى ، ومضيت مشمرا ذيل جلبابى أصعد السلم الطينى لمسطاح النيل ، حتى صرت على ربوة الشارع العمومى وتأهبت للصياح معلنا عن السمك الطازج الصابح. وكانت البنية تنتفض داخل الجنبة انتفاضات عنيفة تكاد تدفعنى للإنكفاء على وجهى ؛ حيث كانت عفية مليئة بطبقات من اللحم المشفى المستنير ..

ما أن خطوت بعض الخطوات حتى حاذانى رجل كالدرفيل يركب دراجة . كان متقمطا كالأفندية الخواجات ، ويضع فوق ر سه برنيطة من الخوص ، وكان نظيف الثياب والمظهر إلا من بعض الغبار الذى رماه عليه الطريق . أوقف الدراجة وواجهنى حتى كادت العجلة الأمامية تدخل بين ساقى لتشنكلنى . فى اللحظة التى شرعت فيها فى الصياح محتجا ، تبسم هو عن أسنان ذهبية وشارب حليق الأطراف مما جعله يبدو كرجل مهم من الحكام أو موظفى الميرى . قال فى شىء من الود :

- «أرنى ياعم ما معك من سمك!»

أنزلت العصا عن كتفى ، وفتحت الجنبة ، فانتفضت البنية تكاد ترمى بنفسها إلى الشارع : وكانت تفتح فمها وتغلقه كبندول الساعة ، وترمش بعينيها ناظرة إلينا فى استرابة كأنها تقول : إستذوق أنت وهو ! عودا بى إلى مخدعى تحت ستر الماء ! ..

نظر الرجل إليها ولمعت فى عينيه بوارق غامضة ؛ قال :

- «أرنيها !»

رفعتها إلى صدرى فى رفق أبغى تهدئة روعها ، كطفلى الذى سأسلمه لشخص آخر ليداعبه . أمسك بها الرجل فى قسوة ؛ لدهشتى رفعها إلى أنفه وجعل يشمها ..

ركبتنى العفاريت ؛ أوشكت أن أنتزعها من بين يديه بل أن أبصق فى وجهه الكالح الشبيه بقفا غليظ ؛ لكننى استمسكت بطول البال من أجل خاطر عيون الإستفتاح ؛ إكتفيت بالشخط فى وجه الرجل مشوحا بذراعى فى غضب أكاد أخزق عينيه :

- «تشم كيف يا بوالعم ؟! تشم ماذا ؟! تشمها وهى ترتعش بين يديك وتفتح فمها ؟! »

ظهر على وجهه شىء يسير من الخجل ؛ قال :

– «بكم تبيعها ؟! »

ساعة استفتاح وساعة صبحية ؛ لابد أن أبدأها بالصدق والنية الخالصة حتى لا يعاكسنى الله بقية اليوم ؛ قلت :

– «تعطينى عرقى ريالا وتأخذها ؟»

قال :

– «عشرون قرشا بحالها ؟ لا مانع على كل حال !»

قلت :

– «ثمنها ثمانون قرشا ! وفيها ربع كيلو زيادة بدون حساب ! هات مائة قرش!»

عادت الكلاحة إلى وجهه ، قال :

– «ثمانون قرشا فقط !»

هنا لم أتمالك أعصابى ، نسيت الإستفتاح وساعة الصبحية ؛ بكل نفس ضايقها الموت نزعت السمكة من يديه بعنف ؛ فرميت بها فى الجنبة وأنا أبرطم بشتائم مضغمة ، ملوحا بالشومة فى توتر قبل أن أشكها فى أذنى الجنبة وأحملها لأمضى تاركا إياه وراء ظهرى ، وقد حلفت بالطلاق ثلاثا ألا يأكلها أو حتى يشمها حتى لو نادانى بالموافقة غير أن الملعون لم ينادنى ؛ فنسيت أمره وانغمرت فى حلقة الأسماك أروح وأجىء ، أتقرفص عند التعب على أية ناصية . كان السوق ماشيا ، والسمكات تتناقص فى قعر الجنبة شيئا فشيئا حتى نفدت كلها ما عدا البنية التى كفت عن الإنتفاض تماما حيث قد هدها التعب . لكننى كلما لامستها بأطراف أصابعى ارتعشت قليلا ؛ فعدت بها إلى دارى حزينا كاسف البال ؛ بيتها فى صفيحة المياه على أمل أن تمتد بها الحياة حتى الصباح ..

فى اليوم الثانى وجدتها قد ماتت ؛ حملتها فإذا هى متهدلة اللحم

مترنحة ، وضعتها فى الجنبة بين السمكات الجديدة التى ابتعتها لرزق اليوم : اتخذت طريقى إلى السوق . ساعة زمن واحدة كنت بعدها قد انتهيت من بيع كل السمكات وجبرنى الله ؛ لكن البنية بقيت راقدة فى قعر الجنبة كالحظ العاثر ؛ ينظر إليها المارة فلا يتوقفون . ووالله لو كانت ابنتى من لحمى ودمى قد عنست وبارت وفاتها قطار الزواج ما حزنت عليها كل هذا الحزن الذى راح يشق قلبى شقا . قلت : فلأغير نحس المكان ، وحملت الجنبة ومضيت أجوب حوارى أسيوط مناديا عليها طالبا لها العَدَل ، معزيا نفسى على التعب بأننى متوجه إلى دارى فى الأصل . وكانت الصفيحة فى انتظارها بمياه الأمس ؛ فدلقتها فيها مفوضا أمرها وأمرى إلى الله . إرتطمت بقاع الصفيحة كقطعة من الحجر الثقيل ؛ رفعتها ثانية ؛ كانت منتصبة متصلبة لا فرق بينها وبين الشومة ؛ رغم الأسى عابثتها بأن أوقفتها على رأسها فوق أصبعى كما يفعل البهلوان الأونطجى بالعصا ، صرت أحرك يدى لتحتفظ بتوازنها ؛ إمتزجت حركة يدى بخاطر طارىء مؤداه أنها لو بقيت متوازنة على أصابعى فسوف يكون ذلك إيذانا برواجها ، وإن اختلت ووقعت فهى إذن لواقعة فى قرابيزى . ظللت أفعل هذه اللعبة حتى كلت يدى ، فتركت البنية تقع فى الصفيحة مرتطمة بها فى ضجة متفجرة بالرذاذ ..

فى صباح اليوم الثالث رفعتها فإذا هى قد ماتت الموتة الأخيرة ، التى لا نفع بعدها . كانت صلابتها قد انهارت ، صارت هى كالكرباج ، صار لحمها طريا هشا ، تظهر عليه بصمات أصابعى غائصة . وضعتها بين السمكات الجديدة التى ابتعتها لرزق اليوم ؛ وقرأت الفاتحة وآية الكرسى ، وانتويت إن غازلها زبون أن أوافق بأى « سعر يشاء ؛ لكن أحدا لم ينظر إليها ، لم يقترب منها ..

عندما انتهت السمكات كلها قلت : ما من بد ؛ وحملتها لكــى أبيـعها

للفسخانى ولو بعشرين قرشا ؛ إذ هى لم تعد تصلح للبيع ولا تصلح للأكل ، وليس لها من مصير سوى صفيحة القمامة أو صفيحة الفسخانى يأخذها متعفنة جاهزة ليضعها مباشرة تحت الملح بين طبقات العفن ..

فى الطريق إلى دكان الفسخانى إصطدمت بالدراجة مرة أخرى . نظرت فإذا بى أمام نفس الرجل ذى البرنيطة الخوص والشارب الحليق الأطراف والوجه الغليظ كالقفا واللبس الخواجاتى . ما أن تعرفت عليه حتى صحت فى وجهه بازورار مشوحا :

– «إه ! أهو أنت ؟ دعنى فى حالى الله لا يسيئك !»

إعترضنى قائلا فى ابتسامة متملقة :

– «سأشترى منك !» .

شوحت فى وجهه شاخطا :

– «أنت لا تشترى ! الله يسهل لنا ولك !» .

قال بجدية وهو يستوقفنى بيده :

– «سأشترى هذه المرة ! أقسم أننى سأشترى !»

قلت صادقا :

– «لم يعد معى سمك للبيع !»

قال بإلحاح وهو يزغدنى بمزاح :

– «قلت لك سأشترى هذه المرة بكل صدق !»

قلت :

– «لا تقليب عندى ولا شم ولا بحلقة !»

قال فى امتثال :

– «ماشى كلامك!»

ففتحت الجنبة ؛ وبسرعة تناولت ورقة من ورق أكياس الأسمنت ، لففت فيها البنية المتعفنة وسلمتها له قائلا :

- « هات مائة وخمسة وثلاثين قرشا ! »

لم يرد ؛ إنما دب يده في جيب سرواله الخلفي ، فأخرج محفظته ، وعدّ لي مائة وخمسة وثلاثين قرشا ، واحتضن اللفة ومضى يترنح كالنشوان ممسكا الدراجة بيد واحدة ؛ وقفلت عائدا إلى الدار متخفيا بالحوارى الجانبية ؛ فيما أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

المعادى – فى ١٥ مايو سنة ١٩٨٩

طق الليل

كنت ساهرا عند المسقى أحرس المياه حتى لا يقطعها أحد عن زمام أرضنا ليوصلها إلى زمام أرض أخرى . ومَن أجدر منى بهذا العمل ؟ لا أحد فى العائلة بل فى ليل المنطقة كلها من هو أشقى منى . الليل نفسه يخشانى ويداربنى السكات . فإن تنحنحت ، جاءنى صوتى نفسه مؤكدا لى أن ليس راكبا على ظهر الليل سواى . وإن صرخت فى شبح من أشباح الليل ، خبطت صرختى فى جبهة الظلام مثل الحجر المسمى «طق الليل» ، فيطق الشرر من صرختى ، ليتبدد الشبح، أو أمسكه بيدى كخرقة بالية ، ناهيك عن طخ النار الذى قد أضطر إليه ، أسهل شىء بالنسبة لى وفى نفس الوقت آخر شىء أفعله . أما إن امتدت أصابعى على الزناد ، فقل يا رحمن يارحيم على من تقع نارى عليه . لو بلدة برمتها أحصدها فى لمح البصر ، مع أننى سأتوقف عدة مرات لملء الخزنة بالرصاص والتنشين مرة أخرى . إذا امتدت يدى على الزناد فإنها لا تعرف التراجع حتى لو اتضح لى أننى أضرب فى أهلى وناسى ..

الجميع يعرفون هذا . وبندقيتى الميزر هى أول من يعرف ، ولذا فهى وأنا روحان فى دبشك واحد بماسورة تتمشى فيها روحى فى كل آن . بندقيتى هذه تعرف طبعى وأعرف طبعها . تظل معلقة فى كتفى مثل ريشة لا أشعر بوجودها حتى تجىء لحظة الغضب الفاصلة فحينئذ تجىء هى فى بالى ، ثم تختفى فأعرف أننى قد صرت فى بالها . وحين تشتد لحظة الغضب أشعر بها ثقيلة فوق كتفى . وحين تلحقنى المهانة ولو من

بعيد أراها قد قفزت من تلقاء نفسها وصارت بين كفى فى وضع التنشين الذى لا يذكر التاريخ في بلدتنا أنه قد خاب مرة واحدة أو أدى إلى جرح فقط . كل طلقة برأسٍ تقع يعنى تقع ، وقعة أبدية لا قيام حتها إلا يوم القيامة وعليك وعلينا خير .

السر ليس فى الطلقة ولا فى بندقيتى الميزر الأصيلة إنما هــو فــى عينى بالصلاة على النبى . أحيانا لا يكون بى ثمة حاجة لإحكام النشان حتى وإن نكن فى العتمة. وما حاجتى أصلا للنشان ؟ إن عينى تنتظر انقذاف الطلقة من الماسورة لتأخذها من يدها طيرانا لتضعها فى جسد الأبعد .

الكل يظهر احترامه الشديد لى ، ولا يؤخر لى طلبا . وأعرف أنهم مع ذلك يشتموننى من وراء ظهرى بتهمة أننى مدب ، والحقيقة أنهم يضيقون بصراحتى التي تشبه سرعة طلقتى من بندقيتى وتشبه كذلك إصابتها للهدف . أقول للأعور أنت أعور ، فى عينيه وليس من ورائه . ولقد علمنى جدى الكبير أبو هميلة أننى لا أقيم وزنا لكل من يزعل من الحق أو يلوى بوزه ؛ وأن أحتقر كل خنيس يظهر أنه يحبنى وهو فى الواقع يخشانى . وهؤلاء كثر ، وهم الذين تعلمت من أجلهم عشرة البندقية حتى تزوجتها على سنة الله ورسوله برخصة استصدرتها من الحكومة بواسطة عمى سلمان بك ابو هميلة عضو مجلس الشيوخ الشهير على سن ورمح لابد أنكم تعرفونه .

عشقت البندقية وعشقتنى البندقية درءاً لغدر الجبناء الذين يأكلون على طبالينا فى المواسم والأفراح ، ويربضــون لـنا فـى حقـول القصب

والذرة يبتغون ظهورنا . فالبلاد ملآنة بالظلم أى نعم ، ولكن لسنا نحن بالظالمين ؛ إنما الظلم الآتى من فوق يجعل السماء مكفنة بسحب من القطران تنفثها طاسات صدور محترقة من نيران تحتها . الظلم يتبعه

ظلام ، هكذا رأينا بأعيننا . والظلم قرين الظلمة هكذا قال عمى الكبير الشيخ حمدان ابو هميلة وهو يجلس على عتبة دارنا القديمة فوق المصطبة زاهدا فى الدار الجديدة ذات التراسينات والجدران الملونة .

فى الظلمة لابد أن يطمح كل إنسان فى خطف زاد لنفسه ، وفى الظلمة لابد أن يدافع كل إنسان عن نفسه ، ولا تنسى العداوانة بعضها لله فى لله . بعضهم يهمهم أن يرفعك عن مقعدك ليجلس بدلا منك . بعضهم يستخسر فيك النعمة . بعضهم يريد أن يشاركك ، يزاملك ، ينافسك ، يضايقك ، يزحزحك يسرق الكحل من عينى زوجك ، والنضارة من وجه أولادك ، يسرق دمك والعياذ بالله .

كان لابد أن يطلع من عائلتنا ولد ابن ليل يأتمر الليل بأمره يخضع لإشارته . وكان هذا الولد هو .. أعوذ بالله من قولة أنا . وكان لابد أن يجىء فى عائلتنا ولد يبرع فى اللعب بنيران البنادق يصنع منها أفراحا وأتراحا وشموسا فى حالات غروب وأخرى فى بواكير شروق . وكان هذا الولد هو .. أعوذ بالله من قولة أنا .

وفى تلك الليلة البعيدة الليلاء، كنت مبسوطا ومنسجما أربعا وعشرين قيراطا . الحشيش وحششت . الشاى وخرطت ثلاث زردات . السجائر ويرمت ربع أوقية دخان عفرتها فى لذة واستمتاع . النشاط فى جسمى على سنجة عشرة . أروح وأجىء أمام الخص تحت شجرة التوت بجوار الساقية ، وليس من صوت سوى نعيرها الونيس . شرائح المياه تنساب من عينى بئر الساقية مندفقة فى القناة الساعية بأعماق أراضينا تزغرد فى صمت . والقمر ينزل ضيفا على شجرة التوت ، فيبعث الأنس على آماد لا يحدها البصر ..

فجأة ظهر الثلاثة الأشباح قادمين من بعيد من اتجاه البلدة يمشون فى جرأة مدهشة ، كأنهم لا يرون القمر . فإن كانوا عميانا فكيف لم يشعروا بى ، لم يشموا رائحة رهبتى ، حتى لتوايتهم الجرأة فى الإقتراب

منى هكذا بلا إحم أو دستور . ثم إن ثلاثتهم لا يمشون على السكة بل يخوضون فى قلب زرعنا كأنهم فى "يغمة" ، فى وكالة من غير بواب . يا أولاد الوسخة ! .. هكذا قلت فى نفسى من شدة الغيظ . من هناك ؟ تكلم أنت وهو .. هكذا صحت فيهم . فلم يردوا ، بل ظلوا يقتربون منى فى بجاسة وجسارة حتى كدت أخاف لأول مرة فى حياتى ..

أيقنت أنهم من أشقياء الليل الملثمين جاءوا يغتصبون المياه لأرض واحد من الأعيان الكبار . ولم يكن ليتم هذا إلا على جثتى قبل اغتصاب نقطة مياه واحدة . وإذا بالبندقية بين كفى فى وضع التشين الذى لا يخيب : طاخ طاخ أفرغت فيهم الخزنة كلها . عمرتها من جديد وتهيأت للطخ ، لكنى لم أسمع صرخة أحد ولا صوت سقوط جثة . فتحت عينى عن آخرهما ومسحت بهما الفضاء كله فلم أجد أى أثر لأى أحد على الإطلاق خدعت نفسى وقلت لابد أنهم تمكنوا من الهرب ، لكننى واثق من أننى نشنت على أجسادهم مباشرة . فماذا يكون هذا ياربى بحق نبيك محمد؟!..

الحقيقة لم آخذ ولم أعط فى الأمر . نسيته ، أنسانى أذان الفجر الوافد من عشرات المآذن البعيدة التى بدت فى هذه اللحظة قريبة بجوار القمر مباشرة . إنتهت الليلة على خير ، كما أن الأرض شربت حتى شبعت وفاض منها . مضيت إلى الدار فنمت نوما عميقا لم أصح منه إلا على ضجيج الأولاد يصحوننى للغداء ثانى يوم من رقدتى . وقد عقدت المفاجأة لساننا جميعا ، إذ أننى صحوت مذعورا ، ذراعاى منكسرتان فوق صدرى فى وضع مسكة البندقية والتنشين . حاولت وحاولوا عدلها فلم نستطع ، حاولت أن أتكلم ، فوجدت لسانى ثقيلا يفسر الكلام بصعوبة. قلنا: لعلها عينُ حسود ما تلبث حتى تزول قرصتها بعد رقية بالبخور من عمتى الحاجة هنومة . لكن عمتى هنومة أحرقت زكيبة بخور ، وقالت تعازيم تفلق الحجر ، فلم ينعدل لى ذراع ، ولم ينفك لسانى ،

لأجل خاطر عمتى هنومة فك الله لسانى قليلا بعد مدة قصيرة .

داخوا بى على الحكماء ، وكل حكيم يرانى يسب جهل من سبقه ، ويفتى بأدوية جديدة وأكل جديد وكهن جديد لا نفهمه . وكل ذلك مصاريف فى الهواء كالطلقات الفشنك تصنع دوشة ورعبا دون أن تصيب ، فلما بدأ الصرف يحتاج لبيع أشياء نملكها قلت : لا .. الطبيب هو الله والمداوى هو الله .

أولاد الحلال كثار . أحدهم رآنى ذات يوم وهم عائدون بى من عند الحكيم . سألنى ما الأمر ؟ حكيت له ما حدث بالتفصيل مثلما أحكى لكل من يرانى . قال الرجل : بس ! وأضاف :

- «أنت أخطأت يا حاج رشاد ! أنت

ضربت الجن بالنار !» ..

إقشعر بدنى ربك والحق . مع أن هذا لم يحدث لى أبدا .. قلت :

- «وما العمل الآن يابا الحاج ؟» ..

قال :

- «كله على الله ! عندى طبيبك !» ..

ذهبت بصحبته ووفد من عائلتى إلى بلدة بعيدة تحملنا الركايب ، وتحمل معنا هدية تملأ العين لذلك الذى يصاحب الجن . طرقنا باب دار متواضعة لكن شكلها نظيف لطيف .

تلقانا رجل أبيض الوجه ملتح بلحية بيضاء ملونة بالحناء ومدببة الشكل ، بعينين كلوزتى القطن بارزتين حين يرفع عنهما الجفنين ، تبدو نظرته كنودة حمراء ينبعث منها بريق حاد ؛ يرتدى جلبابا أبيض تتصاعد منه رائحة المسك زاعقة تصدع الرأس ، وبيده مسبحة طويلة ، جرجرت وراءه إلى قاعة داخلية مستطيلة فى وسطها باب يفصل بينها وبين قاعة ملحقة بها . جلسنا فوق حصير ملون ومساند . دفعنا بالهدية للرجل .

وقدم لنا الشاى والقرفة . واستمع لحكايتى من جديد ، حيث حكيتها هذه المرة فى حذر ودقة فلم أترك صغيرة ولا كبيرة إلا وصفتها وأثبتها . وكان الرجل قد أشعل بخوره ، وبدأت القاعة تغرق فى دخان كثيف الرائحة .

بعد مجهود كبير بذله الرجل وتصبب فيه عرقه تهلل وجهه ولهج بالصلاة على الحبيب النبى ، وقال إنه تمكن من معرفة الجان الذين بادرتهم أنا بالعدوان وطخختهم بالنار دون سبب . وقال إنهم رجلان وامرأة ، أما المرأة فهى زوجة أحد الرجلين والآخر شقيقه ، وأنهم من الجان الطيبين المسالمين ، فلا يستحقون منى هذه الفعلة الشنعاء التى كانت لابد أن تودى بحياتى لولا طيبتهم هم .

إستراح قلبى بعض الشيء ، وتعشمت خيرا ، وقلت : على بركة الله. ففاجأنى الرجل قائلا إنه سوف يستحضرهم الآن أمامى لنعقد مجلس صلح بيننا ، وأن على - بالطبع - أن أكون غاية فى الرقة واللطف معهم . قلت :

- «طبعا طبعا يا رجل نحن على الأقل لابد أن نرعى حرمة الدار التى نحن فى ضيافتها ! فأنت تطمئن من هذه الناحية من جانبى !» ..

فتبسم عن فم يبدو كعش العصافير ، وقال إنه يتعشم فى جعلهم يصفحون عنى . قلت :

- «على بركة الله فليحضروا ! أهلا وسهلا مرحبا ! على عينى ورأسى ما دمنا فى مجلس صلح !» ..

فجأة إرتعش الرجل وظهر عليه الهلع . وإذا بشيء فى سقف الغرفة يضيء كالقنديل ، ثم يأخذ فى الهبوط من السقف محدثا صريرا حادا ، ثم يستقر متربعا أمامنا بجوار منقد النار . وقد أظلمت القاعة مرة واحدة فصرنا فى عتمة ، ثم لمع فى جوف العتمة لسان من الضوء كلسان عصفور . وتبينت على ضوئه منقد النار ، وشكل القنديل المنبعث منه لسان الضوء . كان يشبه الفانوس وليس بفانوس ، ويشبه جسم القرد وليس بقرد ، ووجه العفريت وليس بعفريت .

إعتدل الرجل فى قعدته ، وقال فى تبجيل شديد كأنه فى حضرة الله شخصيا :

– «أهلا وسهلا .. أنتم شرفتم !» ..

فإذا بأصوات ثلاثة من بينها صوت امرأة يقولون :

– «أهلا بك ويضيفك !» ..

إعتدلت أنا الآخر . صرت أنظر حوالى فى العتمة باحثا عن فروة رأسى التى خيل لى أنها ترتفع بالطاقية وتسبح طائرة فى العتمة الحافلة بالأنفاس . خيل لى أن رأسى قد صار بلا سقف يحميه من صواعق الريح وجحافل الظلام . إنتبهت إلى أن الرجل يتكلم . أصغيت جيدا . تبينت أنه يتكلم فى حقى كلاما لا بأس به ، من قبيل أننى إبن حلال ، وأننى ولد جدع ورجل والرجال قليل ، غير أنها الدفعة والعصبية . وقال لهم إنه يستحلفهم بالله أن يصفحوا عنى ويسامحونى . ثم أضاف أننى مستعد لدفع الحق الذى يطلبونهِ حتى يكونوا مرضيين .

قالت المرأة الجن :

– « أطلب قرطا ومشخلعة من الذهب وخاتمين وخلخالا وعشر فساتين!» ..

وقال زوجها الرجل الجن :

– «أطلب جلبابا وعباءة من الصوف وساعة جيب ماركة الترماى وحذاءً بأستك !» ..

وقال شقيقه :

– «أطلب أردبا من القمح وحمارين وبقرة !» ..

وقال من يبدو أنه كبيرهم : إن هذه الهدايا ليست لهم ، وإنما هم سيوزعونها بمعرفتهم على من يستحقونها من أبناء الإنس الغلابة .

ظهر على وجه من معى – الذين مالت ظهورهم وزحفت وجوههم نحو

منقد النار - أنهم راضون بهذا الحكم ؛ حيث عدلوا رءوسهم فى راحة كأنهم عثروا أخيرا على شفائى بأبخس الأثمان . قال أحدهم فى فرح : يا بلاش . وقال آخر : عداكم العيب . وقال ثالث ، ليس كثيرا والله على صحة ابننا ، أما أنا فقد غلت الدماء فى عروقى . وأما الرجل فقد مال نحوى بنظرة يسألنى بها عن رأيى فيما سمعت . فنظرت فى الإتجاه الذى تجىء منه الأصوات وقلت لهم :

- «إسمعوا ما أقوله لكم ! أنا رجل دغرى !

إذا كان يعجبكم أن تصطلحوا معى من غير شروط فأهلا وسهلا ! أنا خادمكم ومحسوبكم ! إنما أن تشترطوا على لكى نصطلح يفتح الله وأهلا وسهلابكم أيضا ! ولكن يبقى كل واحد فى حاله ! لا تؤاخذونى يا أسيادى الجن ! فأنا رجل مسالم مثلكم ! أما صلحكم هذا المشروط فالله الغنى عنه ! لست أرضى به ! وعندى أن أظل مكتوف اليدين عثير اللسان خير من أن أقبل شرطكم ! فماذا قلتم ؟!» ..

فإذا بحركة كالزوبعة تحدث . القنديل ينتفض ثم يرتفع إلى أعلى فى صريره الحاد ، إلى أن يلتصق بالسقف ويختفى . وإذا الرجل قد صار فى حالة هياج وذعر:

- «خربت بيتى الله يجازيك ! هل هذا ما اتفقنا عليه ؟! البشرى لك ولى بالدمار التام ! ها أنت ذا قطعت حبل الود معهم إلى الأبد !» ..

قلت :

- « براحتهم يا عم ! صلح للصلح أهلا به وسهلا أنا خدام ! صلح بشروط من أجل مصلحة يفتح الله ! أنت نفسك لا ترضاهالى !» ..

إنفتح شباك ، فأقبل ضوء الشارع . فرأيت الرجل ينظر نحوى فى غباوة شديدة ، والذين معى يرمقوننى فى غيظ أشد . إلا أننى هببت فيهم صائحا : بنا يا رجال . وتقدمتهم خارجا إلى الخلاء وقد خيل لى كما لو أن براميل من الدم الساخن الجديد قد أفرغت كلها فى عروقى . وخيل لى

أننى أريد أن أخرج من هدومى بل من جسدى كله ، وكان يبدو أننى أتكلم مع مرافقى فى غضب جنونى وأننى أشوح بيدى وذراعى كأنهما حران طليقان . وكانوا يحاولون تهدئتى ولكنى لم أكن أفهم من كلامهم شيئا . يقول صحتى ؟! ليست صحتى هى ما كان يغضبنى ، إنما غضبى كان من ذلك الرجل صديق الجن : كيف يعترف بلسانه أننى رجل جدع وشجاع ثم يطلب منى أن أوافق على صلح مشروط .

شق الثعبان

البطرانة الفسخانية مجرد امرأة عجوز كحيانة ، مصفوطة الوجه مجعدة الملامح بيضاء البشرة محمرة الخدود والجبهة ، حمراء الشعر . إستدارة القمر فى وجهها ، وفيه أيضا بريقه . عمشاء العينين قليلا ، ولكن بصورة مثيرة للخيال . ترتدى على الدوام جلبابا من الشيت الأسود المبرقش بكرات بيضاء كحبات الحمص، وأحيانا بنى اللون بنفس النقشة . تلف رأسها بشال من القطيفة يتماوج بكل الألوان . هذا هو لبسها فى الدار . أما إن ذهبت للعزاء فى ميت مهم ، أو للمطالبة بحق لها عند أحد ، فإنها ترتدى الجلباب الأسود القطيفة ، من فوقه شال هابط من رأسها ، منطرح على كتفيها ؛ وفى قدميها «الشكربين» الأسود . لا يظهر منها سوى وجهها الذى يزداد تألقا ونضارة وهو يطل من الحاشية السوداء ؛ وكذلك يداها الدقيقتان الحمراوان ، اللتان تغريان بالتقبيل . وجهها كذلك يغرى بالتقبيل ، خاصة أن خصلة متشردة على الدوام من شعرها تعجز هى دائما عن إخفائها فتتهدل فوق الجبين ، واشيةً بأن ذلك الوجه كان ذات يوم قريب جدا ثغرا عظيما تستريح فوقه اللثمات .

وهكذا تمضى فى البلدة كالرجال لا تلوى على شىء ، واثقة من أن الجميع من حولها لا يزال يشتهيها رغم سنى عمرها التى لا هى ولا نحن نعرف لها عددا ؛ لكنها تكون واثقة أيضا من أن العيون ترمقها فى حذر وخشية ولا تستطيع أن تستقيم فيها .. فخيرها على الجميع ، واحترامها واجب على الجميع ؛ ثم إن بطشها لشديد .

هى فى الأصل فسخانية ؛ تبيع الفسيخ من صفيحة كبيرة ، تضع على فوهتها نصف غطاء من الخشب ، لتفرز عليه الفسيخ عند البيع . وكلما فرغت الصفيحة تملأها من برميل فى مخزن دارها الفسيحة الواسعة ذات الغرف العديدة المتداخلة فى بعضها ، والتى تطل على شارع داير الناحية فى رأس كوعة يبدأ بها ممتدا لمسافة طويلة . وباب الدار على الشارع باب دكان . ما إن تدلف منه حتى ترى نفسك فى حجرة عادية كنصف مندرة . تفاجئك رائحة الفسيخ، بجوارها قفص طماطم ، ومشنة فيها باذنجان ، وطشت فيه عنب فرط ، وقفة فيها بلح أسمر ، وصفيحة سمن إصطناعى وصفيحة زيت للبيع بالقطاعى ، وقثاء وخيار مكوم على رقعة من حصير بال . وفى موسم البطيخ والشمام تمتد أكوامهما بامتداد جدار دارها فى الشارع صانعة مهرجانا كبيرا من الناس ينتقون كبير البطيخ وينقرون عليه بأصابعهم ويطلبون شقه بالسكين.

وعند خروج المصلين من صلاة الجمعة يكتمل المهرجان ويعلو الصخب ؛ ترتفع عشرات الأيدى والأصوات صائحة فى نفس الوقت : ياخاله بطرانة ! يا خالة بطرانة! .. والكل يتصور أنها تفرغ له وحده ؛ ولكنها تفرغ للجميع ولا أحد يستطيع مغالطتها فى مليم . فإذا ما هبط الليل قامت فغطت بطيخها بالمشمع وحبشت عليه جيدا ، لتغفو بجواره فى الشارع أمام باب دكانها حتى الصباح .

نطلع على الحياة فنجدها كذلك . وناس كثيرون يقولون أنهم طلعوا على الدنيا فوجدوا البطرانة هذه كما هى الآن جزء لا يتجزأ من البلدة ؛ لا تكبر ولا تصغر أبدا . وبعض رجال عجائز يتوكأون على عصى يقولون أنهم طوهروا على حجرها فى ليلة فرحها . وبعضهم رقص فى فرحها . وقد لاحظت أن أبى ورجالا فى مثل عمره يعاملون البطرانة معاملة خاصة ، وينادونها فى ود عميق دون لقب يا خالة . وهى كذلك . وكم يبدو منظرهم جميلا كأنهم أطفال صغار ، حين يتجمعون صدفة ، فيقذفون بعضهم

بعضا بطوب الذكريات المؤلمة ، باعتبارها باتت شيئا مضحكا . ودائما يزفرون فى النهاية وهم ينصرفون قائلين لبعضهم البعض : «إحنا شفنا البطرانة دى فى عز مجدها ! فين أيامك يادنيا» .

مثلما احتار الجميع فى تقدير سنها إحتاروا فى أصلها ، خاصة وأنها ليس لها أقارب فى البلدة أو فى أى مكان قريب، وليس معروفا أنها من العائلة الفلانية أو العائلة العلانية . ومن طريف الذكريات التى ينثرونها معها كثيرا ، أتذكر أنهم كانوا أحيانا يقولون لها : يا حلبية ؛ أى أنها كانت تلقب ذات يوم باسم الحلبية . وسمعت عمى عبدالرشيد ذات ليلة فى مندرتنا يحكى عنها قائلا أنها من أصل حلبى جاءت بلدتنا منذ زمن بعيد طفلة تحبو وراء أمها الغجرية ضاربة الودع ، وأن أمها استحلت المرعى فى بلدتنا فصارت تجىء كل بضعة أعوام لتمكث شهورا ترجع بعدها محملة بخيرات كثيرة ؛ وأنها مكثت نهائيا حين وجدت بيتا تسكنه بلا ثمن؛ وأن شابا إسمه موسى البطران جاء يسأل عنها ليردها إلى أهلها ؛ فأغرته هى بالبقاء معها وزوجته من إبنتها هذه البطرانة ، لتموت هى بعد قليل ، فيتسبب موسى البطران للرزق ببيع الفسيخ ؛ لتمضى بهما الحياة فى بلدتنا سمنا على عسل.

تيقنت أن أحدا لا يعرف إسمها الحقيقى ؛ وأن شبانا كثيرين لا يخطر على بالهم أنها يمكن أن تكون تزوجت أو أنجبت أو أن يكون لها أهل من الأساس ، كأنما هى نفسها أهل لنفسها ، كأنها شىء أكبر وأعرق من أن تلده امرأة أو يضع بذرتها رجل . وهى دائما أبدا وحدها ليل نهار . نمر على دكانها ونحن ذاهبون إلى المدرسة صباحا أو عائدون منها عصرا ؛ فيحلو لنا دائما أن نعوج روسنا لننظر فى دكانها؛ لنراها متربعة فى حلق الباب من الداخل ؛ ووابور الجاز مشتعل أمامها وفوقه براد الشاى أوحلة الطبيخ . ودائما وجهها للشارع ؛ ومن وراء ظهرها باب صغير ضيق يفضى إلى بقية أنحاء الدار ، مما يؤكد أن هذه الدكانة إقتطعت من الدار بعد بنائها.

هذه الدار قد هاجمها اللصوص كثيرا فى سابق الأيام ، ونقبوها عدة مرات من عدة جهات ؛ فلم يتمكنوا من النفاذ إلى القاعة التى تنام فيها وتضع نقودها وجواهرها . ومن طريف ما يحكى أن اللصوص الذين هاجموا دارها ذات يوم وقعوا كلهم فى أيدى الناس وسيقوا إلى المركز مخفورين . ذلك أنهم كانوا ينسون أن رجال وشبان البلدة كلهم يتطوعون ، فيجعلون من أنفسهم حراسا سريين عليها .. فالجميع يعرف أن فيها الطمعة ؛ ولذا فالجميع يتربص بالجميع . وربما كانت حقيقة الأمر – فيما يقول أبى أحيانا – أنهم جميعا فكروا فى التهجم عليها ؛ وقد حسبها الأذكياء فوجدوا أنهم مراقبون من بعضهم البعض ؛ ففضلوا أن يكونوا حراسا بدلا من أن يكونوا لصوصا ؛ على الأقل إلى أن يحين حين ملائم يبلغ أحدهم الخير بدون سرقة أو تهجم ؛ ثم إنهم نسوا جميعا هذا الأمل البعيد التحقيق وبقوا مجرد حراس متطوعين .

فى الليل تسهر الدكاكين فى ضوء الكلوبات التى تملأ الدنيا وشيشا وناموسا وحصائر ضوء مفروشة على أرض الشوارع . لكن الونس الحقيقى لايبدأ إلا عند دكان البطرانة ؛ حيث يرسم بابه على الأرض شباكا من الضوء الخمرى اللون لا صوت له ، يخفف قليلا من صبغة الليل؛ فيغرى الشبان والصبيان بالإنطراح على الأرض فى مجموعات على طول الشارع فى الليل الصيفى بين أكوام الردم والسباخ وفوق أحمال القش المعدة لامتلاء السطوح . كل مجموعة يسسرح بخيالها واحد، عن أمور الجماع وفنونه يحكى ؛ عن العز وأصوله يخترع ؛ عن وقف الحال يرسل النكت والمسخرة ؛ والضحكات تترى هنا وهناك . ولابد أن تكون البطرانة داخلة فى كل هذه الحكايات بشكل أو بآخر . إنها هى المنقذ الوحيد الذى يميل عليه كل خرمان مفلس ؛ وهى الأمل المدخر لكل واقع فى محنة أو مشروع زواج . وكل إنسان فى البلدة يدخرها لوقت عوزة . وكل واحد يعتقد بينه وبين نفسه أنه سيحتاجها ذات يوم . ولهذا فإن صوتها – الذى تخمد فيه رنة الأنوثة بنبرة رجولية مستعارة وزاعقة –

لا يكف أبدا عن إرسال الردود عبر الباب : يسعد مساك ياخويه ! يعافيكى بالعافية يا اختى ! سا النور ياحاج أهلا وسهلا ! .. خيط من الردود والتحايا لا ينقطع ..

مندرتنا هى الأخرى كانت تسهر فى سيرة البطرانة ؛ شأن كل المنادر في بلدتنا؛ لكن دخولها دائرة اهتمامى الشديد بدأ ذات ليلة ليلاء..

فمرة خطر لأخى عيسوى أن يشرب السجائر مثل الرجال ظنا منه أن مرواحه لمدرسة البندر الثانوية يعطيه حرية التحلل من قيود أبى ولو فى الخفاء . لكن أنَّى له أن ينعتق من رقابته ؟ حظه التعيس قاده فى صحبة من إخوانه الذين يتعلمون فى البندر معه ، إلى نزهة على ترعة السلمونية فى ضوء القمر الشاحب ، حيث يتحدثون عن همومهم الشخصية لبعضهم البعض فى حرية ، ويمارسون عادة التدخين مثل الأفندية بالسيجارة المكن ، التى يمكن أن يفرطها أبى على أربع سجائر باليد كما نراه يفعل إذا ما عزم أحدهم عليه بواحدة مثلها . على أنه التباهى على غيرهم من شبان البلدة الذين لم يتعلموا ؛ ومشاغبة عيون الفتيات المتسللات لملء البلاليص فى ضوء القمر ..

حظه التعس ؛ أو لعلها نشوة السهر ؛ أنسته أن أباه مغرم بنفس الغرام الليلى، ومن أهل الخطوة ، يقطع الطرق ويعبر المصارف والترع والقناطر دون أن يبتل ، فى عز الليل دون وجل ودون اعتبار لوحش أو لجن أو عفريت أزرق . كان ليلتها ماضيا فى طريق ترعة السلمونية قادما من سهرة لدى شيخه العتريس فى عزبة مجاورة ، واضعا ذراعيه بالمسبحة خلف ظهره ؛ وفمه لا يكف عن البسبسة والهمهمة والسخط على مالا يعجبه ، من الزرع الذى تركه أصحابه يجف ، والردم الذى كومه شيطان ليسد به طريق القوم . كان حديد البصر ، يرى أشباح العيال قادمة نحوه من بعيد والسجائر تبرق بين شفاههم وتتباعد ، لكنه لم يميز منهم أحدا .. فجعل يقترب منهم وقد دفعه الشعور بالحَزم إلى رغبة فى

تدخين سيجارة أخرج علبته الصفيح من جيب الصديرى ولف سيجارة ثم بحث عن الكبريت فلم يجده ؛ فأبقى السيجارة بين يديه لحين محاذاته القادمين فيشعل منهم ..

وكانوا قد جلسوا على قنطرة مبنية بالأسمنت والحديد على ترعة السلمونية وراحوا يدخنون ويضحكون بصوت عال ماجن على نكت قبيحة الألفاظ . إقترب أبى من أحدهم وقال فى رجاء :

- «والنبى يا افندى تولع لى!»

فأعطاه الشاب سيجارته . وحتى هذه اللحظة لم يكن أحدهما قد عرف الآخر ؛ لكن أبى حين لحم السيجارة المشتعلة بسيجارته وجذب النفس ؛ توهجت السيجارتان معا فانكشف وجه أبى تماما لأخى عيسوى؛ فإذا به يترك سيجارته فى يد أبى ويطلق ساقيه للريح . وإذا ببقية الشبان يتفرقون فى خجل وهم يكتمون ضحكاتهم ويخبئون جثثهم خلف الأشجار والدور المتطرفة خارج البلدة . أما أبى فإنه أبقى السيجارة بين أصبعيه ومضى موسعا الخطى صائحا :

- «تعال يا أفندى خذ سيجارتك ! يا أفندى

عيب ! تعال خذ سيجارتك !»

وهكذا بطريقته الهبطانة الساخرة التى تعرفها البلدة كلها وتقلدها فى شغف.. حتى اختفى أخى عيسوى فى حوارى البلدة ..

لم يذهب بالطبع إلى دارنا ، بل انحرف إلى وسط البلد ؛ وكانت مندرة السنهورى هى الوحيدة التى يمكن أن يسهر فيها ؛ تلك التى يفتحها صاحبها كمقهى يسهر فيه الناس لشرب الشاى والمعسل ومص القصب والتحدث فى أمور ونوادر ومسخرة ضاحكة . ولم يكن أحد يتوقع مطلقا أن أبى يمكن أن يجىء إلى هذه المندرة المقهى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؛ ولكن أخى عيسوى ما كاد يجلس على الدكة الخشبية متربعا ويجيئه واحد القرفة على صينية فى يد السنهورى ، حتى دخل

ممسكا ببقية السيجارة متقدما نحوه قائلا فى جدية واحترام مبالغ فيهما:

- « يا أفندى خد سيجارتك ! مش عيب تسيب السيجارة وتجرى؟! أيجرى الأفندى؟! »

.وقف الولد مبلولا مذهولا ؛ وانزوى كل الموجودين فى المندرة متوجسين . ولكن أبى صار يترك أخى عيسوى ويذهب إلى الباب ؛ ثم يعود فى حركة مسرحية ويقول :

- « يا أفندى خد سيجارتك !»

فى حين أن السيجارة انتهت وارتمت على الأرض ويقى أبى ضاما أصبعيه على الفراغ . وأخى غارق فى الخجل فى العرق فى نصف هدومه . وأبى يطلق بين الحين والحين زفرة حارة تترنم بالمرارة والخطورة ؛ ويمثل بين يدى أخى متصنعا أنه العبد الفقير يقف بباب سيده :

- «عدم المؤاخذة يا سيدنا لفندى ! دفعت ثمن هذه السجائر المكن من جيبك أم تشربها سفلقة من غير مؤاخذة ؟! هذه عادة الأفندية ولن يشتروها ! أقصد العادة لا السجائر يا سيدنا لفندى !!»

ويستدير ماضيا حواليه ، ناظرا فى كوب القرفة بجواره ، مرددا فيما يشبه الفرح الذى يخفى الشعور بالمأساة :

- «ماشاء الله ! ما شاء الله ! طبعا ! طبعا ! لماذا لا تدخن وتشرب القرفة فى أوكار الليل طالما أن عضوك فى مؤخرة غيرك ؟! أتغرم شيئا ؟! مدرسة البلدة وعلمناك فيها مع احتياجنا لك فى شغل الدار والغيط ! مدارس البندر وألحقناك بها مع شدة احتياجنا لمصروفاتك الحراقة! وقلنا لا بأس حتى يترقى لنا ولد ! يصبح أفنديا ! محترما ! لم نبخل عليك بالبذلة التفصيل والطربوش الجديد والحذاء الجديد كل عام ! الدور والباقى على شرب الدخان ! هذا آخر ماكنا نفكر فيه ! فاعذرنا ياسيدنا لفندى ! وإن كنت تطافست على بعض صحابك من أجل سيجارة فما

الذى عساك نفعله لهم فى مقابل ذلك ذات يوم ؟! أم تراك تكون نصابا يفرط فى شرفه من أجل هذه المدعوقة ؟! اللوم يقع عليك ياسيدنا لفندى ! كان يجب عليك أن تنبهنا من الأول حتى نضيف لمصروفك ميزانية الدخان ! أما إن كنت سرقت شيئا من الدار وبعته ! أو اختلست شيئا من مصروف أمك فلا بأس ! فى بيتها على كل حال ! المهم ألا تكون طولت يدك على مال الغير أو دنأت نفسك على أحد ! هذا كل ما فى الأمر ياهذا!!» ..

ثم راح وجاء فى المندرة المقهى عدة مرات وهو منكس الرأس فى تفكير عميق؛ والهم باد عليه لدرجة مخيفة جدا . لكنه عند هذا الحد المخيف من التجهم يذهب إلى أخى عيسوى فيواجهه ، يرمقه كأنه يراه لأول مرة :

- « سعادة البيه أليس يعرف أنه هو الآخر مدين للبطرانة ؟!» ..

ظنها القوم نكتة ؛ حتى أخى عيسوى هو الآخر إضطر إلى الإبتسام رغما عنه مشاركا القوم فى ضحكتهم الكبيرة التى انفلتت عنهم برغم تحفظهم . فآخر ما يتصوره أخى ، وآخر ما يخطر على بال أحد من الحاضرين ، أن يكون أخى عيسوى هو الآخر مدين للبطرانة الفسخانية . صحيح أن كل واحد من هؤلاء القوم مدين للبطرانة بشكل أو بآخر ، وليس في بلدتنا أحد غير مدين لها ولو بأكلة فسيخ على الحساب . لكن أن يكون أخى عيسوى الطالب فى الثانوية مدين هو الآخر لها فهذا هو المضحك فى الأمر حقا .. فديون البطرانة أكبر وأشد من أن يحتملها طالب كأخى عيسوى . ولهذا فقد ضحكوا من خيال أبى الساخر فى اختياره لأنواع السباب التى يوجهها لأخى فى محاولة لتهزيئه ولسوعته بالعذاب القارص ..

إلا أنه استدار نحوهم ، معلقا على ضحكتهم بنظرة اشمئزاز ، لاويا معها شفتيه ، قائلا :

– «أعجبتكم هذه الكلمة ؟! أنتم جميعا مدينون للبطرانة ! كل طـفل من أطـفالكم ! حتى الذى لم يولد بعـد قد أصـبح مدينا للبـطرانة !!» ..

ولوح بذراعية داخل كميه الواسعين وهو يمضى نحو الباب للخروج النهائي الغاضب . غير أنه توقف على عتبة الباب ناظرا فيهم نظرة ملآنة بالأسف ؛ قائلا فى لهجة يشوبها نبرة اعتذار :

– « كلنا والله يا إخوان ! لم يعد أحد فى البلدة كبيرا على دين البطرانة!!»..

ثم دفع بقدمه عبر العتبة فى تؤدة ورزانة .

منذ ذلك اليوم شغفت بالبطرانة وبدأت أندس وسط المجموعات المتسامرة أتشرب كل حديث تأتى فيه سيرة البطرانة ؛ حتى عرفت الكثير والكثير مما يقف له شعر رأسى وترتعد فرائصى .

فلقد علمت – ويا للعجب – أن لها من زوجها البطران ست بنات يقلن للقمر : قم لنقعد مطرحك . كما علمت أن عمى عبدالرشيد – الذى يعمل خفيرا للرى فى الإصلاح الزراعى – كان أحد عشاق إبنتها الصغرى «ملكة» وأنه باع كل ما يملك واشترى بثمنه هدايا للبنت حتى تحن عليه وتقبل الزواج منه فلم تقبل . وكنت أظن أنه سيغضب لو نكأت جراحه القديمة وسألته عن عشقه ؛ فإذا به ينتفض واقفا كصارى العلم تهزه الضحكات المتفجرة ، وإذا به يعرك أذنى بكفيه الكبيرتين الخشنتين ؛ ثم يغمض عينيه مترنما بيا ليل يا عين ، ثم يصدح بموال : أيام بنلبس حرير وايام بنلبس فل !! وايام ننام ع الحرير وايام ننام فى الطل !! وايام بتيجى على إبن الأصول ينذل !! وفى تلك الليلة حكى لى عن عشرات الجدعان الذين ماتوا عشقا فى دباديب أظافر بنات البطرانة . منهم من سرق ليدبر مهرا كبيرا لإحداهن ؛ فدخل السجن ولم يخرج منه . ومنهم من دخل فى عراك مع غرماء بسبب إحداهن ؛ فحرم على نفسه الأكل والشرب والنوم حتى هزل ومات ومنهم ومنهم حتى خيل لى أنه

يحكى سيرة الهلالية . وكان شىء من الكآبة يعترى وجهه وهو يحكى ، وأحيانا تلمع فى عينيه البهجة ؛ إلى أن جاءت استغاثة الفجر فنهض يطلب الصلاة قائلا :

- «ضاعت عليك الليلة ياست ابوها يا امرانى ! فأنا لا يمكن أن أضاجع اثنتين فى ليلة واحدة ! أنت السبب أيها الولد العكروت ! فكرتنا بالذى مضى !»

وكنت كلما ارتفع منسوب الدهشة إنطلقت من فورى إلى دكان البطرانة لأشترى أى شىء ؛ ولأختلس النظر متمعنا فى ملامح وجهها وحركاتها علنى أكتشف وراءها شيئا يميزها عن البشر ويؤهلها للسيطرة على الجميع كبيرا وصغيرا، فلا أجد مدعاة للدهشة أكثر من بساطتها : مجرد بائعة فسيخ شقيانة تستأهل عطف من يراها .

ظلت هى مصدر الدهشة الوحيد فى بلدتنا ، ومحور كل حديث إلى أن ظهر الراديو فى دكان «مهَيًّا» البقال ، الذى أخلى له مكانا على رف بجوار ركنه الذى يجلس فيه إلى منصة أنيقة ؛ موضوع فوقها نوت الحساب الشكك ودفاتر التموين وطفاية سجائر ودواة حبر وقلم كوبيا مربوط فى درجها بفتلة دوبارة .. وبين تلال من علب السجائر المرصوصة المستفة بدقة كأنها الجواهر الغالية ، وعلب السلمون والسردين والصلصة، وباكوات الدخان الفرط ، وعلب السمن الهولندى .. بين كل هذا كان الراديو هو أبرز شىء ، بصندوقه المستطيل الناعم اللامع ذى اللون الكريمى، لوحة المحطات مزدانة بالخطوط والأرقام المتداخلة ومن خلفها مؤشر كعود الكبريت فى وسطه ضوء براق ؛ وفى أسفل الصندوق صف من الأزرار الأنيقة ؛ ومن خلف الصندوق يمتد سلك تخين مكسو، ينتهى بكماشة تقبض على أصبع البطارية الثقيلة الموضوعة فوق رف سفلى. كانوا يسمونه الفيليبس . وقد ظل مبعث دهشة لنا لا ينتهى لها حديث ولا يفرغ منها العجب . جىء بالبنت أم السعد الملاية فى دار «مهَيًّا» لكى تملأ

البطارية من ماكينة الطحين بواسطة وابورها الذى تركب فيه بسلك ليشحنها . أم السعد رفعت البطارية بيديها وكانت تظنها خفيفة فإذا هى راسخة كالحديد ؛ فصاحت البنت من هولها : « ياحو .. و .. ومتى .. هى تقيلة كدة ليه ؟! إيشحال أما تتملى ؟!» . وكانت هذه النكتة هى المنافس الوحيد لحديث الراديو .

صاحب الدكان هو دار «مهَيًّا» ، يعنى عائلة «مهَيًّا» ، المكونة من أربعة رجال: محمود مهيا وطاهر مهيا وخليفه مهيا وعبدالوهاب مهيا . غير أن العارفين بحقائق الأمور فى شرقى البلد يؤكدون أن صاحب الدكان هو عبدالوهاب مهيا وحده. هو يعمل مدرسا إلزاميا فى مدرسة البلدة ، يرتدى الطربوش فقط كرمز للأفندية، والجلباب الصوف وفوقه البالطو أو العباءة فى الشتاء . وهو أول من تجاسر ودخل علينا الفصل بالجلباب والطربوش دون البذلة الأفرنجي . وجهه أحمر أشقر كالبرتقالة، وحنكه أعوج ؛ لكنه ليق ذرب اللسان ؛ يعرف كيف يفحمك بالآية البيِّنة وبالحديث الشريف وأمثال العرب . إنه المتعلم الوحيد فى دار مهيا ، وبقيتهم لا يعرفون أكثر من فك الخط . كلهم يقفون فى الدكان للبيع واحدا بعد الآخر ، وربما مجتمعين عند تفريق التموين .

لم يكن غريبا أن يكون دكانهم أكبر دكان فى البلدة ، بل فى العب كله ؛ يبيع بالجملة والقطاعى فهم طول عمرهم فى هذه المهنة ؛ ولهم فوق ذلك أرض يفلحونها ويكترون الأنفار لمساعدتهم فى الحرث والبذر والرى والحصاد . لهم كذلك أبقار وماشية يعلفونها . يعيشون جميعا فى دار واحدة كبيرة فى أعماق شارع ضيق يشق وسط البلد ، ولها دوار يطل على الشارع ، وزريبة كبيرة فى الداخل ، وقاعات بالطوب الأحمر ذات شرفات ..

ولكن الغريب حقا أنهم طلعوا فيها مرة واحدة ؛ فجأة تركوا الدكان الملاصق للدار ، وابتنوا واحدا جديدا بحجم أربعة دكاكين على واجهة

شارع داير الناحية ، مواجها للمدرسة ولبيت العمدة ولمجلس القرية وسوق اللحمة والخضار . من خلفه مخازن كبيرة عميقة ممتدة حوت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت : أطنان غريبة من ملبوسات ومفروشات وأدوات زينة وأدوات منزلية ولعب أطفال . عربات النقل الكميون والكارو لا يبطل لها وقوف أمام هذه المخازن للتعتيق أو للشحن .. وخليفه مهيًا بجلبابه البوبلين الشفاف يسوق كرشة أمامه ، رائحا جائيا كطاووس مهيض ، حاملا نوتة صغيرة كالكف ، والقلم الكوبيا خلف أذنه . وجهه كجوزة الهند ، بشعره المتلبد ، وعينيه الزرقاوين ، والطاقية الشبيكة البيضاء منحدرة على جبهته المنبعجة فى نظاكة وعياقة لا مكان لهما فى وجهه . الشبشب فى قدميه الموردتى الكعبين ، لا يكف عن الطرقعة ، محددا للفواصل الزمنية بين الفصال والمناكفة ، والعراك والتراضى ، حول أمور النقل والنولون وسلامة البضاعة فضلا عن جودتها .

هذا مهرجان وحده ، جعل البلدة تحبه وتحب دار مهيا ، لأنه يجدد المناظر فى البلدة بالناقلات والحافلات والبضائع التى تغرى بالسرقة لاقتنائها .. لقد جعل بلدتنا قريبة الشبه بالمدينة . أما الدكان حيث يلعلع الراديو فمهرجان آخر وسامر لا ينفض ، من صبيحة ربنا حتى قرب الفجر بقليل ؛ حيث يتوافد الناس ، يفترشون الأرض أمام الدكان وعلى رصيفه العالى . وابورات الجاز مشتعلة على الدوام وسط كل مجموعة وأخرى . براريد الشاى من فوقها تغلى فيها مياه الشاى ماركة أبو قفلين والجرس والبنت الفلاحة وشاى زوزو والشيخ الشريب . رائحته النفاذة تسكر القادمين من على بُعد فى الحوارى الجانبية ؛ فيدركهم الخرم المفاجىء مهما كانوا شاربين فى دورهم . وأنت ترى أن شمس الصباح الخضراء قد سبقتك إلى رصيف الدكان المرتفع عن الأرض عدة درجات، وأقامت سرادقها فى الحارة الجانبية ، حيث يطل باب آخر للدكان لا ينفتح ؛ كما احتفظت الحائط المواجه بحدوده الآمنة من شريحة ظل رطبية تتصاعد منها رائحة الردم وروث البهائم المارة . هى رائحة حميمة، ربما ،

أكثر حميمية من رائحة الفطير الذرة ، المتصاعدة من أبواب الدور محملة بدخان الأفران السكران بنكهة الزبد والقشدة المحمرة على وجه الفطير . أنت لابد قد أفطرت فطيرا ، أوعيشا طريا بالجبن القريش واللبن الرائب . وحتى إن لم تكن أفطرت فالرائحة من حولك تشبعك تماما بل تجعلك تتجشأ بصوت عال كالآكل لتوه . أنت تبعا لهذا ترى أن الهضم بالشاى قد وجب . ثم إن القعدة نفسها على الرصيف جميلة ، والأجمل منها أن ينضم إليك آخر ، والأجمل أن ينضم إليكما ثالث فرابع ؛ فما أحلى منظر الرجال وهم مجتمعون ولو حول وابور الشاى على رصيف دكان «مهيأ» .

يعنى أنك لابد أن تجلس . فإن كان وراءك عمل سريع مستعجل فيكفيك كوبة من الدور الأول وربما أخرى من الدور الثانى ولا داعى لانتظار الدور الثالث ؛ لكنك فى الأغلب لن تتنازل عن كوبة الدور الثالث ؛ ليس لحلاوتها أو لطفاستك ؛ إنما لأن الراديو سوف يشجيك بصوت صباح وشادية وفريد الأطرش وكارم محمود وعبدالعزيز محمود وعبدالوهاب والآنسة أم كلثوم ، وبصوت الشيخ محمد رفعت والدكتور طه حسين والعقاد وفكرى أباظة ؛ كأنهم جميعا يجلسون فى هذا الصندوق السحرى ينتظرون دورهم . أبو ستة الصياد جاء بغزله وخيوطه واتخذ لنفسه مجلسا ثابتا على الرصيف الجانبى وبات أول من يجىء وآخر من ينصرف ؛ يقضى النهار وشطرا من الليل منكبا على غزله يعقد الشبك ويشرب الشاى ويستمع إلى الراديو .

* * *

الناس فى بلدتنا يحبون دائما معرفة كل شىء عن أى شىء يصير واقعا أمامهم ؛ أصله وفصله . فقد تعودوا على أنه لا سر هناك البتة ؛ فالأرض لا تخونهم أبدا ؛ وكل شىء يجىء فى ميعاده المنضبط ؛ ولا شىء يختشى من أوانه ؛ لا القمر يكذب فى بريقه ولا الشمس تدعى

الحرارة . كل شيء معروف ومحسوب لفصول وربما لسنوات قادمة ،
والتي تحبل في مكة يجيء بأخبارها المجاورون . فأما إن طرأ عليهم
ظاهر جديد فإنهم لابد أن يسألوا ويطقسوا ، ويظل دماغهم بالأمر
الشاغل حتى يجيء بداغه ، كاشفا حقيقة أمره . وإن لم يكن للشيء
ماض يستندون عليه لمعرفة ظاهره الطارىء فما أسهل أن يؤلفوا له
ماضيا ، والعجيب أنه يجيء دائما مطابقا للواقع .

إبتهج الناس قدر ما ابتهجوا ؛ وتسامروا حول الراديو والشاي قدر
ما تسامروا . ثم بدأت مسامراتهم تعرج في الهمس ظاهرة دكان
«مهيًا»؛ حتى في أثناء قعدتهم في رحاب دكان «مهيًا» نفسه . التساؤل
الحتمي أطل برأسه وجعل يظهر شيئا فشيئا ليستغرق الحديث كله : عما
يكون قد جرى في الدنيا حتى تحط بثقلها الذهبي كله – هكذا فجأة –
على دار «مهيًا» خبط لزق ؟! سؤال كان مدخرا غير أنه ليس يصلح
للإدخار أبدا ؛ إذ لابد أن يغادر خزائن الصدور مهما تلهت عنه
النفوس.

مع رشفات الشاي المنتشية ، فوق الردم في الحارة الجانبية لدكان
«مهيًا» ، تسامر الهمس راصداً كل كبيرة وصغيرة في الأمر .. وأشرف
الهمس على قناعات : لو أن دار «مهيًا» رهنوا كل أرضهم عند البنك أو
حتى باعوها فإن ثمنها لا يساوي ربع هذه الثروة من البضائع والمباني
والتجهيزات فضلا عن عربة النقل الكميون الخاصة بهم ؛ في حين أنهم لم
يرهنوا شيئا ولم يبيعوا شيئا . فهل كان عندهم كنز مدفون كشفوا عنه
فجأة ؟! ..

في قعدة شاي كهذه بعد بضعة أيام سمعت أن البطرانة هي صاحبة
كل هذه الأموال أعطتها لدار «مهيًا» كي يجددوا بها شغلهم ويقيموا هذه
التجارة الكبيرة؛ وحقيقة الأمر أنها قد حولتهم – يقولون في غمز واجف
– إلى مجرد عاملين عندها بعد أن كانوا أصحاب عمل . وقيل إنهم قدموا

لها قطعة الأرض فقط وأنها تكفلت بالبناء وبالبضائع ؛ أوهمتهم أنهم شركاء وهي في الحقيقة تستنفع بشطارتهم وخبرتهم في البيع والشراء وتعطيهم مقابل ذلك نسبة من الربح وفي قعدة أخرى سمعت أن البطرانة ليست هي صاحبة هذه الأموال الطائلة ؛ إنما هي تعرف أصحاب رؤوس الأموال وتمت بصلة قرب أو نسب لبعضهم ؛ وأنها قد توسطت لديهم لكي يقرضوا دار «مهيًا» هذه الأموال فأقرضوهم وقيدوهم بالعهود والمواثيق والضمانات ..

وفي قعدة ثالثة إنفردت بنفسي وسرحت مفكرا : أتكون البطرانة هذه هي البنك الكبير الذي يقترض منه الناس على مختلف أوضاعهم ؟! .. فهكذا تفعل البطرانة بالفعل . أنت مزنوق في قرشين ؟ إذهب إلى خالتك البطرانة . كل ما عليك أن تبيعها قمحا أو فولا أو برسيما أو أرزا من محصولك القادم ، الذي ربما لم تزرعه بعد . هي تعطيك ثمن نصف أردب مثلا بسعره الحالي وقت ندرته ؛ وتكتب عليك كمبيالة بأردب كامل ، تأخذه بالفعل عند الحصاد . هي تعطيك من جنيه لألف ؛ شرطها الوحيد أن تكتب لها أوراق بيع وشراء ، وإلا فلترهن عندها ذهبا أو نحاسا أو عقد ملكية . والثورة منذ جاءت ندرت الفلوس في أيدي الفلاحين؛ وكثرت في أيدي التجار والسماسرة والمرابين . والثورة فتحت المدارس لكل الحفاة ، الذين نفعوا فيها بالفعل ؛ وبات على آبائهم الفلاحين والعمال الغلابة والأنفار والتملية أن يصرفوا عليهم في مدارس البندر ، وقد شعروا أن الدور أخيرا قد جاء عليهم ليصبح أبناؤهم أفندية وحكاما بعد طول قحط وبهدلة . ومن كانوا أعيانا قبل الثورة أصبحوا بعدها على فيض الكريم ؛ وهم أولى بالصرف على أولادهم في البندر . وأصحاب الثروات الكبرى الذين هربوا كل ثروتهم إلى بنوك ومتاجر السعودية والخليج وعاشوا في صورة على الله بات عليهم أن يقترضوا للصرف على أولادهم حتى يصدق المخبرون أنهم فقراء بالفعل . الفلوس كلها - الكلهم - مع البطرانة ؛ والبطرانة تطلب ورقة . وورقتها نافذة أينعم ؛ ولكن بعد حين على كل حال ؛ فلربما يكون قد حلها الحلال الذي لا يغفل ولا ينام..

. أنت فى حاجة إلى وظيفة فى أى مكان ؟ إذن فاذهب إلى خالتك البطرانة . إنها تعرف ناسا كبارا جدا من علية القوم فى البنادر وفى كل مكان . لا مانع لديها - إن كنت رجلا مهما - أن تلبس، ثيابها وتذهب معك إلى واحد منهم ؛ بشرط أن تنقلها على حسابك بركوبة حتى القطار . لكنها فى الأغلب الأعم سترسلك بأمارة إلى واحد معين فى البلد الفلانية تقول له أنك من طرف البطرانة وأنها تسلم عليك وتقول لك بأمارة كذا وكذا أنا وضعى كذا وكذا وأرغب فى عونك . ولقد حدث ؛ فبواسطتها عين خفراء نظاميون ، وتومرجية ، وملاحظون فى الإصلاح الزراعى ؛ وتم نقل مدرسين من بلاد بعيدة إلى بلدهم ؛ وقبلت المدارس تلاميذ أكبر من سنهم بشهور ، وأطلق سراح بعض المحتجزين - ظلما أو عدلا - فى تخشيبة نقطة البوليس ، وأعفى شبان من الجندية لعيوب خلقية غير ظاهرة فيهم!!..

ورأيتنى بعد سرحتى هذه أبتسم فى مرآة قائلا لنفسى : وهكذا يمكن أن يكون أبى صادقا فى تأنيبه لأخى عيسوى وربما لم يكن يكذب حين زعم أنه مدين هو الآخر للبطرانة . وهكذا - أيضا - يمكن أن يكون دين البطرانة ممتدا فى الزمن القادم .

لكن الأمر الذى شغلنى حقا هومصير هذه الديون كلها إذا ما نفقت البطرانة فجأة وعاجلها الموت وهى وحيدة ؟! من ياترى سيعرف كل مالها فى ذمم الآخرين ؟ ومن سيتولى جمعه ؟ وكيف ؟! غير أننى لم أجد لذلك جوابا ؛ مثلما لم أجد تصورا للموضع الحقيقى الذى تخفى فيه أمـــوالها ورهوناتها .

* * * *

وذات يوم كنت عائدا من المدرسة بعد الظهر بقليل ؛ فوجدت موكبا هائلا من البشر قرب دكان البطرانة ، يمتد حتى قرب حارتنا . فلما اقتربت منه ودخلت فيه ، رأيت خيولا تقف على مقربة من الباب ؛ فى

حراسة عسكر بالبذلة الصفراء والطـرابيش والقلشين الملفوف على الساقين . كانوا يزعون الناس المتفرجين ويهوشونهم بالكرابيج كى يبتعدوا . وكان ثمة أفندى معتبر يلبس البذلة الصفراء هو الآخر ، لكنها من الجوخ الثمين ؛ وعلى كتفيه وصدره نجوم وضبابير وشرائط كثيرة تريك العين . جىء له بكرسى فى مدخل الدكان ، فجلس يبتسم وينصت إلى البطرانة ، المختفية كعادتها داخل الدكان ، ويصيح فى عسكره بلطف : «ماتضربوش حد!» ..

ظننت أن رجال المباحث وحكومة التموين فاجأوا البطرانة كما يحدث للبقالين الغلابة من حين لحين . تلكأت على مقربة من الأفندى ذى النجوم والضبابير أتفرج عليه مبهورا بكل هذه الأعاجيب النحاسية والشرائط والتعاليق . كانت رائحة عطرة تملأ الشارع كله وتكاد تطغى على رائحة الفسيخ المعتقة . وكانت البطرانة متربعة فى نفس مكانها المعتاد تبتسم فى سعادة وود كبيرين ؛ وتتكلم مع الأفندى فى رقة ؛ تسأله عن أسماء وعن أشياء . هو يتباطأ فى الإجابة ، يبتسم ، يفكر قليلا. هى تسبقه إلى الضحك فى كمها جذلا واغتباطا . يشخط فيها على سبيل المزاح صائحا:

– «بتضحكى على إيه ياوليه انتى ؟! خلى بالك إن دى آخر مرة حد مننا يجيلك ! شوفى لك صرفه فى نفسك بقى ! اللى نوحشه بعد كده يبقى يزورنا !» .

يبدو على البطرانة كأنها فهمت الإشارة ؛ تكتم ضحكتها تشوح فى عشم قائلة :

– «إياكم فاكرينى فاضية لكم ! أنا ورايا موسم البطيخ داخل ! وورايا هم ما يتلم !»

يتأملها الأفندى لبرهة طويلة كأنه ينظر فى لغز مبهم ؛ يضرب بكفيه على ركبتيه ، يشرع فى النهوض . ترفع البطرانة ذراعها فى وجهه صائحة :

- «عليّ الطلاق بالتلاتة من دراعى ما حد يمشى غير بعد الغدا ! خلاص ! الغدا جهزناه ! يلا يابنت !»

كانت جادة غير مازحة ؛ نهضت كشابة فى العشرين ؛ وضعت رأسها فى الباب الصغير صائحة : «يلا يابنت» ..

لم تكن هذه البنت سوى صفية بنت العريض ، التى كان زوجها حفنى يشتغل عند البطرانة قبل أن يموت بعد زوجها بسنوات قليلة ، مخلفا ثلاثة أولاد ؛ رأت البطرانة أن تضمهم إلى رعايتها ، وأن تنقل أمهم صفية لخدمتها . وحين كبر الأولاد ، لم تدعهم يشتغلون عندها ؛ خافت أن ينهبوها أو يتآمروا عليها .. هكذا يقول بعض الخبثاء من بلدتنا . أما الحقيقة - كما يقول الآخرون - فهى أنها ليست تريد لنفسها مهرجانا من العاملين الرجال ، ربما لأنها لم تعد تطيق عشرة الرجال؛ وإنها لهذا سفرت أولاد صفية للعمل فى الكويت والسعودية وليبيا ؛ لدى زوج ابنتها فهيمة المقاول الكبير الذى له شغل فى كل البلاد . وهذا صحيح وقد شفته بعينى ؛ إذ تكفلت البطرانة بتسفير عدد لا يحصى من الرجال والشبان والبنات من جميع البلدان المجاورة حتى لم يبق فيها من أهلها سوى العجائز والعجزة والغيلان المترسخين . وهم فى كل عام يهلون من السفر محملين بالدولارات والدينارات والريالات والحقائب الضخمة المنبعجة بالهدايا ؛ فيشترون قراريط الأرض الزراعية المتاخمة للبلدة ؛ يبنون لأنفسهم فوقها الفيلات والعمارات كالمدينة العاصمة سواء بسواء..

نصف أولاد البلدة كرهوا التعليم وأحبوا السفر بتشجيع من البطرانة أو بتخويف من ديونها . وفى ظرف سنوات قليلة من سفرهم بات الفلاحون وقد باعوا لمقاولى البناء طمى أراضيهم ؛ فتخربت الأرض وباتت بركا ومستنقعات ، فباعها أصحابها للبناء واستراحوا ، واتجهوا إلى فتح الدكاكين والبازارات والمقاهى لعرض أفلام الفيديو ؛ وباتوا جميعا يجأرون بالشكوى فى طلب الدجاج المجمد والبيض واللبن المجفف

وبواويف الكلاب وأفخاذ الطيور الجارحة ، ويتنطعون على أبواب الجمعية الإستهلاكية .

صفية بنت العريض أشطر من مدينة ؛ فلقد راعني منظر العزومة حين نظرتها من بعيد ؛ حيث افترشت فناء الدار بحصير ومساند ؛ وامتدت الطبلية الكبيرة على الأرض ، وطرحت فوقها صينية العشاء ؛ وامتدت أطباق اللحوم والطيور وأناجر الفتة وأطباق الخضار والحلوى . وخرجت طبلية مماثلة لجدعان الحى الذين تكفلوا بحراسة الخيل حتى ينتهى الضيوف من طعامهم .

* * *

فى الحق ما أكثر الحراس الذين يتطوعون بمساعدة البطرانة فى كل لحظة ، خاصة حين تصلى ؛ إذ يطرق الزبون باب دكانها فلاَ يراها فى مدخل الدكان كالعادة، فيطرق مرة أخرى ؛ فيجيئه صوت البطرانة من الداخل مرتفعا فجأة بسورة من القرآن الكريم تتبعها بصيحة : الله أكبر .. ربنا ولك الحمد !! فهنا يقف الزبون متطوعا بحراسة البضاعة ؛ رغم يقينه أن البضاعة فى مأمن وحدها . ولكن سرعان ما يأتى زبون آخر ، ليعرف أن البطرانة تصلى ؛ فيقف ؛ لا فى انتظارها ؛ بل فى حراسة الواقف قبله . وبعد قليل يأتى زبون ثالث ؛ فيلذ له أن يقف فى حراسة الإثنين . وحين يتزايد عدد الزبائن تتطامن البطرانة فى صلاتها ولكن صوتها يعلو إلى ذروته : «كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد .. يـ .. د .. السلام عليكم .. السلام عليكم» . لحظتها يبدأ الجميع فى التزحزح نحو الداخل وكل يمد الفلوس والوعاء الذى سيأخذ فيه طلبه .

فى الطريق إلى دارنا فى ذلك اليوم كانت الأحاديث تتنقل من مجموعة لأخرى، حتى عرفت العجب فى هذه الخطوات القليلة : هذا الضابط ليس من الشرطة إنما هو من الجيش ؛ الأعجب من ذلك أنه ليس

زوج ابنتها إنما هو ضابط عنده . ذلك أن «ملكة» أصغر بنات البطرانة كانت تخرجت وكيلة نيابة ، قبل أن يقع فى غرامها ضابط كبير من رجال الثورة من الصف الثانى أو ما أشبه كما يقولون . أصله من نواحينا ؛ وكان يعرفها وهى طالبة ، ويقوم بينهما حب ، إستخدم فيه عربات الجيش وحمير أهله فى توصيلها والتحويط عليها من أى عدوان خارجى ؛ إلى أن تخرجت فتزوجها فى مهرجان كبير لم ولن تتنساه بلدَتنا أبدا . وقد حاول العريس أن يثنى البطرانة عن عزمها ؛ يجعلها تترك هذه المهنة وتنتقل معهم إلى البندر كى تستريح . غير أنها وضعت أمامه نفس الشرط الذى لا تحيد عنه مطلقا والذى خضع له كل أزواج بناتها السابقات : أن يتركها فى حالها ويضرب صفحا عن مهنتها ؛ لأن الراحة بالنسبة لها تعنى الموت النهائى ؛ وهى أعرف الناس بنفسها ؛ وتعرف أنها لن تستريح فى أى مكان فى الدنيا سوى دارها هذه الكائنة فى شارع داير الناحية .. كذلك لا راحة لها إلا فى شغلتها هذه التى تربت عليها وعشقتها ؛ وهى قد عاشت عمرها معلمة مسترجلة ولسوف تظل كذلك حتى يتوفاها الله .

وهكذا خضع كل أزواج البنات لشرطها . والعجيب أن هذا الشرط لم يعق أى خطوبة ولم يعطل أى فرح ؛ فكأن جميع العرسان قد جاءوا مستعدين لقبول الشرط، بل إن بعضهم لم يكلفها مشقة طرحه عند الخطوبة . وواقع الأمر أنهم جميعا – يقول أهل بلدتنا – أذكياء يؤمنون بالمثل القائل : بركه يا جامع ؛ إذ هم فى الواقع يتمنون إسقاطها من دماغهم نهائيا .

* * *

شكرا لها على كل حال ..

هكذا قال أزواج البنات واحدا بعد الآخر .. فقد صرفت على بناتها فى المدارس العليا ..

وكانت قد نذرت ذلك على الملأ فى جنازة زوجها موسى البطران ، حيث ملست على نعشه قائلة قبل أن تشرع فى أى بكاء أو صوات :

– «الرب لم يرزقنى ذكورا يا موسى ليحموا بناتك ! فلأكن أنا هذا الذكر بدلا منك ! ولتكن كل واحدة منهن ذكرا بمعنى الكلمة ! تحمى نفسها بنفسها !!

لسوف أصرف عليهن يا موسى حتى لو كلفنى تعليمهن جبالا من الأموال ! العلم عزوة من لا عزوة له ! وغدا يكون لكل بنت من بناتك عزوتها التى تغنيها عني وعنك وعن كل أبناء آدم وحواء ! هذا ما نذرته الآن لله ! ولسوف يعيننى الرب لأنى ما نذرت إلا خيرا وما طلبت إلا سترا !! ومنذ متى خيب الله ظنون من رفع إلى السماء يديه ؟! ».

وقد حدث .. تمخطرت ملكات الجمال فى شوارع بلدتنا قدر ما تمخطرن ؛ فكن مجلبة للإحترام أكثر من كثيرين من الرجال . أطرف ما تتناقله الحواديت البطرانية أن جميعهن قد حملن لقب البطرانة مضافا إليه لقب الست . فإن أنت طلبت البطرانة الكبيرة فعليك أن تحدد ذلك قائلا : خالتى بطرانة . أما إن طلبت إحداهن فعليك أن تقول : الست بطرانة الصغيرة . وأنت فى النهاية لن تطلب إحداهن إلا إن كنت تريد مراجعة الحساب أو العدد فى بيعة باعتها لك وحدث فيها خطأ . والبطرانة كانت بذلك راضية وسعيدة ، لاعتقادها أن إسم الأنثى عورة لا ينبغى أن يردده الرجال ؛ وإنه لمن حسن طالعها أن الرجال من تلقاء أنفسهم كانوا يستحون من ذكر أسماء بناتها ..

على أن البنات أنفسهن كن يتحدين أنوثتهن ، ولا يشغلن أنفسهن بها ، كأن أنوثتهن شيء غير وارد عندهن . وإن تجرأ صفيق وذكرهن بجمالهن رددنه فى خشونة لبقة وقارصة ، تجعله يعرق خجلا ولا يكررها .

* * *

كان الحفناوى ، ومن بعده أولاده ، يقومون بتوصيل البنات إلى

محطة القطار بالركوبة كل يوم ، ليركبن القطار إلى مدرسة البندر الإبتدائية والثانوية ؛ وينتظرونهن بالركائب عصر كل يوم ..

فلما التحقت كبراهن «فهيمة» بالجامعة فى مصر أم الدنيا ، إكترت لها أمها سكنا فى المدينة الداخلية مثلها مثل بنات علية القوم ..

كانت «فهيمة» نصف شقراء . فيها شقرة أمها وخمرية أبيها . طويلة كانت كشجرة الجزورين . كل عضو فى جسدها فرع نتوء بارز . عينها كانت نصف خضراء ، نصف سوداء . لسانها ينطق الراء غينا ؛ فكأنها تتكلم الفرنساوى قبل أن تتعلمه ؛ كانت طرية العود ؛ رطبة على الدوام ؛ طرية اللسان حتى وهى تدخله فى أحاسيسك ليقرضها ؛ حادة الملامح ؛ قوية العينين ؛ مفحمة النظرات ..

فى الأجازة الصيفية لم تكن تتورع عن الوقوف فى الدكان بلبسها الأفرنجى المحتشم ؛ لتساعد أمها فى البيع ؛ وتوزع وقتها بين المذاكرة والشغل فى الدكان . وكانت تسافر فى أول العام الدراسى فلا تعود إلا فى بدء الإجازة ؛ وتسافر لها أمها كل جمعتين مرة . ودائما كانت أخبار تفوقها تسبقها مؤكدة رضاء الأساتذة عنها ..

بفضل «فهيمة» أصبح للبطرانة ضيوف كثار من الأفندية الشبان المحترمين مع مندوبين من أسرهم الكبيرة .

لم يكد يمر على التحاقها بالجامعة عامان حتى لحقت بها أختها «تفيدة» ..

ولم تكن «تفيدة» بالطويلة ولا بالقصيرة . كانت سمراء ، قمحية . ملامحها صورة طبق الأصل من ملامح أبيها ، بما فيها من دقة وحدة . واسعة العينين كعيون البقر . كانت مرحة رخيمة الصوت زاعقة النبرة ؛ تتحدث مع كل الناس بلسان حلو يستجلب لها الدعاء من كل الناس .. وكانت تصلى الفرض بفرضه ؛ وتقرأ كل الكتب التى تشتريها أمها للبيع فى أوراقها .

ثم لحقت بهما «فوقية» ، التى كانت رفيعة مربربة ، كعود البان . ليس لجسدها ملامح بارزة زاعقة ؛ لكنها مع ذلك تثير جوع من يراها : فيها رقة وعطف، ومرح ، وأن كان مفحما لمن لا يفهمه . كانت أجرأ قليلا ، وأطول لسانا ، مما جنبها جرأة المتصافقين . كما كانت نشطة فى شغل الدار وفى المذاكرة ؛ لاتلجأ للبيع فى الدكان إلا حين لا يكون هناك أحد غيرها . وقد فاجأت الجميع حين لبست لبس البندر الأفرنجى فإذا هى أجمل قواما من الجميع ؛ وإذا هى أخطرهن فى توزيع الأرق على جميع شبان البلدة وكل من زاملوها فى الدراسة . فى نطقها للكلام لثغة أختها فهيمة ولكن بصوت أقل طراوة وتمددا وأكثر رخامة ورنينا .

ثم لحقت بهن «سوسن» ، التى كانت ذات شكل رجولى صرف . صوتها غليظ كصوت الرجال ؛ حتى لبسها فيه شبه كبير من لبس الرجال : الجلباب الواسع الكم ، المقفل على الصدر بدون ياقة ، الكاسى حتى الكعبين . كانت خمرية اللون ، مستطيلة الوجه ، مسمسمة الملامح ؛ يكاد ينبت لها شارب ، يزيدها إثارة . ليس من دليل أنوثة واضح فيها سوى عينين سوداوين واسعتين برموش مشهرة طويلة ، وحواجب ثقيلة متسقة . يداها كقطعتين من الحلوى ..

لم تكن تتورع ؛ بثوبها ذاك الرجولى الغريب ؛ عن السير بين الحقول كالصبيان ، ممسكة بالكتاب تذاكر فيه ؛ دون أن يجرؤ صبى أو شاب على معاكستها . ليس لشراسة فيها ؛ إنما لأنه لن يجد من يصغى إليه أو يحفل به ، حتى إنه ليستسخف نفسه ، فينصرف عنها صاغرا يرد الطرف وهو حسير ..

كل من اختلس إليها النظر لهج لنفسه ولغيره بأنها ربما كانت أجمل إخوتها على الإطلاق . بات كل من يلتقى بها على طريق المذاكرة يظهر لها انشغاله الجدى الشديد فى المذاكرة ، بصورة مبالغ فيها . قد يوهمها أنه غير منتبه إليها ؛ لكنه لابد أن يتتبع أثرها حتى تختفى عن ناظريه . أما الأولاد الذين كانوا يريدون النجاح فى المذاكرة حقا فإنهم كانوا إذا

رأوها على طريق حولوا وجهتهم عنه فى الحال ؛ إدراكا لوقتهم قبل أن يضيع فى الإنشغال بها دون طائل .

وقد لحقت بهن «لوزة» ؛ التى كان وجهها عبارة عن ظل لثلاث تفاحات ناضجات ؛ واحدة مكان الجبين ، واثنتان تحت العينين فيما يشبه الخدود ؛ يمتد بينهما أنف كأنه ظل لهما ؛ يشرف على ثغر أعد للإبتسام ؛ ينفرج دائما عن صفين من اللولى الأبيض . رقبتها طويلة ، صدرها عريض ناهد بارز بقبتين صغيرتين ؛ يمتد منهما جذع يترفع كلما هبط إلى هضبة العجيزة المختبئة داخل جلباب كالجوال ..

كانت ذات كبرياء عجيب ؛ يحتمله الجميع ويستلذه ؛ لأنه مجرد مظهر. تنقضه عيناها الواسعتان الباسمتان على الدوام فى تألق ذكى صاف ؛ فيه شىء شبيه بالإستسلام أو اللامبالاة ..

الجميع كانوا يسمونها حضرة الضابط ؛ لما فى مشيتها من رشاقة وجدية ، خاصة عندما تلبس ما يسمى بالتاييرات ، وتحتضن حقيبة الكراريس ، وتمشى عائدة من محطة القطار ؛ إذ يفرض عليها كبرياؤها أن تنزل عند مدخل البلدة لتحرجها من أن يراها الرجال راكبة مفشوخة ..

هى التى – يقولون – تفوقت على إخوتها فى اللعب بعقول الشباب وأحلامهم . وهى التى تلقت أكبر قدر من الخطابات والأغنيات ، فلم تحفل بها ؛ ولم تعنف أصحابها عليها ؛ مما شجع العقلاء على الإقلاع وشجع الحمقى على الإستمرار . كما أنها هى التى تحررت بعض الشىء ، فتركت رأسها نصف عارية ؛ على الدوام تلف شعرها بشريط عريض، وتتركه شلالات على ظهرها يخلب لب القوم . كذلك كانت هى الوحيدة التى تبدو خدودها وشفتاها كأنها دهنتهما بالأحمر القانى ؛ فى حين أنها لم تعرف حتى أين تباع هذه الأشياء .

وأخيرا لحقت بهن «ملكة» . كانت إسما على مسمى. كانت شامية

صرفة ، بعيون مصرية صرفة . شعرها مثل الكهرمان اللامع . وجهها يشبه كأسا بللوريا فى قلبه ورد . يحب رائيها أن يتفرج على وجهها كل قطعة على حدة ؛ فلا يشبع من بريق العينين الملتهف الحذر ؛ ولا من أنفها الدقيق كأصبع الطباشير ، ولا من ورد الخدود ، ولا من شفتيها الرفيعتين المضمومتين على شيء غامض هو أقرب إلى السخرية أو الخبث اللطيف أو النكتة المتحرجة من الرغبة فى الإنطلاق ..

الغمازات فى صدغيها وذقنها تنقبض وتنفرج كلما شرعت تبتسم ؛ إذ هى دائما فى مشروع ابتسام ساحر ؛ كأنها تخشى إن هى أطلقت بسمتها نبحت عقول الناس .

نصفها بياع صرف ؛ وهذا ما يغرى بها قلوب جدعان البلد . ونصفها الآخر بندرى طلابى صرف ؛ وهذا ما يغرى بها قلوب أبناء المدينة ذوى الأصول الريفية ؛ كأنما اجتمعت فيها القرية والمدينة معا كأنصع ما يكون اتساقا وامتزاجا . جدعان القرية الحالمون يتعشمون فى الإلتحاق عن طريقها بالمدينة . وشبان المدينة يحلمون عن طريقها بالحنين إلى الريف ..

ولقد ضربت الرقم القياسى فى اقتتال شبان البلدة بشأنها مع شبان المدينة الذين يزورونها من حين لحين .

فأما «فهيمة» - وياللعجب - فقد عملت معيدة ثم أستاذا بكلية الهندسة . وقيل إن جمالها كان أخطر من تفوقها الدراسى . فلقد أحبها أستاذها الجهبذ الكبير ؛ وتزوجها ؛ ثم مالبث أن أصبح وزيراً للأشغال فى حكومة الثورة المباركة .

ولم تكد هى تنشغل بأمور الزواج حتى كانت «تفيدة» قد تخرجت وعينت هى الأخرى معيدة فى كلية الطب ! ليقع فى هواها أستاذ آخر ؛ فيتزوجها ..

كان زواجها سبب السعد على الجميع . قيل أن الزوج كان من بين القومسيون الطبى الذى يعالج سيادة الرئيس شخصيا . وقد ضم زوجه

إلى عيادته الخارجية المهولة الشهيرة فى مصر الجديدة باسم مستشفى الملكة .

وأما «فوقية» فقد تخرجت فى كلية الآداب وعينت مدرسة للغة الإنجليزية فى مدرسة دسوق الثانوية . وكان حكمدار المديرية يسكن فى منزلهم المواجه للمدرسة ؛ فإذا هى تلحس مخه بسرعة البرق . ظل يراقبها شهورا طويلة حتى عرف كل شىء عنها وعن أهلها ؛ حتى شرط أمها عرفه وابتسم له مرحبا ..

وكانت هى وجه السعد عليه ، إذ رقى إلى رتبة مدير الأمن فى الأقصر ؛ فانتقل إلى هناك ليعيش بين السياح .

وأما «سوسن» فقد تخرجت فى مدرسة الحكيمات ؛ وعينت حكيمة فى القصر العينى . وكانت تساعد أختها فى مستشفى الملكة الخصوصية؛ فكان المرضى يخلطون بينهما ..

وقد حدث أن شيخا سعوديا من شيوخ النفط والمال كان نزيلا بالمستشفى . فما كاد يشفى من مرضه حتى وقع فريسة لمرض الحب . ولم يمهله الحب طويلا ؛ فتقدم لخطبتها بشروط مغرية جدا ؛ أهداها قصرا فى حى جاردن سيتى ، وسيارة يسمونها البويك ، وأرضا للبناء فى زمام بلدتنا ، ورصيدا فى البنك ..

إعتزلت المهنة وانتقلت لتعيش معه فى بلدان أوربا ، حيث مكاتب شركاته المتناثرة فى أثينا وقبرص ولبنان وباريس ولندن ونيويورك ؛ ولديه فوق ذلك شركة ملاحة بحرية ؛ وجريدة خاصة به تصدر فى السعودية ليدعو على صفحاتها لمنتجاته وأعماله ، ويتصالح بها مع الحكام وأمراء البلاد ، ويستجلب لها المحررين والكتاب من القاهرة .

«لوزة» هى الوحيدة التى شذت عنهن فى أمرين وإن كان حظها لم يقل عن حظهن . فهى لم تكمل تعليمها مثلهن ؛ إكتفت بشهادة التوجيهية؛ أو لعلها أرغمت على ذلك بسبب الأمر الثانى الذى اختلفت فيه عن

إخوتها . ذلك أنها – دون إخوتها – هى التى وقعت فى الغرام ، أحبت شابا من بلدتنا كان يعمل محاميا تحت التمرين ؛ وكانت لصالح أحدهم ..

لكن الظروف خيبت ظنونهم ؛ إذ أن «خالد حرفوش» دخل حزب الإتحاد الإشتراكى فنجح فيه بجدارة . ثم إذا هو يرتقى ممثلا للبلدة على مستوى المركز ثم على مستوى المحافظة ؛ ثم يصبح بين عشية وضحاها عضوا باللجنة المركزية ؛ ثم إذا هو يترشح لمجلس الأمة ، فيكتسح كل المرشحين لمنافسته .. وإن هى إلا سنوات قليلة أخرى حتى أصبح خالد حرفوش وزيرا للعدل ..

ويقول بعض الخبثاء أن خالد حرفوش وثب على كرسى الوزارة لا لشىء إلا لكونه حفظ الميثاق وفلسفة الثورة ويحشرهما حشرا فى كل خطبه ومقالاته وأشعاره ومرافعاته ..

وعندما مات الزعيم عبدالناصر كان خالد حرفوش قد بات صاحب عزبة كبيرة فى نواحينا ، وصاحب شركات نقل ومكاتب استشارية ؛ ثم أعلن انضمامه لحزب مصر مع الرئيس السادات . فلما ألغى الحزب واستبدل بالحزب الوطنى صار من أقطابه . ثم إنه اختفى بعد ذلك نهائيا من البلاد . وقيل إنه أصبح يعيش نهائيا فى أمريكا ، إذ أن له فيها مزارع ومصانع أدوية . وقيل إنه يعمل سمسار أسلحة يوردها للفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين والإيرانيين والسودانيين والليبيين والتشاديين والباكستانيين .. فكل هؤلاء فى حاجة إلى أسلحة يضربون بها بعضهم بعضا ..

المهم أنه لم يعد يظهر مطلقا فى أى مكان بعد أن كان ملء السمع والبصر . ولقد مات أبوه حلفاوى حرفوش دون أن يحضر هو جنازه . وقيل إنه وكّل البطرانة فى تصفية أملاكه بالبلدة ..

وبسببه أصبح يشاع فى البلدة أن كل أزواج بنات البطرانة قد سافروا جميعا إلى بلاد الفرنجة وأقاموا هناك .

* * *

البطرانة إذن شخصية خلاف ما كنت أتصور . مع ذلك ظلت مجرد فسخانية عجوز بسيطة بساطة كوم السباخ أمام دكانها . ومع كل ما أشيع حول هروب أزواج بناتها وانفضاض المساند من وراء ظهرها ؛ ظلت كقطعة حديد معقوفة يفتحون بها أصعب الأقفال . ولطالما بهرت الناس بحل مسائل عجز عن حلها نائب البرلمان . إنها إذن لحقيقة بقدر ما هي خيال . وقد يقع الإنسان في محنة وتضيق به الدنيا فلا تنفرج عنه الأزمات إلا لكونه – فقط – تذكر البطرانة .

هذا ما حدث لعبدالخالق الصردى ، التاجر الكبير في بلدة العجوزين، الذى فرضت عليه الحراسة مرتين . ويقال أنه تذكر البطرانة في لحظة ضيق فجاء إليها بسيارته المرسيدس ، وتصاحب معها مدة شهر أو أكثر ؛ بعدها علمنا أنه قد صار عضوا كبيرا بالحزب الوطنى تنشر الجرائد صوره .

وكان لى عم إسمه عبدالله افندى يكبر أبى بأعوام ؛ كانت هذه الحكاية تستثيره ولا يكف عن ذكرها في كل مكان كدليل على اقتراب الساعة – أى يوم القيامة والعياذ بالله – حيث قد غضب الله على القوم فحكم عليهم إمرأة .

ولا أحد يدرى كيف حصل عمى عبدالله افندى هذا على لقب الأفندى رغم أنه يعرف القراءة والكتابة فقط وليس يرتدى من زى الأفندى سوى الطربوش مع الجلباب الصوف والعباءة فوقها مكومة على كتفيه . وكان دائما على سفر إلى البلاد والأسواق متاجرا في زبل الحمام . له من هذه التجارة ثروة لا بأس بها ، وشهرة تفوق الوصف ؛ حتى لقد اشتهر في بلدتنا وكل البلاد باسم الحاج عبدالله افندى رسمال الحمام . يعمل تحت سيطرته رهط من الرجال السريحة معظمهم من البرلس ؛ ينطلقون في شوارع البلاد حاملين الأجولة الفارغة ينادون بلهجة غنائية فيها شجن : رسـمال حمام للبيع رسمال حمام للبـ .. يـ .. يـ .. يـ يعْ ..

فأنت وغيرك تستوقفه وتعرض عليه ملء قفة من زبل حمامك . يدب الرجل يده فيها يقلب جيدا ويقول : آدى نص افرنك بالصلاة ع النبى ! ويدلق الكمية فى جواله دون أن يفاصل معك . وأنت تقول لنفسك : النصف افرنك لا بأس به فوق أنك تتخلص من زبل الحمام ..

كل ذلك يعود إلى عمى عبدالله افندى رسمال الحمام فى النهاية ، ليعبأ فى زكائب كبيرة تملأ مندرتنا ويتنقل إليها كبار تجار الأسمدة للمعاينة ودفع الأموال ، ليوردوه بدورهم إلى مزارع البطيخ لتسميد الأرض به فى سبيل بطيخ كبير مضمون الإحمرار والحلاوة والخشونة . وحينذاك تنتفخ أوداج عمى عبدالله افندى رسمال الحمام ويصبح كالديك الشركسى يروح ويجىء فى الدار يشخط وينطر ويبرطم ويهلفط ويتشدق ، بوجهه الذى يشبه صرة النقود الكبيرة ؛ فإذا احمر عند الفرح أو الغضب صار كالفرخة المكتفة المحمرة ، وتختفى عينه تماما تحت التجاعيد الكثيرة . وهو معلوف دائما من نسوانه الكثيرات ، إذ أنه مزواج مطلاق يبحث فى بطون النساء عن ولد ذكر يخلفه فلا تعطيه البطون سوى المزيد من الإناث ؛ فيكتم الحسرة فى قعر بطنه لكنه ما يكاد يشم رائحة النكتة أو التهريج حتى يتحول إلى مهزار لا نظير له فى الضحك والمسخرة ..

لكنه كان دائم السخرية من ذلك المشهد الليلى الذى لابد أن يحدث كل يوم بين أبى وبين صدقى النشرتاوى أقرب جار لنا ..

صدقى النشرتاوى كان جنديا فى الجيش أيام هوجة عرابى كما يسميها . وقبل تجنيده كان غناما ، مهنة أبيه الأصلية . فلما أنهى الخدمة فى الجهادية وجد نفسه قد ترفه ونسى أمور الأغنام فتركها لأبيه ثم لأولاده ؛ وذهب فتعلم الزيانة فى البندر ؛ ليصبح أقدم حلاق فى بلدتنا ؛ ويفتح دكانا فى شارع داير الناحية ؛ مجرد بناء من من الطين بباب خشبى يغلق بدرفيل ، فيه طاقة يضع فيها حقيبة العدة ، وهى جلدية جرباء من نوع المنفاخ ؛ فيها مجموعة أمواس ملفوفة فى فوطة بيضاء

حائله على الدوام ، وصبانة بها بروة صابون ، وفرشاة ، وحجر يسن عليه الأمواس ، وإبريق معدنى صغير به ماء ..

غير أن صدقى النشرتاوى نادرا ما يفتح هذا الدكان إلا فى فترات محدودة ؛ إذ أنه يلف بالحقيبة على زبائنه فى دورهم ليأخذ لهم ذقونهم كل بضعة أيام ويسوى لهم شعرهم كل شهر ، ويتقاضى الأجر بنظام الميسانية حيث يأخذه محصولا عند كل حصاد . وكان يحلق لعائلتنا كلها مقابل ثلاث كيلات من القمح ومثلها من الذرة والفول كل عام ..

بينه وبين أبى صداقة عجيبة وود غريب ؛ ولهما الدلال على بعضهما بشكل ليس له مثيل . كان لهما طقس يومى تعرفه البلدة كلها ؛ يبدأ بعد منتصف الليل ..

فلصدقى النشرتاوى مصطبة أمام داره كما أن لنا مصطبة أمام دارنا تحت شباك مندرتنا . وفى العادة يسهر أبى فى المندرة . وفى لحظة معينة يمضى ليقف بباب المندرة ؛ يرمى بصره عبر الساحة الكبيرة الخالية ؛ حيث تربع النشرتاوى على مصطبته وراح يدخن السيجارة ، وبجواره قلة ماء ..

يقف أبى مرتديا الفانلة ذات الأكمام ، والسروال الكاسى حتى ركبتيه والحايك على الحزام بدكة ذات شراريب ؛ وفوق الفانلة الصديرى . ينجعص أبى ساندا ظهره لباب المندرة صائحا فى لهجة بندرية ممطوطة:

– «وله يا خرووووف !»

فيرد عليه النشرتاوى من فوق مصطبته من خلال حنك أهتم :

– «مرحب كبش !» .

ثم يجلس أبى على مصطبته فى مواجهة النشرتاوى حتى مطلع الفجر ؛ يتحاوران على طريقتهما المعتادة : فأبى من حين لحين يفتعل كحة تسقط من تحتها ضرطة مضغمة . حينئذ يجىء صوت النشرتاوى :

- «أهلا ! إنت لسة عايش ؟!»

ثم يبعث إليه بقنبلة فى شكل ضرطة ، كأن الضراط فى مخزن لديه يتحكم فيه كيف يشاء ويطلقه وقتما شاء . وتمر لحظات طويلة من الصمت العميق لا يقطعه سوى نقيق الضفادع وصفير الصراصير . فإذا اشتعلت السيجارة فى يد أحدهما إنتبه الآخر وأشعل واحدة . وقد يظن أحدهما أن الآخر قد استغرق فى النوم ؛ فإذا بضراط عال يبعثه النشرتاوى بفصيح العبارة . فينتفض أبى صائحا على الفور من مقعده البعيد :

- «إنزل يا خرووف !»

فيرد النشرتاوى :

- «إقعد يا كبش !»

وهنا يخرج صوت عمى عبدالله افندى رسمال الحمام ، من قاعته المطلة على الساحة ، مترنما بصـوت أجش غليظ لا يمت إلى الغناء بصلة :

- «الكبش قال للخروف راحت عليك يا خروف !»

«تعاكس النعجة ليه ؟ بالزمة مش مكسوف !»

«قال الخروف للكبش ما فيكش غير القرون !»

«عامل لى فيها دكر .. وانت راجل دون !»

ويكون هذا إيذانا بانطلاق الضراط من هنا وهناك فيما يشبه أن يكون صيحات الإعجاب والإستحسان ..

وكنت أظن أن هذه الأغنية لا هدف منها سوى السخرية من هذه العلاقة الغريبة القائمة بين هذين العجوزين ؛ ولكن سرعان ما اتضح لى أن أخى عيسوى لديه معلومات عجيبة وراء تأليف عمى عبدالله افندى رسمال الحمام لهذا الموال الهازل . وقد حـكاها لى ذات ليلة بصريح العبارة ، على إيقاع كحة أبى وضراطه فوق المصطبة الخارجية ..

قال أخى عيسوى أن أبى وصدقى النشرتاوى يتنافسان فى حب البطرانة شخصيا ، على الفوز بقلبها واهتمامها ؛ وأن النشرتاوى يبعث بضراطه العالى كرسالة إلى البطرانة فى عمق الليل ، كى تفهم أنه صاحب هذا الضراط القوى فصحته تبعا لذلك قوية جبارة .

وقد أكد أخى عيسوى أنه ضبط أبى والنشرتاوى أكثر من مرة أثناء الحلاقة يتحدثان بشهية فائقة عن المفاتن المكنونة فى جسد البطرانة العبقرى ؛ كأن كلا منهما يوحى للآخر أنه رأى جسدها عاريا وتذوقه جيدا حتى يتكلم عنه هكذا ... وهذا هو السر فى أن أبى يستمتع بوقت حلاقة ذقنه ؛ كما يستمتع النشرتاوى ؛ لأنهما متى انفردا ببعضهما برح بهما الشوق للحديث عن أحضان البطرانة الدافئة . والحديث بينهما حميم كأنهما يمارسان الجنس فى بعضهما البعض ، لدرجة أنهما يغلقان الباب ويندمجان فلا يشعرا بأى شىء حولهما . ولقد بات كل منهما يراقب الآخر ويطمئن على وجوده كل ليلة ، توقعا منه لأن يكون قد سبقه وتزوج من البطرانة .

* * *

ما كنت أنتبه لهذه العلاقة العجيبة الغريبة بين هذين العجوزين ، حتى بدأت المفاجآت تترى ..

بعد أيام قليلة إكتشف أخى عيسوى شقا نافذا فى أسفل الجدار الخلفى للمندرة فى ركن ركين ، لا يكاد يظهر منه سوى ثقب صغير قابل للإتساع بمجرد اللمس ، ومختف تحت أرجـــل كنـبة عتيقة . وكان من المعروف لنا جميعا أن هناك شرخا متعرجا على هذا الجدار صاعدا من أسفل إلى أعلى نحو السقف ؛ فسره أبى وأعمامى بأنه شرخ فى الفقق بعيد عن صلب الجدار ..

ولكن أخى عيسوى حين دخل بكل جسمه تحت الكنبة باحثا عن البراية التى وقعت منه ، إرتد صارخا وهو ينتفض ؛ ثم أزاح الكنبة قائلا

إن البراية كانت وصلت إلى أطراف أصابعه لكنها انزلقت وطارت واختفت إثر حركة انتفاضة قوية صدرت عن هذا الثقب فى هذا الركن ، تبعها فحيح أنفاس ساخنة لامست أنامله . وأخذ يشير لنا نحو الثقب فى أسف الركن . جعلنا ننظر فيه ونحن ننتفض ؛ فوجدنا أن الأرض تحته رخوة مبرككة ..

قال أخى عيسوى إن هذا الشق هو بيت الثعبان المعتق الذى يعيش على أفراخ الحمام فى أبراجها فوق سطح هذه المندرة ، إذ أن البرج فوق هذا الركن مباشرة ؛ ولابد أن الثعبان العجوز القوى من أكل الحمام قد ثقب لنفسه طريقا داخل الجدار والسقف ينفذ منه إلى بنانى البرج ..

وجاءت عمتى تجرى حاملة قصعة مليئة بالطين ؛ صارت تأخذ منها بالحفان وترمى فى فتحة الثقب تسدها ؛ فكان الطين يرتد بعد برهة متناثرا ؛ ورأينا ذيل الثعبان بالفعل ، أسود تخينا عليه طبقة من الشعر ، ما لبث حتى اختفى . عمتى راحت تحشر خرقا بالية فى الثقب وتليس فوقها بالطين المخلوط بالتراب حتى سدته تماما سدا محكما ، وقالت كأنها تدارى خوفها : «إنه لا يؤذى أحدا ليكن فى علمكم ! لا يؤذى إلا من يحاول إيذاءه !!» ؛ ثم أعادت الكنبة إلى وضعها . وكان واضحا أنها لم تفاجأ بهذا الثقب ولا بوجود الثعبان ؛ لكنها أوصتنا بعدم فتح هذه السيرة حتى لا يرتعب الرجال وهم جلوس فى المندرة . فسخر منها أخى عيسوى قائلا إنه سوف يسكت حتى يهجم الثعبان على أحدهم فيقتله ثم بعد ذلك يتكلم . ونهرته عمتى وقالت إن الطريق الوحيد للخلاص من هــذا الثعبان المعتق هو أن نهدم فوقه الدار كلها ونبنيها من جديد . فقال لها أخى عيسوى :بل الأفضل أن نهدم أمخاخنا ونستبدلها بأمخاخ أخرى .. ثم جمع كراريسه ومضى ليذاكر فى مكان آخر ؛ فتبعته مشيا على أطراف أصابعى، وقد داخلنى شعور غامض بأن الأمن لن يعود لى فى هذه الدار بعد الآن مطلقا ..

وكان هذا الأمر كفيلا بأن يشغلني لولا أن أشياء أكثر غرابة كانت قد بدأت تحدث في دارنا ..

لاحظت أن زيارة النشرتاوي لأبي قد تزايدت ، وبدون حقيبة الحلاقة. فكنت أراني مدفوعا للتلصص عليهما بشغف كبير . فلم أكن أسمع شيئا مفهوما ؛ ولكنني كنت أرى ملامحهما تتوتر وتنقبض ؛ وأحيانا يندمجان في ضحكة ماجنة تتقاطر منها المرارة ؛ وأحيانا يحتدان على بعضهما حتى ليوشك كل منهما أن يطبق في خناق الآخر ؛ إلا أن الحدة تنتهي بتشويحة هنا أو تلويحة هناك ؛ يصمتان بعدها في توتر واضح . وأبي يقطع الصمت من حين لآخر مصمصما بشفتيه في استعجاب ، مصفقا كفا على كف مرددا : أما دي عجيبه والله ! » ..

إقترنت هذه الظاهرة باختفاء عمي عبدالله افندي رسمال الحمام منذ بضعة أيام حتى ظننت أنه مسافر كالعادة . غير أن أبي قد بدأ هو الآخر يكثر من الغياب خارج الدار . أما نسوان الدار فكن يتجمعن في الحوش ويبدو بينهن الود على غير العادة ، فيكثرن من الوحودة والتشويح والتلويح والولولة الصامتة ؛ مما أشعرني أن شيئا غريبا ، بل غريبا جدا يحدث في دارنا .

* * *

وذات مغربية شاحبة مختنقة الأصيل كثيرة السحب عظيمة الكآبة؛ فوجئنا بصخب وصياح في الساحة الكبيرة أمام دارنا .. فاندفعنا كلنا نجري تجاهها ..

فإذا بعمي عبدالله افندي رسمال الحمام مرتديا ثيابه الفخيمة ، حليق الذقن مجلو الأطراف ؛ يحيط به رهط من صبيان الحارة وشبانها الصغار ؛ يقودهم أبي بنفسه ، وهو يصفق بيديه مرددا كالأطفال :

– «العريس أهه .. أهه ! العريس أهه .. أهه !»

والأطفال يردون عليه في بهجة وحماس شديدين ومن خلفهم وقف

النشرتاوى يرقب ذلك المهرجان ويطبق شفتيه على ابتسامة مريرة حاقدة تخشى أن تعلن تشفيها ..

أما عمى عبدالله افندى رسمال الحمام فإنه ينكس رأسه فى خجل حقيقى ، يعتقل ابتسامة شاحبة بين شفتيه ، فيما هو يخطو نحو مندرتنا، كمن ضاعت كل ثروته فى السوق الخوان . لحظتئذ ، فهمت على الفور أن عمى عبدالله افندى رسمال الحمام قد تزوج من البطرانة . ونظرته يدخل مندرتنا وينحط جالسا كالفتاة التى فقدت عذريتها واستسلمت للفضيحة . كان على وشك البكاء يردد عبارة واحدة : عندكم حق ! عندكم حق ! أنا أستاهل كل اللى يجرى لى ! ..

أسرع أبى فأغلق الباب الذى يوصل المندرة بالدار ، وكذلك أغلق باب المندرة المطل على الشارع ؛ وعند اقترابه من عمى كان النشرتاوى يقترب هو الآخر نحو عمى من الجهة الثانية ؛ فبدا كأنهما سيحاصرانه بعنف ، بل خيل لى أنهما سيقتلانه فى الحال خنقا . لكنهما اكتفيا بالوقوف الصامت المنذهل المتوجس ، الساخر مع ذلك . ورأيت عمى عبدالله افندى رسمال الحمام يولول كالنساء قائلا فيما يشبه الهذيان :

– «كتبت لها نصف الدار مهرا !»

شخر أبى قائلا فى سوقية مذهلة :

– «إنـ ... زلْ !! »

وقال النشرتاوى فى معجبانية :

– «ظننتك أخذت مهرا يا رطل !»

وكان من الواضح أن عمى يكلم نفسه :

– «لم آخذ غير البعبوص المشقى ! إنه إبليس عليه اللعنة ! أضاعنى! أضا .. عـ .. نى !»

ولكزه النشرتاوى فى كتفه صائحا :

– «لكن ما رأيك فى البضاعة ! البضاعة أهم شىء ! هل ذقت اللحم؟!»

نظر له عمى كأنه يسترحمه ، ثم زفر ، وبدا كأنه يريد أن يشق الهدوم من شدة الضيق ؛ والعرق يتصبب على جبينه بغزارة شديدة . ثم شوح بذراعيه مستعيدا شيئا ضئيلا من سطوته طالبا أن يوسعوا له ؛ وتمدد فوق الكنبة على ظهره وقد راح صدره يعلو ويهبط . وقال أبى وقد بدا أنه استشعر شيئا من الخوف الغامض على عمى :

– «عيب عليك يا رجل أن تتزوج دون علمنا ! على الأقل كنا نصبح عليكما !»

وكانت الغربة قد بدأت تظهر فى عينى عمى عبدالله افندى رسمال الحمام ، فكأن العين لا تتعرف على شىء مما حولها ، لكنها كانت تروح وتجىء مع لسانه كبندول الساعة :

– «صبـ .. ا .. حيـ .. ـة سو .. د .. ا .. ء ! ! فتـ .. شـ .. ت كل شىء ! فتشت دارها كلها ! لم أجد أى شىء ! أى شىء ! لا شىء فى دارها ! لم .. تكن .. فلوسها ! .. كانت .. فلوس الناس .. و .. أخذوها!!»

ثم صمت يلتقط أنفاسه . وقال النشرتاوى :

– «المهم ما رأيك فى البضاعة ؟!»

وجلس أبى على حرف الكنبة وقد ظهر عليه القلق على حالة عمى ؛ فبدأ يمد يده ويتحسس بها صدره ، لكنه قال بيأس :

– «وما العمل الآن يا ترى ؟!»

فتح عمى عينيه ، وهز أصبعه فى وهن ، مرددا :

– «لن .. أعود .. إليها .. رميت عليها يمين الطلاق !»

– «وهل يصح منك هذا يا رجل ؟ تتزوج القرد من أجل ماله ! فلما تجده مجرد قرد بلا مال .. تطلقه ؟!»

هكذا قال النشرتاوى ؛ وأمن أبى على قوله بهزة من رأسه فإذا بعمى يهز أصبعه ثانية ويتأتىء :

– «أبدا .. أبدا .. طلقتها لأننى .. عثرت على شهادة ميلادها .. لقد .. لقد .. إ .. إ .. إتضح لى أ ..أنها .. يـ .. يـ .. يهـ .. يهو»

فانحط على الجميع صمت رهيب ، كأن سقف المندرة قد وقع فوقنا .. حتى أن النشرتاوى لم يحتمل الوقوف فهبط جالسا على قرافيصه ، ساندا رأسه بيديه . أما أبى فإنه جمد على وضعه شارد النظرات كأنه انسخط . وأما عمى عبدالله افندى رسمال الحمام فإنه قد أغلق عينيه ورمى برأسه على جنبها وبدا كأنه استراح إلى الأبد ..

ورغم أننى كنت أشعر أن أمرا جللا قد حدث الآن لتوه سوف تنقلب له الحال فى دارنا رأسا على عقب ؛ فإن عينى كانت قد تعلقت بالشرخ الماثل فى الحائط ، واللياسة التى حبشتها عمتى قد تشققت ، وظهر الشق من جديد .

ديك الجن

من يوم ما جاء بى المقاول من بلدتنا فى آخر الصعيد الجوانى لكى أحرس له عدة شغله التى يتركها ها هنا ؛ لم أنزل إلى هذه المدينة التى كانت فرحتى بالشغل من أجل رؤيتها . لم أر من هذه المسماة بمصر سوى هذا الشارع الطويل المسمى بصلاح سالم ، حيث تصطف المقابر والجيشان على جانبه الملاصق لجبل المقطم ، وفى الجانب المقابل شريط ما يسمى بالمترو ، وإدارة قيل لى إنها تسمى بالأمن المركزى ، ولا شئ غير ذلك سوى الوحشة والليل الغويط . من حسن حظى - فيما يقول لى الفواعلية من بلدياتى المقيمين هنا من سنين طويلة - أننى جئت بعد مدة طويلة من شق هذا الشارع الطويل الذى أطلقوا عليه اسم صلاح سالم ، الذى قيل لى إنه من رجال الثورة ، ولكن لم يقولوا لى ما هذه الثورة وما عملها وفى أى مكان تكون ؛ وقالوا أننى لوجئت قبل ذلك لما قدر لى أن أستمر فى العمل ليلة ثانية بل ما قدر لى مواصلة الحياة أصلا ؛ إذ أن هذه المساحة الخالية التى يبنى فيها المقاول صفا من العمائر والدكاكين فوق أرض انتزعها من جسد المدفونين فيها ، كانت مقابلة لبقعة اسمها «قطع المرة !» . هو عبارة عن سرداب ضيق متعرج تحفه المقابر من كل ناحية ويغرق فى ظلام دائم ويبعث على الخوف والرعب المشبع برائحة الرطوبة ورائحة الجثث المتعفنة ليل نهار ؛ ملئ بالحفر العميقة الخادعة والأرض الرخوة التى إن داسها غريب هبطت به إلى «فساقى» وجحور مليئة بالثعابين وأطفال الذئاب والثعالب وقطاع الطرق . سمى «قطع المرة!» ، لأن أى شخص يجرؤ على المشى فيه بعد أذان المغرب مباشرة

لابد أن يتحول إلى امرأة ، من فرط ما سيلقاه ويتعرض له من مفاجآت واعتداءات ومخاز . مع ذلك فإنه الممر الوحيد الذى يسلكه أهل منطقة قايتباى وهم عدد كبير جدا من الناس شغلتهم طربية وحريرية ومطبعجية وقهوجية وغرزجية وبلطجية ومخزنجية للمخدرات . منهم من يعمل فى قلب مصر ولابد أن ينزل إلى شغله كل يوم ويعود إلى بيته كل مساء ؛ والنزول إلى المدينة قائم على الأقل من أجل تموين المؤن ؛ ولهذا تعود القادمون إلى هذه المنطقة من أهلها أن يتجمعوا في نهاية شارع الأزهر على جبل الدراسة لكى يعودوا معا فى جماعة تونس بعضها بعضا . أحيانا - يقول الولد بلدياتي - كانوا يلتقون فى نهاية السهرة بعائد منفرد يتملكه الرعب على مقربة من مدخل الدرب لايجرؤ على الدخول ؛ فيقاولونه على أجر مقابل توصيله حتى باب منزله فيعطيهم الأجر بدون لكاعة وفوقه بوسة من رش السجائر ، حامدا الله أنهم ليسوا قطاع طرق ولم يتعرضوا له بالأذى فى الطريق ..

بلدياتى هؤلاء لم يشعروا أنهم حسرونى على ضياع هذا الممر السحرى ، الذى كان كفيلا بإسعادى ، وكنت قمينا بأن أحوله إلى مملكة خاصة بى ؛ أما مسألة «قطع المرة !» هذه فقد أثارت خيالى وأصبحت تهيجنى وتشد أعصابى كلما سمعتها . وهذا هو السبب فى أننى أصبحت مغرما بالسير ليلا فى المنطقة التى تبقت من ذلك الممر ..

ورغم أن الطريق المرصوف قد أضاء بعواميد نوره كل أنحاء المقابر، ونشر ضوءه بين الحنايا والمنعطفات ؛ فإنه لم يمنع الوحشة ولم يجئ بشئ من الأنس . وإننى لأقضى الليالى كلها ساهرا ، والسكين مربوط على ساقى ، والشومة فى يدى ؛ فلا أرى غير سيارات تمرق منطلقة بسرعة ، وأشباح ناس يدخلون ويخرجون من حى المقابر الذى يتجاور فيه الأحياء مع الأموات فى حجرة نوم واحدة وربما على سرير واحد ، وكنت فى قرارة نفسى أعرف أن هذا المقاول وضعنى هاهنا كرمز لوجود حارس لا أزيد ولا أقل ، معتمدا على شهرته بأنه قوى الشكيمة

نافذ على رجال الحكومة من كبيرهم لصغيرهم ويكاد لولا ذوقه يأمرهم وينهيهم ؛ كما أن معداته ثقيلة ومعظمها راسخ فى الأرض ليس من السهولة نقلها إلا بقوة عصابة كبيرة مزودة بشئ من الأسلحة والسيارات . أما مواد البناء من طوب وأسمنت فموضوعة فى مخازن مغلقة بالضبة والمفتاح ..

كان الليل يكاد يقتلنى مع أن وجودى لا لزوم له . لكن الله بعث لى بتسلية بديعة . كان أحد الفواعلية يقضى حاجته فى حنية من حنايا المقابر فعثر بين القمامة على كيس من القماش ممتلىء بقطع الحشيش والأفيون الملفوفة فى ورق السوليفان ؛ فجاءنى بها يرتجف طالبا منى إخفاءها حتى آخر النهار مقابل الحق فى جزء منها . فزعمت له أنها تخص تاجرا أعرفه ، وعينت له إسماوهميا ادعيت بأنه جاء يسألنى عنها ، وأنه تعود أن يرميها بين القمامة ويجلس على المقهى للتمويه فلا يعود إليها إلا ليأخذ قطعة منها لمشتر : واستبحت لنفسى أن أفتحها وأعطيه ثلاث قطع على سبيل الحلوان الذى سأقنع به صاحبها ؛ فقبل الفواعلى ذلك عن طيب خاطر . ومن يومها وأنا أنعم بالإنسطال العميق وروقان الأفيون كل ليلة .. تسخن دمائى ؛ أروح أتمعن صور الراقصات والممثلات العاريات التى نزعتها من مجلات يتركها المهندسون ، وعلقتها على حائط هذا الكوخ الذى بنى لى خصيصا على مقربة من الشغل ظهره للصحراء ووجهه فى اتجاه المقابر . كثيرا ما تمددت دافنا نفس فى الرمل مطلقا خيالى يحوم ويتلكأ فى سرداب قطع المرة ؛ ليعيده من جديد فيضع فيه امرأة ضالة تقع فى يدى لأدخل بها - بكل جسارة - أى حفرة من حفره أو فسقية من فساقيه ؛ لأنفض فوق نهودها كل هذا العذاب الذى يأكلنى، ويتجدد أكلانه صباح كل يوم ، حين تدلق السيارات علينا طوائف من فتيات كاعبات ونساء يشبهن كوز العسل ، جئن بصحبة شبان خرعين أو عجائز مكحكحين أو بمفردهن لكى يتفرجن على الشقق المحجوزة بأسمائهن فى هذه العمائر ؛ فأسارع أنا باقتيادهن إلى الطوابق ، أريهن

الشقق . هن يتعاملن معى بود كبير ، يغمزننى بالبقشيش الدسم ، يخطرن أمامى كالأوز من حجرة إلى حجرة ، ليطلن الوقوف فى المطبخ والحمام يتخيلن أوضاعها بعد تشطيبها ، يتحركن بكل حرية فتتكشف لى أفخاذ وأرداف وأثداء ومؤخرات مبرومة مقلوظة يطير لهامخى . أما حين ينظرن لى بعيونهن الواسعة المتقدة فحينئذ يخيل لى أنهن بنات الجن والشياطين يطلعن لى فى هذه الأوقات من الضحى إلى العصر ثم يختفين مخلفات فى نفسى لواعج وخواطر توسوس فى رأسى بأنهن لا يمكن أن يكن من بنات الإنس وإلا فإنهن من طينة غير طينة أهلى وعشيرتى فى بلدتى .. تضمحل صورهن فى أوائل الليل ، ويستقر اليقين بأنهن محض جنيات طيبات جئن يعابثننى ويتسلين بى وقتا ينصرفن بعده ؛ لكنهن فى عمق الليل يستيقظن بمجرد ما يسرى روقان الأفيونة فى عروقى وتشعشع فى دماغى أنفاس الحشيش ؛ فأروح أضاجع من تعجبنى فيهن فلا يسعفنى الخيال إلا لدقائق قليلة أستريح بعدها قليلا ليتأكد لى أننى لم اضاجع فى الخيال سوى بنات الجن ، فيغلبنى النعاس فلا أصحو إلا قرب الضحى ؛ لأراهن أمامى فى ملابس جديدة وأشكال جديدة يسألننى عن المقاول ، عن مواعيد التشطيب ، عن أشياء كثيرة لا أعرف لها جوابا ، لكن الأمر ينتهى دائما بالصعود إلى الطوابق والتجوال بين الشقق وبين جحيم المؤخرات المفلوقة علنا تحت ثياب خفيفة سائبة ، والأثداء النافرة مع كل انحناءة معاينة ، والأرداف المنسابة والبطون التى تتماوج فى المشى بين الطوب والحصى ..

إلى أن جاءت تلك الليلة الموعودة التى لا تريد أن تنمحى أبدا . كنت مندمجا فى التحشيش مستحضرا إحدى بنات الجن فى ضوء اللمبة الصاروخ ذات الشعلة بغير زجاجة ، شربت وحدى ربع قرش محترم ، وأفينت بقطعة كالحمصة ؛ ثم خرجت أشم هواء الدراسة فى ضوء القمر الفضى ؛ فإذا بى أرى مبنى إدارة الأمن المركزى ملفوفا بعناقيد من اللمبات الكهربية الملونة ، وضجيج من موسيقى وغناء يتصاعد من فناء

المبنى فى مكبرات صوت . قلت لعله فرح واحد من الضباط مثلا ، وأن الفرجة عليه لاشك مباحة وممتعة فلربما رأيت راقصة حية بدلا من تلك التى تتسمر على الجدار فى تصويرة باهتة . إقتنعت بضرورة الفرجة حينما لاح لى أن كثيرا من الولاد والشبان المماثلين لى فى السن يتسلقون سور المبنى كأبراج المراقبة ليتفرجوا . وهكذا مضيت نحو السور فى اتجاه حى الدراسة ، حيث كانت دكاكينه ومقاهيه ساهرة على بعد قريب ، ومحطة الأتوبيسات المتاخمة للمبنى تملأ الساحة بعشرات الأتوبيسات ومئات من الركاب والمنتظرين . فلما اقتربت منهم تنبهت إلى أننا لا نزال فى أول الليل ؛ ثم اخترت زاوية من السور بعيدة عن أضواء الشارع وقريبة من الطبلية العالية التى تدورفوقها نمر الحفل ؛ فما رأيت سوى رجال يخطبون ويوزعون الجوائز ومن حولهم جمع كبير ومهرجان . بقيت أنتظر استئناف الغناء حتى يئست ؛ وكنت أهم بالنزول والعودة إلى الكوخ حينما لفت نظرى وجود فتاة جميلة جدا ، من نفس فصيلة بنات الجن اللائى يزرننى ضحى كل يوم وفى أعينهن لهفة شديدة غامضة . كانت ترتدى ثوبا محزقا يظهر من خلاله صدرها وكتفاها بالذراعين وساقاها حتى ما فوق الركبة بكثير ، شعرها منطرح على ظهرها بمقدمة عالية فوق الجبين ، وتلوك فى فمها قطعة من اللادن لاتنى تفرقع ، يتصاعد منها عطر شهى ..

إستدرت فوق السور ، جعلت أتفرج على جسدها الناعم الطرى المتألق ، جعلتها شغلى الشاغل . كانت واقفة تحت السور مباشرة حيث لا محطة ، مما أكد لى أنها تنتظر شخصا ما . تستدير من حين لآخر نحو السور ناظرة إلىّ ؛ فأرى على وجهها شيئا من الغلب والشقاء متخفيا تحت البوية الحمراء والبيضاء التى دهنت بها وجهها ؛ إنها إذن من بنات الإنس مثلنا لأن بنات الجن لا يضعن على وجوههن شيئا من هذا إذ أنه موجود لوحده فيها . وجهها كان مألوفا لى كأننى أعرفها شخصيا وتعرفنى شخصيا . شفت أننى يمكن أن أكلمها بسهولة . ومثلما لم أعرف

لماذا كنت أهرب خجلا من نظرات بنات الجن ؛ لم أعرف لماذا صرت أبحلق فى هذه الفتاة بقوة وإلحاح . شئ فيها يقنعنى أنها ستكون رهن إشارتى ؛ حينئذ تراءى لى الكوخ بأرضيته الرملية وفوقها الحصيرة والمخدة والبطانية ..

رأيت ألا أضيع الوقت ؛ قلت لها :

– «مساء الخير يا مزمزيل !»

نظرت هى إلى أعلى باسمة فى بساطة قائلة :

– «مساء النور ! »

– «يلزمش أى خدمة ؟!»

هكذا قلت وأنا أهبط عن السور فى قفزة واحدة ، واقفا أمامها . قالت دون أن تتراجع أو تختلج :

– «كتر خيرك ! ألف شكر !»

– «وقفتك طالت ! ظننت انك بحاجة لشئ !»

إتسعت ابتسامتها ؛ أشرق وجهها ولم يبد عليها أى ضجر أو استرابة . قالت :

– «عدم المؤخذة ! أنتظر ولدعمى ! سنشترى بعض الطلبات !»

بان لى من صوتها وطريقة كلامها أنها من أصل صعيدى مثلى ؛ لكن عقلى المفتح قال لى : هى تدعى أنها صعيدية مثلك لكى تختشى على دمك وتتركها فى حالها . إنسحبت؛ وقفت من خلفها بعيدا ، أرقبها فى شغف وفى نيتى أن لا أدعها تفلت منى . وكانت أم كلثوم تردح فى راديو المقهى فى ساحة المحطة قائلة : خدنى لحنانك خدنى بعيد بعيد وحدينا ؛ فصرت أتمنى لو أنها هى التى أخذتنى بعيدا وحدنا . لم أكد أذهب مع أم كلثوم إلى نهاية السور حتى رأيت شابا متأنقا ، طويل القامة أشقر الوجه مستطيله بشعر ملون قصير مفروق من المنتصف وعين

ملونة كذلك ؛ يرتدى القميص مع السروال ، وسترة من الكتان البنى أنيقة جدا ، يتأبط كتابا مجلدا ضخما ، ويمضى فى حماسة شديدة مارا من أمامى . لما وقعت عينه على الفتاة أشرق وجهه وابتسم فى سعادة كبيرة ثم انعطف عليها فتحركت نحوه سلمت عليه قائلة :

– «كلمتك فى المكتب منذ دقائق من تليفون كشك السجائر هذا !»

قال وهو يعطيها ذراعه :

– «نزلت من حوالى ساعة ! لم يوخرنى سوى هذا الكتاب ! رأيته على سور الأزبكية وأنا وفى الأتوبيس ! فنزلت مسرعا وأحذت أقاصل مع البائع نصف ساعة ! إشتريته بآخر نقود معى ! إنه كتاب مهم كنت أحلم بقراءته منذ سنوات طويلة فالحمد لله أن جاءنى !»

لكزته فى احتجاج غاضب :

– «كلما قابلتك رأيتك تحمل كتابا ! ألا تزهق من الكتب ؟! تضيع نقودك وبصرك ! كان الأولى بك ان تدخر المبلغ لنصرفه !»

– «تتكلمين مثل أمى ! والله كان فى نيتى أن ندخل السينما لكن المبلغ لم يكن يكفى تذكرتين فقلت خسارة بخسارة يا ولد هات الكتاب أحسن ! ولو تركته كنت سأندم طول حياتى !»

– «أهو قصة حب ؟!»

– «إنه كتاب ألف ليلة وليلة الذى منعته الحكومة من التداول !»

– «إذن فأعره لى بعد أن تقرأه !»

– «أنت لا تجيدين القراءة !»

– «سأفهم على قدى !»

ومضيا معا . فمضيت خلفهما وقد تأكدت أنهما ليسا يمتان لبعضهما بصلة قربى ، هى ليست صعيدية ولا هو ، مصراويان صرف ،

مضيت خلفهما دون أن يشعرا بى . مضى بها إلى شارع صلاح سالم فى اتجاه القلعة . رأيته ينعطف بها نحو مقابر المجاورين ؛ ثم اختفيا . لحقت بهما لاهثا . كانا قد استترا بالظلام الخفيف المتراكم بين الأحواش . فداريت نفسى وصرت أختلس النظر . رأيتهما يهبطان فى حفرة عميقة فى الأرض ابتلعتهما حتى لم يعد يظهر منهما سوى ظل من شعر الرأسين ، قفزت مندفعا نحو الحفرة دون أن يصدر عنى صوت ؛ جعلت أتلفت حوالى قبل أن أهجم عليهما فلعل وراءهما حراسا مجهولين لحماية ظهريهما . أيقنت أنه ليس كل من أمسك بالكتاب مفتحا ومتودكا ؛ فمن غشومية صاحبنا واندفاعه لقضاء وطره بسرعة ، أنه لم ينتبه إلى أن الحفرة فى دروة حقا لكنها مكشوفة تماما لأى ماش على طريق صلاح سالم المرتفع جدا فوق سطح المقابر ، بل اتضح لى أننى لو كان هدفى الفرجة فحسب فإننى أقف على رصيف الطريق المحاذى لأتمكن من رؤية كل ما يدور فى الحفرة بل أرى عمق الحفرة من الداخل خاصة إذا كان القمر ساطعا كهذه الليلة ؛ لكن ما إلى هذا قصدت بالطبع ..

فى البداية ظلا واقفين لبرهة طويلة يضحكان فى غبطة ونزق وخوف؛ ثم مالبثا حتى اندمجا فى قبلات وأحضان ترنحت بهما فمالا على الأرض فى هبوط متقن ؛ فيما تتقدم خطواتى بأنفاس محبوسة . إذا به يعتدل قاعدا فيخلع سترته الكتانية فيفرشها على الأرض ، ويجعل من الكتاب على هيئة مخدة ، ثم يخلع سرواله الخارجى فيضعه فوق الكتاب ؛ ثم سرواله الداخلى ؛ ثم ضجع الفتاة ، ومد يديه فخلع سروالها الداخلى الذى بدا فى يدية كمنديل حريرى صغير ؛ ثم رفع ساقيها فانحسر الثوب عنهما فرسم القمر خيالهما على الأرض ضخما مثيراً للجنون . هنا قفزت داخل الحفرة كالفهد فصرت فوق رأسيهما وكان هو يتأهب للإنقضاض عليها . انتفض الولد تحت رجة الأرض ، إرتد جالسا على حقويه ، وأطلقت هى صرخة مكتومة فزعة وهى تعتدل ضامة ساقيها مدارية إياهما بيديها . ألهمنى الشيطان فاختطفت السراويل بسرعة

وجريت فرميت بها فى مكان خفى ثم عدت إليهما لأجدهما فى حال من الذهول والخذلان . صارت هى تنظر فى وجهى قائلة:

- «أنت ؟!»

إلتقط هو أنفاسه بصعوبة ؛ همس فى تشكك واستراية :

- «تعرفينه ؟!»

- «كان يعاكسنى وأنا واقفة فى انتظارك !»

تدلى مثل خرقة بالية ؛ قال :

- «إسمع يا جدع أنت ! هذه زوجتى ! والمشكلة أننا لا نجد مكانا ! فخل عندك بعض الذوق وهات الهدوم فنمضى لحالنا !»

قلت :

- «حلو ! أنا عندى المكان ! أنت والهانم ضيفان عندى هذه الليلة ! مكان آمن نظيف ! فيه شاى وسكر وحشيش !»

الولد كاد يوافق ؛ نظر إليها كأنه يطلب موافقتها ، فازورت عنه منكمشة ترتجف ، فقال :

- « هات الهدوم ! ونذهب معك !»

قلت :

- «سأعطيك السروال الخارجى فحسب ! ويبقى معى الباقى طوال الطريق حتى هذه السترة وهذا الكتاب وفى البيت ...»

إستدار بغضب واتجه خارجا للبحث عن الهدوم ؛ فمنعته بيدى ؛ نطر يدى بشدة فارتدت بعنف فصفعتنى فى عينى ؛ طار منهما الشرر ، فشيعت له بونية في وجهه أودعتها كل غيظي . ترنح ، صار يتباعد مناورا كالمصارع . إنقضضت عليه ، تملص ثم طوقنى بذراعيه ، وكان صلبا قويا على عكس ما توقعت ، لكن على من ؟ صرت أنفض نفسى فأرفعه كله وأنزل به ، حتى تمكنت من طرحه أرضا فبركت فوقه فصار يزحف

نحو عمق الحفرة فيما يشيع لى الضربات بقبضتيه وبرأسه فأشيع له مثلها ؛ فلما كدنا نختنق فى قاع الحفرة قمت من فوقه وجررته من شعره إلى مدخل الحفرة فاعتدل ببهلوانية مفاجئة وتمكنْ من تطويقى بإحكام وصار يضربنى بالركبة والرأس فى قوة ، وقد تغيرت ملامحنا وانغمرت هيئتنا بالتراب الناعم الرطيب ..

وفيما كنت أتلقى ضرباته رأيت خيال كاب مستدير مضلع يزحف على الأرض برقبة سوداء سرحة ، فخيل لى أنه شاهد مقبرة فزلزلنى الرعب من زحفه المستمر ، الذى مالبث حتى اكتمل فى هيكل جسد أسود كالوطواط مجسد فى ضوء القمر ، متقمطا بالسترة المحزقة تحت حزام عريض ، وعصا التأديب تتدلى من الحزام . لبرهة وجيزة غامت عينى ؛ فلما فتحتهما وجدت الشرطى يقف أمامى بلحمه ودمه . صار ينقل البصر بيننا وبين هذه التى لا تزال متكورة على نفسها تولول بأسى فاجع مرددة: استر يارب ! استر يارب ! ..

شعرت بقليل من الراحة ؛ لكن جوعا أبديا كافرا كانت تفح به عينا الشرطى ، الذى راح يردد فى زراية واستهجان لا يخلوان من هزل مبتهج «الله الله ! ما شاء الله ! ما شاء الله !» . ثم كتفها فى حنو ، ثم سألها بلهجة حاول أن يجعلها تبدو قانونية :

– «إسمك إيه ياشاطره ؟! إيه حكاية الولدين الصايعين دول معاكى؟!»

فباعدت وجهها عنه مدارية عينيها بيديها مندمجة فى البكاء ؛ فأخذها فى حضنه ؛ فإذا بها تستكن فيه ؛ فإذا هو يقبلها فى شعرها ، ثم فى جبينها ، ثم فى شفتيها ، ثم لا يدرى بنفسه إلا وقد انطرح فوقها كالديك الشركسى الحامى ، كالثور الهائج ؛ وصارت يده اليسرى تفك أزرار سرواله فى لهاث فيما يده اليمنى تحيط بجسدها ..

أكلنى الغيظ ، وصار الولد يفلفص منى ليجرى إليه لكننى صرت من

شدة الغيظ أضرب فيه وصار من شدة الغيظ يضرب فى ، صرنا نمزق فى لحم بعضنا بقسوة مريعة وصوت الفتاة يزلزلنا متأوها متألما محتجا ثم نشوانا يتنكر فى الإحتجاج . وكان الولد يشير من تحتى بذراعه قائلا للشرطى فى لهجة باكية :

– «حاسب الجاكتة يا ابن ديك الكلب !»

تمت

مدينة السلام – مساء الجمعة ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٨٩

سَارِقُ الفَرَحْ

الواد «عوض» ابن خالتى ما صدقنى ، لما قلت له أن ثمن الحذاء الذى اشتراه أخوه «مطر» أول أمس ، يصلح أن يكون مَهْرا يدفعه لعروسه معشوقة قلبه «وهيبة» إبنة «عم بيومى» منادى السيارات الساكن وراءنا فى نفس العشش .

عوض ابن خالتى يحب وهيبة منذ كنا أطفالا صغارا ، فعم بيومى طول عمره يسكن حجرة مجاورة لحجرتنا أيام كنا نسكن فى بيوت ، فى حى داخل البلد . ولما قالت لنا الحكومة ذات يوم أن هذه البيوت التى نسكنها آيلة للسقوط ، لم نصدقها . ولما أخرجونا بعدها بالقوة ظللنا نبيت فى العراء بجوارها شهورا طويلة . فلما انهارت ، أزالتها الحكومة ، لكنها وسعت بمكانها الميدان . فجئنا إلى هذه الهضبة العالية من تلال زينهم المواجهة لجبل المقطم ، وأقمنا فوقها هذه العشش، وسكناها . حمدنا الله أن الحكومة تركتنا فى حالنا ، ولكن بعض الشبان من ذلك الذى يسمى بالإتحاد الإشتراكى ، والذى لم نعد نسمع له اليوم حسا ولا خبرا ، قالوا لنا أن الحكومة اشتكتنا لجمال عبدالناصر فقال لهم : دعوهم وشأنهم . فالقادر منا بنى بالطوب ، والفقير بنى بالبوص والحصير .

عم بيومى رجل غلبان ، إنما جدع . وكلنا غلابة مثله وجدعان أيضا ، لكن الزمن إبن قحباء لا يفرق بين الجدع والغلباوى . وعم بيومى عرف كيف يقلب عيشه، من صبيحة ربنا يمضى نحو الشمس نازلا الدحديرة العالية فى سرعة ، ينكفىء على وجهه مرات ويعتدل . بعد دقائق يصير

فى قلب المدينة ، فى الوسعاية التى يفرض عليها خفارته ويسموبها الموقف ، حيث تركن عشرات السيارات ثم ترحل ، لتحل غيرها محلها : فلا يفعل عم بيومى أكثر من أن يصيح كلما رأى صاحب سيارة يشرع فى فتحها : أيوا .. ا .. ه . ثم يهرول نحوه فيمسح له زجاج السيارة . وينزل زجاج النافذة ويمضى قائلا : هات ورا .. إكسر العجل كله .. بسلامة الله . وصاحب السيارة يجده أحسن من غيره من «الشضلية» الصياع الذين يفرضون إتاوة على كل سيارة بدلا من سرقتها وتشويهها فيعطيه البريزة أو الربع الجنيه كله .

يعود عم بيومى آخر النهار متعشيا . الله يكرمه ، لديه زربة عيال لا شغلة لهم ولا مشغلة ، فكلهم بنات ما عدا ولدين اثنين صغيرين . وله الشكر على كل حال ، فقد رضى أن يزوج ابنته وهيبة أجمل بنت فى العشش كلها لعوض ابن خالتى أفقر خلق الله تماً .

عوض ابن خالتى هو الآخر لا شغلة له ولا مشغلة ، إنما هو طيب والله ، قلبه أبيض ، غير أنه شرانى ، مخه طاقق لا يصبر على التفاهم بالراحة . المصيبة أن طيبة قلبه لا تظهر إلا بعد أن تقع المصيبة . وكم قلنا له كلنا : ما ينفع الناس من طيبة قلبك إذا كانت لا تظهر إلا بعد أن تضرهم وتسبب لهم الأذية ؟! ولكن هكذا طبعه ، من يومه ، وكل أهل العشش يعرفونه ويعاملونه بالراحة وطول البال . وبعد انصرافه يستعيذون بالله ويقولون : لو كان هادىء الطبع قليلا لفتح الله عليه بشغلة تدر ذهبا مثلما لأخيه «مطر» ، وربما اكثر ، إذ أن الولد شكله جميل وله سوالف طويلة منسقة ، حتى أن كل من يراه ينخدع فيه ويظنه إبن ناس .

كل واحد من الناس له صنعة واحدة . أما عوض ابن خالتى ففى يديه ستين صنعة لكنه لا يفلح فى أى صنعه منها . فمرة أقابله مبقع الثياب بالبوية ، ما الحكاية يا عوض ؟ يقول : «باشتغل مع العسال فى الدوكو» . مرة أخرى أقابله مزيت الثياب بالشحومات ، يقول : «إشتغلت

مع حسن الميكانيكى» . ويوما أراه مع عربة أنابيب البوتاجاز فى حوارى البلد ؛ ويوما آخر سارحا بين السيارات بفوط صفراء وقطع كاوتشوك ومناديل كلينكس .

عمرى ما رأيت معه مائة جنيه كاملة . دائما يشتكى لى . ولو كان الود ودى لساعدته . العين بصيرة واليد قصيرة . كل ما أحتكم عليه هو ترابيزة البخت هذه ، أفردها وأطويها كما يحلو لى . أملأها كل يوم بالبخوت ، عين فيها عسلية ، عين فيها طوفاية ، عين فيها قرش ، عين فيها ملبسة وحبة فول سودانى .أسرح بين حوارى العشش وقرب البيوت الخارجة عن المدينة .

أنا يا صاحب ترابيزة البخت جمعت ذات يوم مائة جنيه كاملة ، ولكن عيالا ملقطين أولاد وسخة ضحكوا على وأخذوها منى فى لعبة قمار . نهايته ، اللهم اخزك ياشيطان . قال لى وقال العيال : إلعب ثانية فربما كسبتها لكننى أخزيت الشيطان . ومن يومها لم أذهب إلى الدحديرة الخلفية عند جنوع الأشجار الجرباء العجوزة . ومن يومها أيضا لم أفلح فى تجميد مائة جنيه كاملة فى جيبى . مستورة والحمد لله ، فحين تنفقىء كل عيون البخت فوق ترابيزتى أطويها وأعود إلى العشة، فألقى بالألواح الفارغة لأمى العجوز ، كى تتسلى بملئها من جديد ، وتلصق فوق اللوح فرخ ورق . أعطى لأمى الغلة محتجزا لنفسى الفرق مع المصروف . فأمى تظن أننى أبيع العين للطفل بقرشين ولذا فهى تحاسبنى بعدد العيون قروشا مضاعفة . وأنا قد فتح الله مخى فى الأيام الماضية ، فدخلت منطقة فيها ثلاث مدارس . تلكأت حولها ، فهجم الأطفال على ، فصرت أبيع لهم العين بخمسة قروش فلا يعترضون . ومن يومها يكرمنى الله فى ساعة زمن . ومع ذلك ، لم تتجمع المائة الجنيه مرة ثانية . العملية أصلها يادوبك .. أنزل المدينة نزلة واحدة ، أرى خيرات الله على الأرصفة ، وفى محلات يلذ لى أن أدخلها ولو للفرجة . وأرانى عائدا من المدينة أصعد الهضبة مهدود الحيل من ضياع قروشى فى الفرجة فقط من غير ما أحصل على شىء مما تمنيت لو أنوقه

يعز على أن يكون عوض ابن خالتى معذورا فى قرشين . ودمى يأكلنى لما يكون المبلغ أكثر من مائة جنيه بخمسين .فإذا أنا حدثت أمى ورضيت هى أن تسلف ابن أختها ، فسيكون ذلك من رسمال ترابيزة البخت . مع أن هذا شىء أصعب من أن نجد المبلغ كله ملقى على قارعة الطريق .. فمن أين يجىء عوض ابن خالتى بالمبلغ المطلوب ؟ ..

ربك والحق ، عوض ابن خالتى لابد له من تدبير المبلغ بأى شكل إن كان يحب وهيبه حقا ويريدها زوجة . فالولد «شطة» ابن «عدولة» الملاية كان قد هاجر إلى العراق فمكث هناك أعواما يعمل بائعا سريحا . جمع مبلغا كبيرا ، وجاء ينطح فى مستقبل عوض ابن خالتى : بعث يخطب وهيبة ، ويعشمها ببناء حجرة بمنافعها بالطوب الأحمر مكان عشتهم البوص . وهيبة لم تغرها الفساتين التى لوحت بها أمه لها ، ولا الملابس المستوردة التى تظهر كل ساعة على كتفيه ، ولا السجائر الأجنبية التى يشعلها على الدوام بولاعة مذهبة . ووهيبة تلوى شفتيها باشمئزاز وهى واقفة أمام الفرن الطينى الرابض جوار عشتهم بين شجرتى كافور كبيرتين ، ثم تهز كتفيها وتدخل العشة بين قوافل البط والدجاج والأوز ومعزتين وثلاثة خرفان وأربعة كلاب وقطتين .

فى هذه العشة المليئة بكل هذا ينام إثنا عشر فردا هم عم بيومى وأولاده ، مع العرس والفئران والقطط والثعابين المعروف أماكنها . كل يتجنب الآخر ولا يعتدى على الآخر . إنه الستر ودعاء الوالدين . والكل فى النهاية يبيت متعشيا بالصلاة على النبى .

عدوله الملاية التى كانت البارحة تمشى خافضة الرأس ذليلة ، تلقى صباح الخير ومساء على كل دابة فى الطريق ، وتلف تستلف جنيها أو اثنين ، تسأل عن قطعة خميره ، عن المنخل ، عن فرخة ضالة ، عن ذكر بط وفى يدها بطة تريد لها لقاحا . عدولة هذه إرتفعت قامتها فجأة ولفت نفسها فى ثوب متسق كأنها من الستات المحترمات ، وطرحة سوداء من

الحرير اللامع حول وجهها المليء بقشف الهموم كقشر السمك ، وبات من حقها أن تكثر من المرواح والمجيء أمام عشة عم بيومى ، يأكلها قلق الإنتظار . فقد أخبرها عم بيومى أنه موافق ولكنه سيرد عليها بعد أن يتكلم مع ابنته كلمتين صغيرتين فى السر . وهى تعلم أن وهيبة غير موافقة على الزواج من إبنها ، وواثقة أن عم بيومى يخشى غضبة عوض ابن خالتى غير أنه رجل ضرس ، بارم ، ولافف . وتعلم أيضا أنه غير موافق ولا يستطيع أن يوافق حتى لو دفعت عدولة مال قارون مهرا لابنته.

عم بيومى نفسه يعرف أن رأيه لن يكون مجرد رأى فى زواج ابنته من أى شخص كان ، بل إنها مسألة ينتظرها أهل العشش كلهم ويتشوقون لمعرفة نهايتها : كيف يتأتى لعوض الخائب أن يأخذ وهيبة النتاية ؟ وهل المسألة حب حقيقى أم لعب عيال وأونطة ؟ وعم بيومى متأكد من أن الولد يحب البنت ، والبنت تحب الولد ، وسوف يثبت لأهل العشش أن الحب لم يكن لعب عيال وإلا كان هو نفسه رجلا بقرنين عديم المفهومية.

الذى فات على عدولة أم شطة أن تفهمه ، هو أن عم بيومى أعطاها كلمة الموافقة المهزارة فى لحظة عرف الخبيث كيف يستغلها ؛ إذ أن ذهاب عدولة إلى عشة عم بيومى لتخطب ابنته وهيبه لإبنها شطة العائد لتوه من العراق ، لم يكن ليمر هكذا . الخبر انتشر بين العشش كالشرارة بين الحطب ، تناقلته أفرع الكافور العجوزة الجرباء فى الدحديرة الخلفية ، حيث يمتلىء قاع الدحديرة بكتل من الظلام لو دققت فيها لرأيتها رجلا متقرفصا يقضى حاجة أو قعدة قمار أو مجموعة شبان اصطادوا مومسا ضالة أو أفنديا غشيما وراحوا يجردونهما من كل شىء .

أقطع ذراعى إن ما كان عم بيومى هو الذى شجع عدولة على الفكرة وجرأها على التقدم علانية للخطوبة . كان يسمع الخبر وهو عائد يركض منرنحا لاهثا بعد ما بذله من جهد فى صعود الهضبة ، فيكمل

لهاثة باسما عن سنة يتيمة باقية تتدلى من سقف فمه الواسع كالخطاف ، كالخديعة اللطيفة ، ويكون قد دخل الشارع العمومى للعشش وحود أول تحويدة على اليمين متخطيا فناء القرداتى وعشة الشحاذ العجوز وحظيرة خنازير المعلم عطا الله الصعيدى المتوطن قبل الجميع ها هنا .. فما يكاد عم بيومى يجلس على التعريشة المصنوعة من الحجارة المعدة لمواسير المجارى حتى يمسح على ساقيه السوداوين المعروقتين ، ويقول بصوت عال وفى جدية متعمدا أن يسمعه الجميع :

– «وما له ! هو عيب ؟ راجل ملو هدومه !

الراجل عيبه جيبه ! واحنا فى ديك الساعة ؟ ما هى كدة تبقى قد بعضها ! الملاية تبقى حماة بنت المنادى ! » ..

وهكذا تجرأت عدولة وجاءت تجر خلفها ابنها ورجلين أحدهما قرداتى سابق ، ومهنته الحالية شراء الأشياء من بورسعيد وبيعها للناس فى العشش . أما الثانى فهو خفير فى شركة الملح والصودا . لبسوا جميعا أهم ما عندهم من ثياب ، ونثروا كثيرا من السجائر الأجنبية التى وزعها عليهم شطة ، وتكلف عم بيومى شايات وقهاوى وحاجات ساقعة وسجائر – أجنبية أيضا – لم يكن لها أى مبرر . وشكروا جميعا فى الولد : باسم الله ما شاء الله كسيب وفالح وابن يومه . ولم ترتفع من داخل العشة همسة واحدة تدل على الترحيب ، بل كان عم بيومى هو الذى يقوم بنفسه فيحضر الشايات ، ويعيد الكوبات والصوانى ، التى ما إن رآها القرداتى السابق حتى تأكد أنها من بين ما باعه لزوجة عم بيومى من مجلوبات بورسعيد ، فشعر بزهو لبرهة ثم قال :

– «سمعونا الفاتحة امال بقى !»

لكن عم بيومى شوشر عليه بصنعة لطافة ، قائلا أنه قبل الفاتحة هناك شىء يجب أن يقوله ، ثم لا يقول شيئا . وفى كل برهة يذكرك بأن هناك شيئا يجب أن يقوله ، ثم لا يقول شيئا ؛ وإن كان مع ذلك لا يكف

عن الكلام ، لكن كلامه ما يلبث حتى يذهب فى واد آخر ولكن بطريقة مشوقة توهمك أنه بعد كل هذا الكلام المنمق المتسق الطويل سوف يقول فى النهاية شيئا شديد الأهمية ، لكنه لا يقول شيئا . فإن قاطعته لتستفسر عن شىء فإنه يقاطعك صائحا بأن هناك شيئا يجب أن يقوله .. خل بالك معى .

إلا أنه أخيرا قال شيئا ، فى اللحظة المناسبة ، حين كان الخاطبون قد نهضوا للإنصراف . وكنت وجواسيس عوض ابن خالتى قد تابعنا كل شىء وسمعنا كل شىء . وإذ هو يودعهمَ حتى الفرن الرابض بين شجرتى الكافور قال بصوت عالٍ وهو يعلم أن أشباحنا ذائبة فى الجدران :

- « أهلا بيكى ياست عدولة ! معنديش أى مانع ! بس حارد عليكى بعد يوم ولا اتنين ! ما تقلقيش ! » ..

ثم ارتد نحو العشة فى ركض هادىء يشمله رضاء وزهو ، حيث أيقن أن قنبلته قد أصابت قلب الهدف ، وأن لغاه قد وصلت إلى من يفهم الكلام من الجارات الموجه لها الكلام .

وهكذا بات على عوض ابن خالتى أن يضرب الأرض لتطلع بمائة وخمسين جنيها من تحت طقاطيقها .

الولد ابن حلال ، متربى ، لا يسرق ولا يفكر فى الحرام . عمره ما سرق ، لكنه قال لى أنه مستعد هذه المرة لأن يسرق ، المشكلة ماذا سيسرقه ؟! .. وهذا كلام يدل على أنه طيب وغشيم ، فاللص يجد دائما ما يسرقه ، وعوض ابن خالتى لا يجد مائة وخمسين جنيها يحل بها مشكلته الأزلية . نعم هى الآن مشكلته الكبرى. ومن يدرى ؟ ربما لو تزوج من وهيبة إستكن قلبه فيستكن سره ويهدأ باله ويستقر فى شغلة واحدة تدر عليهما رزقا حلالا . قلنا هذا كلنا ، ولكن القول وحده كالعادة لا يفيد.

ساعتها كنا جالسين على مقربة من عششنا ، بين شلة من أشجار الكافور ، والأرض من حولنا متميزة بالتربة الخشنة السوداء الرطبة

المشبعة برائحة روث الخرفان . وكان عوض ابن خالتى لابسا بنطلونا من الجينز وفانلة نصف كم بدون ياقة، مرسوم على صدرها أنور السادات ، وعلى ظهرها حيوان أشبه بالفهد الأحمق يندفع فى الفراغ اندفاعة مجنونة ليس أمامها ولا من خلفها أو تحتها سوى الفراغ الماحق الساخر ؛ قد اشتراها من القرداتى السابق بالتقسيط المريح . وكان القمر يتساقط من بين أوراق الكافور ويسقط معها على الأرض ، وأضواء السيارات تبرق فى القاع البعيد متلاحقة خاطفة فى سيل متدفق على طريق صلاح سالم ، الذى يحزم الهضبة ويطوقها من ثلاث جهات ، رائحة جائية لا توقف أو نهاية . والفضاء يئز بزلزال خفى ، تتلقاه فروع الأشجار كهوائيات التليفزيون ، وتبثه فوقنا رعداً مخيفا يمزق القلوب . وكانت العشش كلها تبدو أمامنا فوق الهضبة كورم خبيث ملىء بالجحور والسراديب ، ينام فيها عشرات الفتيات المحتجزات بشبكة أو عقد قران أو قراءة فاتحة ، ينتظرن فك عقدة السروال فى الحلال المباح لكل دابة ؛ وعشرات الشباب مثلهن فى قلب الليل يحلمون براقصات الأفلام ومذيعات التليفزيون ، ويضاجعون إناث الدواب وراحات الأيدى . وعشرات غيرهم من الأزواج يتحينون فرصة للمضاجعة بعد خمود الذين يشاركونهم نفس الفراش والرغبات المحمومة تتلوى كالثعابين زاحفة بعضها فوق بعض فى نعومة وزفلطة ... فما الذى تريد أن تفعله الآن ياعوض يا ابن خالتى ؟! ستضيف إلى عشتكم كائنا آخر ! تقول أنك ستستقل وحدك بحجرة وهم جميعا مرحبون بذلك حتى تتيسر لك الأحوال بسفرة إلى أى بلد ، ولكن هاهى الأحوال تريد أن تبدأ معك بالعسر لا باليسر ..

ملت على عوض ابن خالتى وقلت له :

– «تعرف أن أخاك مطر اشترى حذاءً أول أمس ؟! »

قال :

– «نعم .. أوراه لى »

قلت :

– «مارأيك فيه ؟»

قال بضيق :

– «إحنا فى إيه ولا فى إيه ؟!»

قلت وأنا أعزم عليه بسيجارة سوبر :

– «تعرف كم ثمنه يا عوض ؟»

شوح قائلا :

– «يقول أنه حذاء يلبسه لا أدرى مَن ومَن ! باختصار هوحذاء غال ! ولكن مالنا به الآن ؟!» ..

قلت رغما عنى :

– «ألم يقل لك أن ثمنه مائة وخمسون جنيها ؟» ..

هب عوض ابن خالتى واقفا يلتمع الذهول والشر فى عينيه . ورأيت فى عينيه بصيصا ما ، يتصل بعينى القمر الساجيتين من خلل الكافور ؛ ثم حول ذهوله إلى تشويحة هزار ، وقال :

– «يا شيخ بلاش معر ! لقد ضحك عليك ! الحذاء لا يزيد عن ثلاثين جنيها لوضربه الدم ! حتى لو كان من الذهب الخالص ! أمى لو سمعتك الآن لماتت بالسكتة القلبية فى الحال ! إياك أن تقول هذا الكلام أمامها»..

ضحكت لأنى أعرف هذا ، وقلت له :

– «لكن ثمن الحذاء مائة وخمسون جنيها بالكامل ياعوض !»

جلس كالذى وقع من طوله :

– «وكيف عرفت ؟!»

فجعلت أقول له كيف عرفت ...

مطر ابن خالتى ولد مفتح من يومه ، وشاطر ، فهلوى وابن بلد وعلى

كيفك . كنا ننظر إليه على أنه الولد البايظ الفاقد ، إلا أبوه زوج خالتى ، كان يقول أن مطر هو الوحيد الذى سينفع نينا كلنا ، إذ هو ولد نزيه ابن دنيا ، والدنيا دنيّة والزمن خدّاع ، وابن الدنيا هو الوحيد الذى يستطيع قهر الزمن وخداعه ..

وقد بات واضحا أن مطر ابن خالتى سيركب ظهر الدنيا من خلال الدربكة . سفرويت خفيف الدم مطر ابن خالتى ؛ عشق النقر على الدربكة بسبب القرداتى السابق وزملائه القرداتية الذين كانوا يستوسطونه فى بيع أو شراء قرد صغير السن ، يعهدون إليه بتدريبه لهم ، فكان يقضى النهار يدق فوق الرق الصغير نغمات يتراقص عليها القرد . الرق والعصا هما الأداتان اللتان بهما يسير القرد على عجين الفلاحة فلا يلخبطه . من حسن حظ مصر ابن خالتى أنه لم يعشق مهنة القرداتى واكتفى بعشق النقر على الرق . وكان القرداتى يستعين به فى النقر على الرق فيما هو ممسك بالعصا بيمناه وبسلسلة القرد بيسراه . مطر ابن خالتى كلما رأى فرحا انحشر بين الفرقة وربض بجوار الطبلة حتى عرفوه . إشترى لنفسه طبلة ثمينة . طلع مع فرق العوالم . كان لهلوبة ، يهز بالنقر السريع المتقن أثداء الراقصات العواجيز وخصورهن المتخشبة ، يبعث فيها شبابا يجنن مساطيل وسكارى المتفرجين ..

الحكاية بدأت فى لعبة فى فرح ، والسبب عم بيومى . كنا فى الفرح فى هذه المدينة المتكومة على نفسها فى سفح الهضبة ؛ وهو لإبن أحد تجار الغلال . عند النقوط يظهر دائما عم بيومى ، وحين يظهر يفرح الجميع ، فهو أحسن واحد يقدم النقطة نيابة عن الآخرين ، إذ يعطيه المعلم عشرة جنيهات أو عشرين أو ثلاثين قائلا له أسماء الذين سينقط عليهم من الحاضرين وأصحاب الفرح . عم بيومى يأخذ حق صاحب النقوط جيدا ، كل ورقة بعشرة لها وقفات طويلة يردد فيها إسم المعلم عشرات المرات ، وأسماء المعنيين بالتماسى عشرات المرات ، ويطلب سلاما جمهوريا لكل إسم ، وموالا لكل معلم . كل فرق العوالم يستبشرون

به ، حتى النبطشى الذى يجمع النقوط للفرقة يفرح به ويردد خلفه كل كلمة يقولها كالبغبغان. والفرقة تجامل عم بيومى وتعطيه آخر السهرة ثمن الدخان . طلع عم بيومى ليلتها على خشبة المسرح رافعا يده برزمة من عشرات الجنيهات كورق الكوتشينة فى يد لاعب حريف . توقفت كل الأصوات فى انتظار أن ينطق . هتف بأسماء المعلمين واحدا وراء الآخر ، ثم توقف قائلا أنه سيهدى المعازيم هدية خاصة :

- «إليكم فاصلا منفصلا من العزف على الدربكة للطبلجى المعجزة مطر !»..

فلما ظهر مطر من خلفه صبي صغير سفروت هاج الناس بالصياح والتشجيع . وقف مسندا قدمه على الكرسى ليطول قامة الميكرفون . راح ينقر على الطبلة نقرا جميلا ، يهتز جسده كله وينتفض ، حتى لقد نهضت الراقصة واندمجت فى الرقص ما يزيد عن نصف ساعة ، والناس فى عجب ودهشة . فى نهاية الفرح أخذته معها، فإذا هى راقصة تؤدى نمرا فى كازينوهات شارع الهرم . وإذا بها تضمه إلى فرقتها، ليصبح بعد شهور قليلة طبالها الخاص الذى تعشقه . تحول مطر ابن خالتى من ولد سفروت صدىء الوجه والثياب إلى شاب أنيق ، أحلى وأشيك من الممثلين . صار كل يوم يطلع علينا بمطلوع جديد . كل يوم نرى على جسده قميصا جديدا غريب الشكل ، أو بنطلونا محزقا . ودائما هناك موضة جديدة فى اللبس نراها على جسده ويحكى لنا عنها ومنه وحده عرف شباب العشش أسماء الأقمشة والماركات الشهيرة فى القمصان والفانلات . يتفرج عليه أهل العشش كلما رأوه يستعد للنزول وقد نتف ذقنه وسرح شعره الأكرت الهائش ورفل فى رقيق الثياب والكعوب العالية - قعر كباية حتى أننا فى الأول كنا نخجل منه ومن منظره الذى لا هو شاب ولا فتاة ، لكننا رأينا البلدة كلها تلبس هكذا ، فصرنا نفرح بمنظره والوقوف بجواره أمام العشة لحظات ..

في عششنا ناس كثيرون متعلمون ، حصلوا على شهادات عالية ، يعملون في الحكومة ، تراهم يهرولون في الصباح ركضها في الدحديرة النازلة إلى المدينة ، يلهثون في اللحاق بالأتوبيس ويعودون آخر النهار مفسخين كل ذراع في ناحية . أما مطر ابن خالتي ، الطبلجي ، فإنه الوحيد الذي تجيء سيارة الراقصة لتأخذه ، وتعود به في مطلع الفجر .

على كثرة عشق مطر ابن خالتي للملبوسات المستوردة بالذات فإنه لم يعشق شيئا مثل عشقه للأحذية بنوع خاص . لديه منها ما يملأ صندوقا . وكلنا نلبس من ورائه أحذية بالمجان ليس فيها سوى خدش بسيط أو بعض فَشْكَله . ودائما يقول أنه مضطر لهذا بحكم العمل ، فالطبال عنوان الراقصة ، وهو الذي يجلس في الطرف في مكان بارز من الفرقة ، ولا يجلس إلا واضعا ساقا على ساق ليسند الطبلة في متناول يديه ، ولذا فإن الحذاء هو أبرز شيء فيه ، إذ هو ممدود على الدوام في وجوه المتفرجين عرضة لأن يتفرجوا عليه برغمهم .. فلابد إذن أن يكون الحذاء ثمينا غاليا متينا جميلا ؛ فالناس في بلادنا كما يقول تعرف الناس من أحذيتهم وتحترمهم تبعا للحذاء الذي في أقدامهم .

لكن آخر ما كنت أتصوره أن يشتري مطر ابن خالتي حذاء بمائة وخمسين جنيها . لو كان هو الذي قال لي الخبر ما صدقته . لكن الصدفة هي التي جعلتني أعرف .. فقد هبط على ذات ليلة بسيارة مرسيدس فاخرة لم تأنف من دخول العشش والركنة بجوار عششنا . صحاني من النوم ، فرأيت مجموعة كبيرة من الشبان والبنات اللائي لا فرق بينهن وبين الصبيان . ظننت أنها الحكومة . فلما رأيت المرسيدس عرفت أن ضيوفي أغنى من الحكومة بكثير . قلت لعلهم تجار المخدرات الذين يدفنون بضاعتهم في أماكن سرية هاهنا ، وخفت ، لولا أن مطر ابن خالتي صاح بي هاتفا من نافذة الكرسي المجاور للسائق . فذهبت إليه مرحبا . فقال لي أنهم يريدون التحشيش الآن بأي شكل . أهلا وسهلا إن كان الصنف معكم . قالوا إن كل شيء معهم وليس ينقصهم سوى المكان والعدة ..

فتحت لهم العشة ، وفرشت في وسطها حصيرا ، تربعوا عليه جميعا في حبور، وصنعوا ضجيجا كبيرا مزعجا أحضرت الجوزة والمنقد والحجارة والماشة والقوالح . شاركني بعضهم في توليع النار وتكريس المعسل الذي جاءوا به معهم في أكياس نايلون ..

وسط سحب الدخان الأزرق ضحكوا كثيرا وتكلموا كثيرا ، وفتح مطر ابن خالتي كيسا من البلاستيك ، نزع منه علبة سميكة أنيقة تعتبر تحفة للفرجة . فتحها فإذا هي مبطنة بالقطيفة كعلبة المصحف عدم المؤاخذة . أخرج منها كيسا من النايلون تبينت بداخله حذاء ذا منظر أسود خلاب ، يشد البصر من أول نظرة . أول شيء جاء في دماغي من منظر الحذاء هو أنني لو لبسته فسوف أستخسر المشي به على الأرض في عششنا . وعجبت كيف يهون مثل هذا على أقدام تخوض به في وحل ، إن مثل هذا الحذاء لابد أن يكون معمولا للفرجة فحسب . لم أقل هذا الكلام طبعا حتى لا يضحكوا على ويتهموا مطر ابن خالتي بأن أهله لا يفهمون في الأحذية . غير أن الضربة القاضية جاءتني حين أخرج مطر ابن خالتي فردتي الحذاء من كيسهما النايلون ، وأخذ يعرضهما على الجالسين ؛ الذين راحوا يتأملون الحذاء بشغف وإعجاب وحسد ، ويباركون للأرض التي ستمشي هي عليها . قالوا جميعا:

– «بكم يا مطر ؟ » ..

قال مطر :

– «يساوي كم ؟ » ..

قال أحدهم في تحفظ :

– «سبعون ؟! » ..

رد آخر مستنكرا بشدة :

– « سبعون ماذا يا رجل ؟! قل خمسة وثمانين مثلا !! » ..

قال ثالث كالعارف ببواطن الأمور :

– « هذا النوع بالذات لا يقل ثمنه عن مائة !! » ..

فصاحت إحداهن :

– « هذا الحذاء لم ينزل منه فى مصر سوى اثنين ! واحد لصاحب الكازينو ! وهذا !! » ..

فبدا على وجه مطر ابن خالتى أن هذا الكلام شبه صحيح واعتدل واحد رابع نحيف الجسد يبدو كحكيم معلول ، لكنه كان أكثرهم أناقة ، ويبدو مطر ابن خالتى أمامه خادما ، ويقولون له المايسترو ، قال هذا المايسترو وهو يشد نفسا من الجوزة التى أمسكتها له متقرفصا أمامه كالقرد حتى يأخذ راحته فى الشرب :

– « هذا النوع من الأحذية عالمى ومشهور جدا ! وثمن الجوز منه لا يقل عن مائة وخمسين جنيها ! إلا مليم لأ !! » ..

فانتشى مطر ابن خالتى فجأة ، وجعل يعيد الحذاء إلى الكيس الرقيق ، والكيس إلى الصندوق ، والصندوق إلى الكيس الكبير ، صائحا :

– « فعلا ! إنت جبت الفايدة ! هو بهذا السعر فعلا ! »

فأخذت أنقل البصر بينهم ، أبحث فى وجوههم عن الفشر والهزار فلم أجد إلا جدا فى جد ، بل إنهم انطلقوا جميعا يباركون للأرض ، ويوصون بالمحافظة على الحذاء من البهدلة فى أرض هذه المخروبة – أى مصر كما يسمونها – المليئة بالخراء والنيلة . وقال من يدعونه بالمايسترو إن لها لورنيشا خاصا وأنه يعد بأن يحضر له علبتين منه فى سفرته القادمة إلى الخارج . فشكره مطر ابن خالتى وقال وهو يربت على كيس الحذاء فى حنان عظيم أنه سوف لن يلبسه إلا فى السفرة التى تنوى الفرقة أن تسافرها قريبا مع الراقصة إلى الدول العربية . لحظتها أحسست لأول مرة فى حياتى أننى انسطلت ولم أعد قادرا على الخدمة ،

فتكورت منزويا فى ركن بعيد أتابعهم وهم يقولون عجبا .. فهذا القميص بسبعين جنيها ، وهذا البنطلون بمائة ، وهذه البلوزة بمائتين ! .. وكان شجر الكافور المحيط بالعشش يبث فوقنا رعدة الزلزال الخفى الذى يضطرم بعنف من تحتنا . وكنت أرتعش ، فرفعت رأسى عن ركبتى ونظرت تجاههم لبرهة فلم أجد أحدا منهم يرتعش أو يشعر بأى شىء .

قلت هذا كله لعوض ابن خالتى ، وأنا أسند ظهرى إلى شجرة الكافور . فرأيت عوض يشرد ويبدو عليه الهم الشديد لأول مرة فى حياته. الولد الشقى المهزار الذى يتعارك وهو يبتسم ظهرلى لحظتها تعيسا كاليتيم المنكسر لا سند له فى الدنيا .

عوض ابن خالتى ، ومطر ابن خالتى أيضا ، أحبهما معا ، لكننى فى تلك الليلة بدأت أشعر نحو مطر بمشاعر غريبة لست أفهمها ، ونحو عوض بمزيد من الصداقة والحب ، رغم أننى لا أنتفع منه مثلما أنتفع من مطر بحذاء قديم أو بنطلون أو ولاعة بوتاجاز أو تحشيشة . وكنت أتمنى لو كان الخير الذى يرتع فيه مطر ابن خالتى قد تحول نصفه إلى عوض ابن خالتى . فهو على الأقل ينفعنى فى الزنقة ، ومايكاد يسمعنى أتخانق مع أحد حتى يخف إلى بمطواة أو سنجة ، وإن لم يجد فالبونية والدماغ أقوى عنده من أى سلاح .

فجأة وقف عوض قائلا :

– « تستطيع أن تثبت لى صدق هذا الكلام ؟ » ..

وسكت برهة ثم قال :

– « أنت الوحيد الذى يقدر على ذلك ! أريد أن أتأكد من صحة هذا المبلغ ! أتأكد فحسب ! فإن كان صحيحا فإنه يصير أعجوبة نفتخر بها أمام العيال فى العشش !» ..

قلت :

- « وكيف أثبت لك ذلك يا عوض ؟ إنما قلت لك ما سمعته أثناء التحشيش فى عششنا » ..

قال عوض وهو يضغط على كتفى :

- « أعرف أين يخبىء الحذاء ! الليلة سأخفيه بعيدا ! وفى الصباح ننزل أنا وأنت لنفصله فى محلات شارع الشواربى التى يقولون أنها متخصصة فى المستورد! » ..

ظننته يمزح ، فوافقته . لكنه قبل طلعة الشمس طرق باب العشة وأطلق صفيره المعروف بيننا . خرجت إليه ، فإذا هو ممسك بالحذاء ملفوفا فى جرنان . قال : بنا . صحت دون أن أدرى ، بنا . فى نفس الوقت صحت فى أمى أن تجهز لى ألواح البخت حتى أعود . ومضيت معه دون تفكير وقد سحرتنى المغامرة ، شبطنا فى ثلاثة أتوبيسات واحدا بعد الآخر .صرنا فى قلب المدينة فى شارع الشواربى .

دخلنا محلات الأحذية الكبيرة . زعمنا أننا قادمون من العراق حيث نعمل هناك باعة ملابس ، وأن أحد أقاربنا يريد ابتياع هذا الحذاء منا ، فكم يكون سعره الحالى فى مصر حتى لا نظلمه ولا يظلمنا ؟ ..

كل المحلات نظيفة وفيها أفندية وفتيات نظيفات ، تفوح منهم جميعا روائح الفل والياسمين لكنهم جميعا تنط اللصوصية من أعينهم ووجوههم الناعمة . بعضهم ردنا بغلظة ورفض التكلم . بعضهم نظر فينا بطيبة وفى الحذاء بحسد ، ثم لوى شفتيه فى أسف دون أن ينطق . بعضهم قلب الحذاء فى استهانة وفصله بتسعين جنيها . بعضهم قال أن الحذاء تقليد للصنف الأصلى . آخرون قالوا أن الصنف الأصلى نفسه مضروب فى السوق . وهناك من لوح لنا بالبوليس دون سبب، لكنهم جميعا قد ظهر فى عيونهم أن الحذاء ثمين ، وأنهم جميعا يودون لو حصلوا عليه بشكل أو بآخر ولو باتهامنا بسرقته منهم . فملت على عوض ابن خالتى وهمست له أن الحذاء بالفعل ليس لعبة ، وأنه يساوى المبلغ .

مشينا فى الشواربى وقصر النيل صامتين ، بين أمواج من البشر ، كلهم يلبسون فاخر الثياب ، حتى تأكد لنا أننا وحدنا الفقراء ، وكان الغضب واليأس يبصمان وجه عوض ابن خالتى بتقطيبة مكليظة تشبه تقطيبة العيال المجرمين من أولاد الناس الذين نراهم فى الأفلام ومسلسلات التليفزيون . وإذا هو يشدنى ليوقفنى ، ثم يشدنى ثانية وهويستدير عائدا نحو شارع الشواربى . إنصعت له مستفهما ، قال :

– « أظن أننا نستطيع أن نبيع هذا الحذاء ! مادام هنا من يفهم قيمته ! فلماذا لا نبيعه له ؟!» ..

ثم أحس منى تردداً ، فصاح بى فى بساطة :

– « صدقنى أننى جننت الآن ! وسوف أبيع هذا الحذاء لأتأكد بنفسى أن الحذاء يمكن أن يساوى مبلغا كهذا ! وأن هناك من يدفع !! » ..

قلت :

– « وبعد أن تتأكد ؟ ! » ..

قال :

– « ليس يهم بعد ذلك شىء ! المهم أن أرى بعينى وأقبض بيدى هاتين لكى أصدق !» ..

قلت :

– « أما يكفيك ما سمعنا ورأينا ؟» ..

قال :

– « سأظل أظن أنهم جميعا يضحكون علينا ! من أدرانى أنهم جادون فى كلامهم ؟ إننا لم نطلب من أحد أن يشتريه ! لم نر من يضع يده فى جيبه ويخرج النقود ويعدها ورقة ورقة فى مقابل حذاء سيمشى به فى الأوحال !! » ..

صحت فيه مشوحا :

- «ومن أدراك أن من سيشتريه سيمشى به فى الأوحال ؟! » ..

صاح مشوحا هو الآخر :

- « ومن أين تجىء النظافة إذا كانت الأرض طافحة بها ! ومن أين جاءت هذه الوساخة قل لى ؟! إن عششنا أنظف من هنا ! » ..

ثم شدنى ومضى فى تصميم . قلت :

- « تبيع حذاء أخيك مطر ؟ » ..

قال بخفة دم أدهشتنى :

- «جزمة تفوت ولا حد يموت !»

قلت :

- «سيعرف حتما وستكون الفضيحة فى العشش ! وأمام وهيبة!! » ..

قال وفى عينيه بريق جنون لا يعبأ بشىء :

- « لا شأن لك ! أنا السارق أم أنت ؟!» ..

قلت لكى أرضى ضميرى :

- «قد تخسر أخاك ياعوض ! » ..

قال :

- « على الجزمة !! » ..

عجزت عن الرد ، فهززت كتفى ومضيت بجواره صامتا قال بعد برهة :

- « تستطيع أن تبيعه لى ؟ » ..

ثم صمت واقفا فى انتظار الرد ، ثم عاجلنى :

– « لك خمسة جنيهات عرقك إذا بعته لى ! » صراحة فرحت ، مع ذلك صحت فيه :

– « عيب يا غوض ! نحن إخوة ! » ..

ثم سحبت الحذاء من يده . قال :

– « فى أى محل سنبيعه ؟ » ..

قلت :

– « محل إيه يا مجنون !! إحنا بتوع محلات ؟ ! »

ثم صرنا فى قلب الشواربى ..

وجدت صندوقا من صناديق الكهرباء المعدنية مثبتا فى الأرض يشبه الدولاب بدرفتين . فرشت على سطحه الجرنان ، أخرجت العلبة الكرتونية من الكيس الكبير، فتحتها ، أخرجت الحذاء وأوقفته فى فتحة العلبة الكرتونية بشكل يلفت الأنظار ووقفت أنتظر . وعلى مقربة منى وقف عوض .

بعد دقائق بدأ بعض المارة يتوقفون أمام الحذاء يتفرجون ثم ينصرفون بعد إبداء الإعجاب . ثم أخذ كل من يمر يتوقف وينظر ، وبعضهم أخذ يقلب فيه ويبدى علامات الدهشة والغباوة تمهيدا للفصال من تحت درجات السلم . يتملعنون على بائع البخوت ولاعب الثلاث ورقات فى عشش تلال زينهم ، أعرف أن ابن السوق الشاطر الناجح هو من إذا سئل عن سعر الشىء رمى بالرقم فى سرعة وبساطة مهما كان عاليا .. فكنت أقول لمن يسألنى عن السعر كلمة واحدة سريعة كورقة البوستة: مائتين أنطقها بكل ثبات وثقة دون أن أعنى بالنظر فى وجه السائل . العجيب أن أحدا لم يندهش ، فقويت ثقتى . كل ما هنالك أن من يستمع إلى السعر كان يعيد الفحص فى جدية وتدقيق ثم يعيد وضع الحذاء فى حرص شديد كأنه يضع تحفة البللور ، ثم يبالغ فى شكرنا وهوينصرف .

شيئا فشيئا بدأ يظهر لنا من يفاصل فى السعر . والفصال يشجع ناسا آخرين على التوقف للفرجة ثم الدخول فى الفصال . إلى أن توقف أمامنا شاب رفيع القوام أبيض الوجه رقيق الملامح أزرق العينين ، يتكلم بصوت خافت ممرور . قلب فى الحذاء قليلا ثم قال :

– « ليس معكما غيره ؟ » ..

قلنا :

– «لا ! »

قال مبتسما فى سماحة :

– « طبعا ! إنه وحده رأسمال ! » ..

ثم أوصل السعر إلى مائة وستين ، ووقفنا به – آخر كلام – عند مائة وثمانين. فحلف ألا يزيد . وحلفنا ما جاءت بثمنها . فتركنا ومضى ، ثم عاد بعد برهة ، وأخرج من فوق مؤخرته الممسوحة داخل البنطلون محفظة جلدية ثمينة ، فارتعش قلبى لمرآها . أخرج منها سبع عشرة ورقة من الأحمر العريض ، مدها نحوى قائلا :

– « هى آخر ما عندى ! »

إندفع الجنون من عينى عوض ابن خالتى ، وقرصنى فى وجهى قائلا :

– «حذار أن تعود النقود إلى محفظته ! » ..

فتناولت النقود وحشرتها في جيبى وقد اقشعر بدنى وكدت أطير من الفرح لإمساكى بمبلغ كهذا لأول مرة فى حياتى رغم أنها ليست لى . وضعت الحذاء فى علبته ثم فى الكيس ثم لففتها فى الجرنان لفة حاولت أن تكون لفة بائع حريف .

لا أستطيع وصف الفرحة التى شملتنا حين أخذنا نهرول عائدين ، نكاد نخفى أنفسنا عن الأنظار مخترقين ميدان العتبة بحثا عن

الأتوبيس؛ لكننا خفنا من أى احتكاك فأكملنا المشوار سيرا على أقدامنا . عند الدحديرة الخلفية للعشش جلسنا نعد النقود من جديد ونتأملها فرحين . هو يسلمها لى بالعد مرة ، وأنا أسلمها له بالعد أخرى ، فى استمتاع : عشرة .. عشرين .. ثلاثين .. مائة . ورغم ذلك ظل وجه عوض ابن خالتى جامدا غير مصدق لما حدث .

بنى آدم منا طماع . وصدق من قال أن النقود تعمى العيون عن الواجب . ظهر على وجه عوض ابن خالتى أنه يفكر فى لحس اتفاقه ، إذ راح يحسب المبلغ على النفقات المطلوبة منه دون أن يقتطع منه عمولتى التى وعد بها إذا نجحت فى بيع الحذاء . صراحة إغتظت منه . وبصنعة لطافة أمسكت برزمة النقود ورحت أعيد تسليمها له ورقة ورقة . فلما وصلت إلى المائة والخمسين طويت الورقتين الباقيتين ودسستهما فى جيبى قائلا :

– « هذا حقى يا عوض ! كان المفروض أن تعطينى خمسة جنيهات من المائة والخمسين ! لكننى تنازلت عنها لك ! معك الآن ثمن حذاء أخيك كاملا بالمليم ! الباقى هو عرقى يا عوض ! الله الله على الجد » ..

إسود وجهه لبرهة سريعة ، ثم ابتسم رغما عنه ، وقال :

– « وماله ياخويه ! المصلحة واحد وأنت تشكر ! » ..

وكان النهار قد انتهى ، حين تركت عوض ابن خالتى عند عشتهم ومضيت إلى عشتنا ، لأجد ألواح البخت مركونة فى الدهليز ، والترابيزة مطوية بجوارها فى انتظارى ، وأمى لم تكف بعد عن استنزال اللعنات على. خيل لى أننى فوجئت بترابيزة البخت ، وكأننى كنت تحررت منها . نظرت إليها مبتسما أجاملها كما أجامل شخصا كنت أعرفه ، وقلت لها فى سرى : والله لن أشيلك على كتفى مرة ثانية . وقد نورت الفكرة فى دماغى : لسوف أعمل فى الغد بائعا فى شارع الشواربى ، ولسوف أشد عوض ابن خالتى معى إلى هذه اليغمة الكبيرة . فشوارع مصر تزدحم بالخير والمجانين المستعدين لشراء أى شىء بأى ثمن .

بعد ما تمشيت صعب على منظر عوض ، فخفت أن يزعل منى ، فلحقت به . رافقته إلى عشة عم بيومى . إستقبلنا بالصياح المرحب ، إقتادنا إلى الخن الذى يهجع فيه وحده وقد حرص هذه المرة على أن يغلق الباب بيننا وبين أهله ، كأننا من الضيوف الأغراب ، كأننا مجرد خطاب لابنته . إبتسمنا لبعضنا من فوق كتفيه ، وأفهمناه أننا استطعنا بالعافية تدبير هذا المبلغ . فظهرت الشهامة والبشاشة على عم بيومى ، وفتح باب الخن عن آخره ، وصاح طالبا الشاى ، ثم تركه مفتوحا بقية الليل .

فى الصباح توجهنا إلى صائغ فى حى الجمالية . إنتقينا غويشة ودبلتين قطعوا حوالى مائتين وخمسين جنيها . دفع عوض بالمبلغ على بنك الصائغ قائلا :

– « إكتب كمبيالات بالباقى ! »

لوى الصائغ بوزه ووقف متردداً . أخرج عم بيومى منديلا معقودا ، فكه عن ثمانين جنيها رماها فوق مبلغنا قائلا :

– « لا كمبيالات ولا دياولو ! شوف الباقى كم وتصرف فيه ! »

قال الصائغ :

– «ناقص عشرين جنيه ! »

قال عوض فى مسكنة مزقت قلبى :

– « والله ما معى !»

أكلنى دمى ، اخرجت عشرة جنيهات من العشرين التى كسبتها ، قدمتها للصائغ قائلا :

– « سايق عليك النبى !»

وقال عم بيومى بلهجة مؤثرة :

– « إلهى ربنا يكفيك شر المرض ! إنه رجل على باب الله ! لو ساعدته فى فرحه تكسب !» ..

قال الصائغ وهو يغيب النقود فى درجه :

- « مبروك ! »

قابلتنا الزغاريد التى بدأ ترن منذ نزولنا للصائغ . فما كاد الليل يدخل حتى كان أولاد عم بيومى قد نصبوا الكهارب على طول الشارع ، ونصبوا خشبة عالية ، ملأها شبان من أصدقائنا تصرف أحدهم فى طبلة ، والآخر فى رق ، والثالث فى ناى . وجاء مدرس موسيقى يسكن جوارنا بعوده .

إرتفعت الأنغام وصهللت . إحتشد الشارع كله بالساهرين من أهل العشش . وحزمنا الليل بالمزيكة العالية حتى رقص الكافور .

ولقد أفقت فوجدت أننى متحزم ، وممسك بعصا ، وعوض ابن خالتى كذلك ، وقد اندمجنا فى رقص مجنون . وحين نظرت فى وجوه المصفقين لنا ، لمحت مطر ابن خالتى يقف إلى بعيد ، وعلى وجهه غم وكدر شديدين ، عاقدا ذراعيه على صدره المتحفز للقتال ؛ وبجواره يقف أمين شرطة ، واثنان من المخبرين . وكان عم بيومى قد اندمج معهم فى كلام ودى ، وكنت موقنا أن عم بيومى خبير فى التعامل مع الشرطة بارع فى استرضائها . حولت بصرى عنهم وقد دب فى عروقى حماس فصرت أقفز فى الهواء كالبهلوان ، وأنط الخشبة رائحا جائيا ، وكل عضلة فى جسدى تهتز فى نشوة مع التصفيق والأنغام . وكانت الدنيا تدور بى ، فلا أعبأ بها . وكنت أزداد اندماجا فى الرقص ، ولا شىء فى رأسى أوعينى سوى رقبة مطر ابن خالتى ورقاب أمين الشرطة والمخبرين ومآذن القلعة وقبابها والأهرامات وبرج القاهرة وبرج التليفزيون ، كل ذلك يتلوى تحت قدمى فى دوامة عنيفة تبلعنى وتلفظنى لتبلعنى .. ثم تلفظنى ، لكننى كنت أشعر كأننى الفراشة التى ارتفعت بعيدا بعيدا ، عن أكوام القمامة .

أمسيات الفحم الردىء

كنت المنوط بعملية اشعال النار فى الوجاق الكبير فى مقهى المعلم عتريس الكائن بناصية على شارع الحى العتيق . ولهذا فقد عرفت الفحم عجنته وخبزته ، عرفته كما أعرف الناس وأغتاظ منه اغتياظى منهم واحبه حبهم ، وهناك فحم اعاتبه وفحم اعتذر عنه وفحم أسب ديك الذين خلفوه ، وفحم اصفق له بل ويصفق جمهور المقهى مصهللين قائلين : «نارك والعة يامعلم» .. وهم بالطبع يقصدون بالمعلم أنا رغم اننى منوط - كما يقولون - بأتفه عمل فى المقهى نظرا لصغر شأنى من صغر سنى..

وفى البداية كان المعلم عتريس يجلس خلف نصبة الماركات بوجهه المستطيل الأبيض المحمر وشاربه الصغير الناطق وجلبابه البلدى ذى القطان والكم الضيق ، ويرسل لى اللعن فى كل موضع من جسد أمى المسكينة النائمة فى مخيمنا داخل مسجد أصلان الكائن فى نفس الحى تنتظرنى بما أعود به فى نهاية المساء من قروش ، لكى تعتبر نفسها قد استيقظت من النوم حقا ، حيث تنهض فترفع شريط اللمبة وتغسل الطبق الذى سنشترى فيه الفول ، وتغسل عدة الشاى ، وحيث يكون أبى قد عاد من الخلاء منجذبا برائحة الفول أو رائحة الشاى ، ليحكى لنا آخر أنباء الخطاب الذى يقال انه سوف يتسلمه من المحافظة لنحصل بموجبه على شقة فى المساكن الشعبية التى تبنيها ، ويخفت صوته حيئذ لكى لا يسمعه جيراننا فى المخيم الملاصق - اذ بيننا وبينهم جدار عبارة عن ستارة من

الخيش - فيحسدوننا ويقولون للمحافظة : اشمعنى فلان . وأنا احب هذه القعدة فيي المساء واحب أبى وهو يسر بهذا الحديث بنفس اللهجة التى يتحدث بها واعظ المسجد حين يلقي درس العصر أو العشاء على المصلين أو اللاجئين عن الجنة التى وعد بها المتقون ، وأمى تنصت اليه مصدقة كل حرف ينطق به - رغم اننى اسمع عن هذا الخطاب المزعوم منذ وعيت - اذ تقول أمى دائما اننى كنت قطعة لحم مثل ورك المعزة ملفوف فى بطانية على صدرها حين جئنا الى هذا المسجد لاجئين نفترش بلاطه ونقيم هذا المخيم بعد أن أزيل البيت الذى كنا نستأجر غرفة فيه ، ذلك البيت الذى أمر عليه كل يوم فى طريقى الى المقهى فأجده قد تحول الى عمارة فاخرة عليها آلاف اللافتات وتحتها عشرات البوتيكات التى تبيع ملابس العرى وأحمر الشفاه . وكان أبى قد وجد لقمة عيش بجوارها اذ عمل حمالا للبالات والصناديق فهدت حيله فى ظرف شهور قليلة وجاءه ما يسمونه بعرق النسا وان كنت اظن ان ظهره - ببساطة - قد انقطع تماما حتى أنه بات يمشى خمس خطوات فى يوم . لهذا أوصتنى أمى بأن انسى شتائم المعلم عتريس وأن اجعلها تدخل من اذن لتخرج من الأخرى الى الهواء ، فالشتائم لا تلتصق بالانسان ، واكل العيش مر ، ومعلهش يا ابنى استحمل ..

شىء واحد كان يجعلنى استحمل بالفعل ، ذلك هو الفحم الأصيل، القابل للاشتعال بأقل مجهود ممكن واحيانا بدون مجهود يذكر ، الأمر الذى كان يوقف سيل الشتائم إلا حين تفرغ المقهى من الزبائن للاسبب واضح . وفراغ المقهى من الزبائن ليس معناه كراسى خالية أو سكون مطبق ، بل قد تكون المقهى عاجة بالخلق وكل الكراسى مشغولة والضجيج فى ذروة قائمة ومع ذلك نعتبر المقهى خالية من الزبائن، بل تعتبر ساعة نحس فظيعة نحسب لها جميعا ألف حساب ، نداري بعضنا البعض السكات حتى لا نثير ثائرة المعلم ونعطيه فرصة لافراغ غضبته المدمرة فينا ، مع يقيننا من انه لابد وان يفرغها بأى شكل ولأى

سبب مفتعل مختلق ، آنئذ نحاول ارضاءه من طريق خفى ، فنشيع فى المقهى حركة غلاسة وغلظة مفاجئة فى معاملة الجالسين ، فمعظمهم طلب الواحد شاى أو كرسى المعسل وجلس هو ومن معه ساعات طويلة لا يكفون مع ذلك عن اثارة الضجيج وطلب الطلبات الفارغة المجانية : هات كباية ميه .. شوية نار .. امسح الترابيزة .. هات كرسى غير ده . وحاجات تطقق المخ .

مثل هؤلاء الزبائن نفشل فى عجم عودهم قبل أن نشرع فى خدمتهم على الوجه الأمثل ، اذ هم يخفون حقيقتهم جيدا تحت ثياب فاخرة وحقائب لافتة وانجعاصات متقنة فنمعن فى خدمتهم باخلاص فتكون النتيجة أننا نتحمل الألاطة والنفخة الكدابة والبكوية المزيفة نظير قرشين بقشيش ، ولربما تكالح الزبون فانتظر الباقى على ضآلته امعانا فى الكيد للجرسون لأى سبب، وحتى لو طلع الزبون ابن ناس ودفع بقشيشا شبعانا فان ذلك لن يرضى المعلم بل ربما عجل بثورته ، ذلك ان المعلم عتريس لا يطيق رؤية النقود الا وهى تزحف نحو درجه بلا انقطاع .. كل ترابيزة من هذه الترابيزات يجب أن تؤتى بثمنها الحقيقى والا أغلقها بالضبة والمفتاح ، ما لم يكن هناك لعب كوتشينه أو دمينو أو طاولة فليس لها لزوم ، فاللعب يستدر المشاريب بلا انقطاع ، وشارب النارجيلة - البورى - يجب ان يلاحقه الجرسون بالحجر الثانى والثالث والرابع والى ما لا نهاية طالما الزبون جالس والشيشه أمامه ، المعلم عتريس لا يطيق منظر زبون يقوم بعد ساعة أو اكثر ليحاسب على واحد شاى وواحد مصرى ، يافرحتى ، شغل مكانا وشيشة واستخدم أسياده لمدة ساعتين بلا شىء ، ويل للجرسون اذا طلع الزبائن «سكة» أى ليس من ورائهم خير ، وويل له اذا لم يمعن فى اكرام الزبون بتفريغ جيوبه من كل ما فيها عند الحساب ..

فى تلك الأيام الخالية كنا لا نحتاج الى فعل الحركات النص كم هذه كثيرا مع الزبائن ، لأن المقهى أيامها لم تكن ابدا محلا للانتظار ، كل

زبائنها جاءوا للعب شيء أو لشرب المعسل ، ليكن وراء ذلك انتظار خفي ما ولكن هذا ليس يعنينا في شيء طالما انك تجلس عندنا وقطعة الطباشير تتراقص فوق الحائط مسجلة عليك ما يصير في ذمتك على التوالي ، ان الانتظار عندنا معناه ان تصير عبئا على المقهى وحينئذ يكون نهارك ابيض ومع السلامة بقي . زبائن زمان كانت مرتباتهم قليلة، بضعة جنيهات ، والولد منا يعرق طول النهار بخمسة قروش بركة ورثه ، كانت الفلوس قليلة جدا في أيدي الخلق ومع ذلك قليل منها يصلح كل شيء وليس المعدة وحدها ، بعكس زبائن اليوم الذين جرت في ايديهم النقود انهارا دافقة ومع ذلك حولوا المقهى الى مكان للانتظار يزدحم بالضجيج والصخب دون عائد يذكر . العجيب أن هؤلاء وأولئك ارتبطوا في دماغي وقلبي وحياتي كلها بالفحم الذي أتعامل معه . واذا كانوا يقولون وهم على حق ان الغش قد ساد وعم الفساد واصبح كل شيء مغشوشا حتى الرجال فان الفحم قد اصبح هو الآخر مغشوشا بدون جدال وغير مؤهل للاشتعال مطلقا ..

عشرات الشيش المتناثرة أمام الزبائن تبقى طويلا في انتظار كرسي الدخان المؤجل بسبب انطفاء النار . أمروح على الفحم في الوجاق بالمروحة الريشية المتآكلة حتى ينخلع ذراعي اليمنى فأنقلها الى اليسرى فتنخلع قبل ان تنتظم في الرواح والمجيء فأعيدها الى اليمنى ثانية . تطقطق القطع وترسل بشظايا ملتهبة ما تلبث ان تنطفئ في الهواء. ثم ما يلبث اللون الأحمر الداكن ان ينتشر بين النتوءات السوداء موسعا مساحته شيئا فشيئا ببطء . تزداد سرعة يدي بالمروحة حتى يبدأ اللون الأحمر يخلع بعض رقائقه الدكناء كالغازية العاهرة تخلع أجزاء متوالية من بدلة الرقص ليبقى في النهاية جسدها المشتعل عريا ووضوحا وصفاقة . اخيرا يرتفع لسان اللهب فأمعن في الترويح بسرعة كأني أبغي تثبيته في أحشاء الفحم فاذا هو يستجيب ويتسع فيملأ الوجاق ويفيض حواليه . «قشطه عليه» يقولها عم «سنكر» النصبجي من وسط الرمال

الساخنة والأكواب . تثقب اذنى صيحة المعلم «كفاية بقى يا .. ويذكر عضو أمى – حتخلص النار كده» . اكف عن الترويح ، أشير للواد «زعبله» أن يأتى ليرص ما يشاء من حجارة المعسل . أرسل نظرة متوجسة الى داخل الوجاق ، أفاجأ بأن اللون الأحمر قد اختفى تماما وتحولت الجمرات التى كانت منذ برهة كحبات الأوطه الى كومة من الثلج الأبيض . لحظتئذ يدب الفرح فى نفسى بقدر ما يدب الفزع . فهذا التاج الأبيض ، هذه الغلالة المشغولة من فقاقيع دقيقة بيضاء ، هذه الملاءة التى كأنها من قطن مندوف ، تنبت دائما على جسد الوهج المشتعل بعد برهة من كف الهواء المباشر عنه، لتظل تتراكم ويزداد سمكها غورا فى جسد النار . وهى دليل قاطع على واحد من اثنين لا ثالث لهما ، إما أن الفحم أصيل تماما ، أو انه خسيس الى ادنى حد . وضع الواد «زعبله» عشرة حجارة أمامى وقال لى : رص . فأمسكت بالماشة الكبيرة ثم غرستها فى الكومة البيضاء وأخرجت منها قطعة كبيرة وضعتها على الرخامة وصرت أضرب بثقل فوقها بالماشة بغية تكسيرها الى قطع صغيرة أرصها فوق الحجارة، فاذا هى من الصلابة الى حد أن الضرب فوقها يكاد لا يصدر صوتا . قربتها من فمى ونفخت فيها فتطايرت بقايا النسيج الأبيض الهش كما تطايرت أوراق الشجر عن جسد ابينا أدم وأمنا حواء لتظهر الفحمة سوداء عاطلة من أى وهج بل من الاستعداد للاشتعال . رميتها فى الوجاق بغيظ وبصقت فوقها ثم اختطفت قطعة أخرى خفيفة ، ضربت فوقها فتكسرت فظهر سواد قلبها لامعا . حانت منى التفاتة خائفة نحو نصبة الماركات فرأيت المعلم عتريس ينظر نحوى معتقلا فى صدره عفاريت الأرض . لكن الخواتم الذهبية فى أصابعه حجبت عنى وجهه حين رفع يده ليحيى جماعة دخلت يتوقع من ورائها خيرا ولا يبغى مقابلتهم بالعكننة . كانوا فى هيئة بكوات وباشوات ولكننى أعرف انهم صياع كبار من الحوارى المتاخمة لحارتنا ، يتاجرون فى الحشيش والأفيون والبرشام والعملة وتهريب السيارات وكل شىء ، ويركبون المرسيدس أم مائة باكو ،

ولم يذهبوا الى مدارس ولم يذاكروا ، ولا يفكون الخط ، يقتلون القتيل ويمشون فى جنازته ، ومع ذلك يبدون كالمؤدبين أولاد الكرام ينتظرون مثول الخدم - أى نحن يعنى - وسواء طلبوها أو لم يطلبوها فانه سيحاسبهم عليها بالتأكيد ، اذ انه يجيد بيعها لهم وتقاضى ثمنها وان لم يحضرها أو يعرف ما هى على وجه التحديد .

بحثت بالماشة عن فصوص صغيرة مشتعلة الأطراف ، كومتها فوق بعضها ورصصت القطع الكبيرة حولها رصا يشبه البناء . ثم اخذت أمروح . وكنت أرتعش خوفا من شلوت المعلم عتريس الذى قد يدهم مؤخرتى فجأة . تطايرت المساحات البيضاء كلها من الوجاق وامتلأ وجهى وحلقى بموجات التراب . شعرت بالغيظ والتعب ، وتذكرت ان سفرة للسعودية أو العراق أو الكويت قد أعود بعدها لأفتتح مقهى كهذه لأجلس هكذا مثل المعلم عتريس استأجر ولدا أشتمه وولدا أضربه وولدا يناولنى الماء وولدا يسقينى الحشيش وولدا يسقينى الغرام وامرأة تكيد لى وامرأة اكيد بها من تكيد لى . وكانت كومة الفحم لا تزال منكفئة على سواد القلب وبصيص النار يبحث لنفسه عن منفذ ، عن صدر دافىء يحتضنه فلا يجد. ثم تذكرت ان امى لابد ان تطب ساكتة اذا انا لم أرجع لها فى نهاية الليل ، بل انها لا تصحو إلا اذا دخلت انا وأيقظتها ، وكثيرا ما أظن انها ربما كانت ميتة ومدفونة فى فراغ هذه البقعة المبلطة من أرض جامع أصلان ، وأن روحى أنا هى التى تحل فيها مدة اللحظات التى اكون موجودا فيها فحسب . المصيبة اننى فى الأيام الأخيرة بدأت اشعر بالتعب كلما دخلت عليها المخيم ، واحيانا اتمدد بجوارها برهة قبل ايقاظها فاذا بالنوم يجذبنى الى قرار سحيق لا أصحو منه الا على الدوشة المنبعثة من الميضأة والمراحيض عند مطلع النهار ، لأطس وجهى بحفنة ماء ثم أجرى الى المقهى .

مر المعلم عتريس بجوارى متجها الى رف الشيش لينتقى واحدة سالكة ذات ضرب موسيقى عال ، فعرفت انه سوف يصطبح مع هؤلاء

فى استقبال العصارى ، ولابد من أن نجهز له مصفاة ملآنه عن آخرها بحفنة من قطع النار كحب الرمان ، ليتسنى للمعلم أن يغترف منها بملعقة صغيرة ويدلق فوق الحجر . منذ سنوات مضت كان الزبائن ينظرون الىّ فى اشفاق اذا تباطأ اشتعال الفحم ، بل كان منهم من يتطوع بالنهوض ومساعدتى فى علاج النار بالمروحة أو بأى شىء مع انه يكون رجلا ذا مركز ووجاهة وعلم ، أما اليوم فان اى إبن قحباء يتخفى فى حلل ثمينه يتصور ان بكويته لن تكتمل إلا اذا شتمنى كثيرا . اتسعت المساحة الحمراء من جديد ، ولكن كلما خفتت حركة يدى بالمروحة يشرع اللون الأسود فى الزحف من جديد نحو المساحة الحمراء ليطفئها ويشقق سطحها بخدوش كأنما هى معركة يريد اللون الأسود ان ينتصر فيها على لون الوهج عدو الخسة اللدود . وقلت لنفسى بكل ضيق : ماذا أفعل فى فحم خسيس يستعير صفة الفحم الأصيل ليحارب بها الاشتعال عدوه اللدود ، اذ هو يوهمك عند لحظة معينة انه قد اشتعل بالفعل بل انه ينسج حوله نفس العباءة البيضاء القطيفية التى يحمى بها الفحم الأصيل شعلته من عوامل الريح ويحمى بها الخسيس خسته من عوامل الاشتعال .. ولقد تعلمت كشف الخسة من النذالة فى الفحم بمجرد النظر فى هذه العباءة ، وللتأكد فاننى لو ضربت الماشة فى عباءة الفحم الأصيل فانها تغوص حتى موضع الجمرة التى تكون أحيانا قد افنت جسدها اشتعالا حتى صارت الشعلة فى حجم رأس الدبوس ، ومع ذلك تظل مشتعلة حتى النهاية التامة ، أما عباءة الفحم الخسيس فان الماشة سرعان ما تصطدم بكتلة السواد الصلبة .

نزع الواد «زعبله» قطعة حمراء صحنها فى المصفاة ووالاها بالنفخ والتطويح بها فى الهواء مدة طويلة حتى صهللت فوضعها امام المعلم عتريس وتلقى نظرة امتنان وكأسا من الويسكى صبه له أحدهم من زجاجة كبيرة انتبهت الى وجودها تحت الكرسى وأحسست كأنهم يكيدوننى فأدرت وجهى ورحت أمروح بكل قوة . انتبهت ايضا الى أننى

أبكي بعمق ولا أحد ينتبه ، ذلك ان منظر الدموع على وجه من يقف امام نار مثل هذا الفحم الخسيس امر طبيعي لا علاقة له بالبكاء وان كانت دموعه أغزر . وكنت افكر في علاج لهذا الفحم فخيل الى أن هؤلاء القوم جميعا قد باتوا في حاجة لأن نخرجهم من هذه الأجولة البراقة الفاخرة وننشرهم على الأرض حتى تتكفل الشمس بتبخير كل ما في جوفهم من رطوبة فلربما اكتسبوا بعدها اصالة الفحم الأصيل ، ولربما استطاع الواحد منهم ان يحس بالآخر على البعد ، وان تنتقل شرارة الدفء بينهم بسرعة وبدون حاجة الى مروحة من أى نوع . غير ان ضحكاتهم المخمورة كانت قد بدأت تثقب أذنى وتزيدنى تأكيدا أننى وأمى العجوز وأبى مقطوع الحيل لن يكتب لنا مغادرة المخيم في جامع اصلان طالما اناواقف امام هذا الفحم الردىء أخدم مزاج هؤلاء الكلاب باردى القلوب. دهمتنى غمغمة حادة تخللها سب لكل شىء . نظرت فرأيت مصفاة النار في يد المعلم قد صارت تحوى حفنة من هشيم ليل كالح ثقيل الظل سخيف ، لم يفلح وهجها الذى كان منذ برهة في اشعال اكثر من حجر واحد مكتوم سرت عدوى الخسة الى ما فيه من تبغ معسل وحشيش فتفحم بدوره . صاح المعلم عتريس صيحة مخمورة مبسوطة : «ما تعمل لك همة يا ابن الـ ..» فوجدتنى اتوقف عن الترويح ناظرا اليه في تحد مرتعش ، فارت رعشته فجأة في يافوخس فشخطت فيه شخطة مسرسعة خائفة الى حد الشجاعة ، عاقلة الى حد الانذار بالجنون : «باقول لك ايه ..ما تشتمش» . فبهت الذى كان قد شتم ، وبهت القوم حوله . وكنت أتوقع أن يندفع نحوى ويشوطنى بالشلوت فلا يتركنى الا جثة هامدة ، ولذلك تهيأت ممسكا بالماشة الكبيرة في يدى مستعدا لغرزها في رقبته والطيران الى حيث لا رجعة . لكنهم جميعا ضحكوا فجأة ضحكا صاعقا انهـاه المعلم عتريس قائلا في تهديد واضـح : «طيب .. طيب يا ابن الوسخة» . وكان المزاح واضحا في صوته هذه المرة رغم نبرة التهديد ، فاستدرت مستأنفا الترويح بكل قوتى وسرعتى حتى طقطق الفحم

واتسعت الدائرة الحمراء صانعة فجوة كبيرة من فتات وهج مشتعل كان من المفروض أن يفرحنى ولكنه أثار حنقى وغيظى ، وصرت أحس باحتقار لا استطيع وصفه تجاهه ، اذ اننى موقن من انه يمعن فى خداعى كلما امعن فى اصطناع الوهج ، وأبدا لا تنطلى الحيلة على فقد بت لا أميز لون الوهج من لون الخسة في اللون الأحمر ، قد بت ابحث عن ذلك الأوار المرتفع يتفرع من لسانه القرمزى لون البرتقال ويزداد وهجا وقسوة فيبزغ الأخضر مجاورا للبرتقالى ..

قلت ليكن الفحم خسيسا ادنأ خسة فهو حر وهذه طبيعته ، لكن المصيبة اننى ادفع وحدى ثمن خسته . لا طبق الفول فى المساء الداكن مع أمى ، ولا كوب الشاى بالحليب الذى يمنحه لى المعلم فى الصباح يكافيين لمقاومة هذه الخسة ، اننى أصرف على هذا الفحم من جسدى وأكاد اطعمه لحمى حتى يشتعل فلا يشتعل ، لقد أصبحت أوقن اننى لو وضعت جسدى كله فى هذه الجورة التى تبدو ملتهبة فان جسدى لن يشتعل وان احترق . صرف بصرف من الجسد فليكن صرفا على شىء ارتجيه وان طال الزمن . أحسست ان ذراعى انفصلت عن كتفى وصارت جناحا كسيرا يتطوح فى الهواء رائحا غاديا غير عابىء بأن الوجاق كله قد صار لسانا هائلا من اللهب ورهط المخمورين يتابعونه ضاحكين فى نشوة واستبشار ، وكان الولد «زعبله» قد تكفل بأمر المصفاة جالسا بها أمامهم يواصل النفخ على الدوام من حجر الى حجر ومن نفس الى نفس . ثم اصطبغت وجوههم بألوان جديدة من الملامح السمحة المسترخية الضاحكة بغير حساب ، البلهاء بغير نظير ، المنكسرة مهما تنكرت فى لمع قوى وهاج ، بدوا لى لحظتها كأنهم جميعا يتغافلون بإرادتهم عن شىء مجهول لكنه فظيع وخطير ، وأن شعورهم بالذنب البائد لا يزال يكمن وراء هذه الملامح التى تندلق ضاحكة لأتفه الأسباب .. والا فما سر هذا العنف الشديد الذى سرعان ما ينقلبون اليه راغمين ، اذ فجأة يبدو كأنهم يتحاربون فى بشاعة ، ويصبح من العسير على الرائى ان يعرف من

يتحارب مع من ، فالكل يتكلم فى آن واحد ، يسب يلعن يمدح يقدح يهتف يصرخ فى آن واحد ، وانك لتحار فى التمييز بين الهزل والجد ، اذ هم فى ذروة كل ذلك يصيحون كأنما فى بهجة عظيمة طالبين المزيد من الكئوس والحجارة المضاة بجيد التعميرة ..

ولم أكن بعد قد استطعت ايقاف يدى عن الترويح ، «وعم سنكر» ينبهنى قائلا : «كفاية بقى يا شكوكو» ، فانتوى جذب ذراعى الى داخلى وايقافه عن الحركة ولكنه لا يركن لإرادتى ابدا ، وكنت احس كاننى أثأر من شيء أو أسعى الى هدف نبيل عظيم أو ربما كليهما معا فأولهما ربما أدى الى الثانى . فلما نظرت فى لسان اللهب ادركت السر فى اصرار ذراعى على المضى فى حركته .. ذلك أن لسان اللهب الذى كان دامغا ملعلعا مصهللا كان هو الآخر اسود القلب .. نعم كقطعة الفحم التى تبثه تماما . هذه القطعة الحمراء القانية بلون الاشتعال ان ضربتها وكسرتها بعد لأى تجد السواد يتصاعد لامعا من خلل الانشطار كحقيقة لا حقيقة سواها حتى النار نفسها بالقياس اليها تعتبر وهما خادعا ، اما سواد قلب الفحم الردىء فحقيقة لا مراء فيها . هذا السواد الكامن فى جسم الفحم الصلب هو نفسه - وياللعجب - يتصاعد فى قلب لسان اللهب المتوهج ، كشريط من الظل الأسود يشع من حواليه لهبا ، ظل كأنه شفرة الفحم الخسيس تخرج من جوفه ممتدة فى قلب اللهب لتحارب اللهب الحقيقى بلهب مثله لتقضى على الاشتعال الحقيقى باشتعال زائف ، انه لينطوى على قلب من الخسة والدناءة الى حد يمنعه من أن يفنى نفسه فى أى سبيل .. ولقد أدركت ان مهمة ذراعى المنفصلة كانت هى محاولة تنقية لسان اللهب من السواد الذى يشوبه ، وكومة النار لاتنى ترسل الغبار والهباب مما يغرينى بالاستمرار بوهم ان الغبار سيكف بعد برهة ويصفو لسان اللهب تماما . ثم أدركت ايضا كم كنت واهما ، لأن جهودى المضنية كلها لم تستطع اذابة الفحم ولم تفلح فى فصل الشريط الأسود الذى يسرى خلال اللهب الأحمر . حينئذ رميت المروحة على طول ذراعى بكل

غيظ وقرف فجاءت حـركة مسـرحية ضحك لها الجميع قائلين : «قشطة عليه» ، لكننى لم ابتـهج ، وقال احدهـم فى اعجاب : «لا والله تستاهل السلامة ياد» ، فلم اصدقه . وقال المعـلم عتريس نفسه : «بس ابن ميتين كلب مخه صلب زى اليتامى» ، وكان ينظر الىّ باسما يقصد ان يصالحنى، لكننى لم اصطلح بل عبست فى وجهه . دفع أحدهـم بورقة مالية فى جيبى بحركة مسرحية وغمزنى بضغطة عنيفة يهددنى بها ان حاولت ردها ، فلم أردها ولكننى لم ابتسم ولم أجد أى رغبة فى الابتسام . قلده شخص آخر بنفس الحركة فكادت الفرحة تغزو فؤادى لكننى نبذتها فى الحال وبقيت صامتا اقضم بين اسنانى غضبا مجهولا كظيما . وزغدنى المعلم عتريس قائلا فى جعيره الجهورى المعهود : «ما تضحك بقى بديك امك» ، لكننى لم اجد قدرة على الضحك . وكان احدهـم قد بدأ ينفخ فى المصفاة بقوة وعرق بعد انصراف «زعبله» لشئون اخرى ونظرت الى لسان اللهب فى الوجاق من بعيد فرأيته قد ارتخى ببطء لئيم حقير قذر ، وزحفت على الفجوة الملتهبة شطآن من السواد الداكن . وكان الألم فى ذراعى يوخزنى بعنف ، فوجدتنى انسل خارجا الى الشارع ثم انطلق كعصفور ودع القفص الى غير عودة ، وكنت سعيدا لأننى سأرى أمى لأول مرة فى النهار بعد سنوات طويلة لا أراها إلا فى آخر الليل . فإن هى إلا خطوات حتى صرت امام عتبة جامع اصلان فى اعماق حى النبوية. قفزت داخلا الى مخيمنا الصغير الكائن بين الميضأة والمراحيض . وجدت امى مستغرقة فى نوم عميق مطمئن فلم أشأ ايقاظها خوف أن تصدمها عودتى . فجلست جوارها اشعر بحزن عميق دفين وكان الجامع يشغى بالحركة والأصوات والروائح الكريهة . وشرع المؤذن يؤذن لصلاة العصر ، وكنت اود الخروج الى الخلاء، وهتف بى هاتف : «صل العصر معهم» ، فأسرعت بالانضمام الى صفوف المصلين وحينما وجدتنى فى الطريق من جديد بعد الهدوء الذى اشاعته فى الصلاة تحسست يـدى فى جيبى وريقات النقد فهتف بى هاتف : «عد الى المقهى وكن عاقلا كى لا

تحرم على الأقل من هذه الوريقات» ، ولكن هاتفا اقوى من كل ذلك قال لى : «خل بالك يا شكوكو فإنه الوهج الكاذب تنتشر عدواه فى كل مكان ». ثم دوى فى أعماقى صوت داهم يشبه صوت المعلم عتريس قائلا : «طب وحتروح فين بقى بديك أمك؟» ، ولم اجد ردا عليه ، لكننى تجاوزت المقهى ببطء متعمد فخرج المعلم بنفسه مناديا على ، ولكننى بكل استمتاع شوحت له بذراعى فى عدم اهتمام ، ومضيت .

عدل الطاسة

كنا جلوسا على المقهى في منتصف الدحديرة والمزاج فل . المقهى ملقف هواء وبشر من كل نوع تتخيله أو لا تخيله . فالدحديرة العجيبة يصب فيها أربع فتحات فى جهات ما بجوار الدحديرة أو حواليها . وفى الدحديرة سوق الحى ، بعربات خضرواته وحشوده من النساء اللاتى يشكلن مظاهرة غوغائية قائمة لا تنفض لحظة من نهار ، ثم أن الدحديرة تقود الى الشارع العمومى حيث محطة الأتوبيس . والمقهى حافلة بالترابيزات تطرح موائدها وكراسيها فى قلب الشارع منافسة ومزاحمة لعربات الخضر ، ووفود المارة سيل متكثف لا يكف عن التدافع فى جماعات متنافرة متناحرة متآلفة مع ذلك ، والسيارات المرسيدس والبيجو والفورد التى يقودها الواد بليه السمكرى والواد سيد خرابه الحرامى والمعلم حنطور تاجر المخدرات والأفندية العائدون مثلنا من الاعارات والعقود طويلة الأجل والمهربون وتجار العملة والتكسجية .. تشق لنفسها - بكل هدوء خرافي - طريقا بين جدران البشر والأرائك والاشباه - وولدان المقهى يتقافزون كالنسور الجارحة بأيديهم صوانى حافلة بأنوات ملآنة ونارجيلات وجوز ومصافى نار متوهجة وأطباق أو خشبات مليئة باحجار الجوزة المرصوصة بالدخان المعسل ، فلا تتعطل سيارة عن الزحف ولا تكف امرأة عن مناحرة بائع ولا يهبط ميزان عن قدره ولا تقع من الجرسون قطعة نار .

حتى نحن وقد انتقلنا من «السطل» الى عوالم أخرى خاصة بنا ،

اعتلينا شرفات وهمية ورحنا نتفرج على دفق الحياة والتناقضات كلها فى بوتقة واحدة كهذه ، غير مبالين بأننا جزء غير منفصل عن هذه التناقضات الخارقة ، حتى ليوسع الواحد منا طريقا للسيارة بأن يتزحزح بالكرسى أو يقف موسعا فيما هو ممسك ببوصة الجوزة يشفط النفس ، فالعجيب ان كل شيء عند الكييف قد يقبل التأجيل لبرهة وجيزة الا توليع الحجر ، ربما لشدة احساسه بأنه قد دفع فيه دم قلبه وبعضا من رفاهية ابنائه المساكين ، أو ربما قد دفع فيه قيمة برشوة تقاضاها أو هدية ثمينة قبلها عن طيب خاطر ..

ولدان المقهى ، يعرفون اننا اخوة اصدقائهم سكان الحارة المجاورة الذين هم زبائن اصلاء ووجوه لوامع فى ليالى المقهى ، ويتعشمون فى بقشيش سخى فى نهاية المساء ولذا فهم يخدموننا باخلاص حقيقى ، لا يتركوننا لحظة ، صوانى حجارة المعسل ترفع من أمامنا محترقة لتستبدل فى الحال بغيرها جديدة ، والجوزة تتغير كل عشرة حجارة على الأكثر ، ويضعون فيها بدلا من الماء قطع ثلج ، فنحن عيال عتاولة فى الشرب ، نجوم قدامى قبل أن تستغرقنا فكرة السفر الى حيث توجد الأموال «يشرب الواحد منا خمسين حجرا وحده ، صد رد ، حتى يكح جيدا ، ويطرد عن صدره اطنان البلغم المتراكم من الأمس والأماسى السابقة ، بعدها يسلك ويستطيع الشد كما ينبغى ، وتتفتح شهيته للشرب، فيطبق فى خمسين حجرا آخرين . أيامها كان قرش الحشيش الهبو لا يزيد ثمنه عن ثلاثة جنيهات ومرتب الواحد منا فى وظيفته الحكومية – اذ كل الوظائف كانت حكومية – يساوى ستة قروش فى الشهر على الأكثر ، وثمن حريقها اذا كان متخرجا فى الجامعة أو أحد المعاهد الفنية العليا . كان يزاملنا فى الشرب رجال من كبار الموظفين والأستاتذة وكنا نحن اصحاب الربع قرش والتمناية نحسدهم لأن مرتب الواحد منهم يساوى أوقية أو اثنتين ومع ذلك كانوا أحيانا كثيرة يطمعون فى أن نجاملهم بحجرين معتبرين مما معنا ، ولم نكن نبخل ، بل كنا ننال شرفا يستحق

أن نكون قده فنحن حشاشون اصحاب كيف ، والعامة فى بلادنا يرفعون النقط الست عن الحرفين المتشابهين فيصبح للفظ معنى بأنه حسيس ، وما دمنا كلنا محتاجين لعدل الطاسة فلنكن كلنا .. ذلك الحسيس . مع أننا فى الأصل ربما كنا أبخل من كلبة يزيد التى لم أتشرف بعد بمعرفتها شخصيا ..

الآن أصبح ثمن القرش خمسين جنيها ، قد نجده بعشرين مثلا أو بأقل ، إنما الحشيش الذى يستحق ان نشربه لا يقل ثمنه عن خمسين . هكذا يفهم اخوتنا الذين يحتفلون بنا طوال مدة اقامتنا فى الاجازة ، ولهذا فقد اشتروا أغلى صنف من ولد يقف على دحديرة مشابهة فى حى الدرب الأحمر ذى شهرة عريضة يعرفه القاصى والدانى . زميلنا الولد مخيمر يده مبروكة يرص القرش مائة حجر حلوين . وكلنا جدعان بالصلاة على النبى والغربة لم تستنفد قوانا بعد وان كانت قد أنقصت من بهجتنا كثيرا بل كثيرا جدا ، اذ أننا قد اصبحنا نملك كل شىء ونفعل كل ما كنا نحلم به ولكن احدا منا لا يستمتع ابدا . هكذا نصرح لأنفسنا كلما انسطلنا واحلو كلامنا واضاءت وجوهنا ، لكن الحديث لا يصير جدا ابدا، اذ ينظر الواحد منا الى المتحدث نظرة ذات معنى ويقول : «عندما تنتهى من بناء العمارة الثالثة أرح نفسك وارحل الى الريف ولو أنه لم يعد فى مصر ريف» ، فيرد الساخط البادىء بالسخط قائلا : «بطل نق .. وعندما تشبع انت من شراء الأراضى التى تهوى تكديسها ليوم معلوم .. الخ» . وهكذا ننعطف الى الضحك بصوت عال جدا ، ونختلق نكات صاخبة ، ونتشوق لفرح ملىء بالصخب ، ويكاد صياحنا يعلو على صخب الدحديرة ، ويصعب على من يرانا ان يحدد ما اذا كنا نتعارك أم نتضاحك . تغمرنا بهجة لا ندرى ان كانت حقيقية أم طارئة مؤقتة ولكنها ذات وجود طاغ ، تجعل الواحد منا يتسامح الى أقصى حد ، ربما الى حد البله ، تجعل الواد مخيمر يدخل على الولد الجرسون بحجر يولعه من نفسه ، تجعل الباشمهندس حوده يمسى على الشلل المجاورة بعشرات

الحجارة رغم ان تكاليف الحجر الواحد قد تصل الى خمسين قرشا لكن سيبك انت الجدع جدع ، تجعل حسن ابو على خادم الأمير يوزع كروته الخاصة على الذين تم التعارف عليهم فى المقهى ومصادقتهم فى الحال ، وقد كتب فى الكارت : «الشيخ حسن» على اعتبار أنه فى معية الامير وكل من فى معية الأمير يصبح شيخا ذا أبهة ، يقوم هو ليدفع الحساب ، يدفع خمسة جنيهات بقشيشا للواد الصبى ، واخرى لمن سقانا ، وثالثة لمن جرى فى المجىء بالثلج ، ثم يتصنع انه هم بالنهوض ، لكنه يتمهل قليلا ، ثم يطلب طاقم الختام الذى قد يبلغ خمسين حجرا متخمة بامضاءات الحشيش المبططة كالبريزة الفضية .. حيلة خبيثة يفعلها دائما ليجر غيره الى المحاسبة مثله ودفع البقشيش مثله ..

وكان الطاقم الأخير قد أوشك على الانتهاء ورؤوسنا هى الأخرى قد انهكت من الارسال والاستقبال فانعطفنا جميعا نحو قليل من الهدوء سرعان مآب الى صمت وغريب كأننا كنا وحدنا مصدر الصخب المروع فى الكون . ولم تكن ارضية الأصوات المترسبة فى قاع الشارع قد بدأت تتصاعد لتحل محل صخبنا حين انشق الصمت الكاذب فجأة عن صرخة تمزعت لها نياط قلب الشارع برمته ، صرخة احدثت لاول مرة ذلك الخلل الذى لم تستطع كثافة احداثه فى هذا التوازن العجيب ، لأول مرة اضطرب الميزان فى أيدى الباعة ، وضربت سيدات صدورهن من الخضة، والتوت الأعناق كلها فى اتجاه الصرخة وقد تحول الشارع والدحديرة الى وجه مكشر غاضب يتوجس ويبحث عن طفلة فرمتها سيارة أو ذبحتها سكين غادرة ، فما وجدوا سوى طفلة اتبعت صرختها بالبكاء المتـــواصل فى خوف مروع فيما أخذت تدبدب فى الأرض بقدميها ، وتطلق زئيرا حادا يثير الفجيعة فى القلوب ، وتتلفت حولها فى ذعر كأنما تستنجد بقوة عظمى لتنقذها من خطر داهم . اقترب منها البعض ثم عادوا ضاحكين يهزأون ويشوحون بأيديهم فى فروغ بال والبعض منهم صار يلعنها ويسب ديك الذين خلفوها لأنهم لو ربوها جيدا ما أفزعت كل هؤلاء

الناس لسبب تافه جدا كهذا » ..

وكانت الطفلة لا تزال تبكى فى فجيعة . وكانت الطاسة الساخنة التى اشترت فيها ببريزة فول مدمس قد وقعت منها على الأرض واندلق الفول يعانق التراب والأوحال ، فاندلقت وراءه صارخة باكية ، ثم ان جماعة كانت مقبلة لا تلوى على شىء فداست فوق حفنة الفول وأخذت فى أقدامها ما أخذت ، فارتاعت الطفلة وأعادت صرختها ، فانبرى اكثر من صوت يلعنها ويسب ديك امها ، وبعضهم شخط فيها مهددا اياها برمى الصنجة فى وجهها ان لم تكف وتنكشح . لحظتها مرت سيارة أنيقة تتهادى لا تلوى هى الأخرى على شىء فسحقت ما تبقى من الفول ومضت ، واشتد نحيب الطفلة وقد تضاعف خوفها من الناس وراحت تحاول كتمان بكائها فتنتفض . وكانت تختلس النظر مذعورة هنا وهناك وهى تنحنى على الارض ، وفى هدوء الفلاسفة وبراءة الملائكة راحت بيديها الصغيرتين الحلوتين تجمع ما تبقى على الأرض من عجينة طينية مشبعة برائحة الفول الساخن الطازج ، وتعيدها الى الطاسة ، ثم تمضى متعثرة لتغيب فى الزحام .

موقف الغرق

وإذ وجدت فى حوزتى بضعة جنيهات أتتنى من باب الله احلوت الفكرة فى نظرى وقررت السفر إلى تلك المدينة التى يسمونها بلد العجايب وأحيانا أم الدنيا ، ووضعت فى تصميمى أنه لابد لى من الإتيان بأخى الدكتور من تحت طقاطيق الأرض . المشكلة أنه ليس دكتوراً من النوع الذى يعالج المرضى حتى تكون له عيادة معروفة ، إنما هو دكتور مثل طه حسين كما يقول أبى ، حيث يظل المرء يدرس ويدرس إلى أن يطلقوا عليه لقب الدكتور ، ولابد أن لقطة الدكتور هذه منتهى الآمال ، حتى أن أخى منذ أن سعى إليها - بعد سنوات من الغيبة فى التعليم امتص فيها دمنا جميعا أبى وإخوتى وأنا - إختفى من حياتنا تماما ، ولم نعد نراه أو نسمع عنه ؛ غير أن بعض الناس فى بلدتنا يؤكدون أنه يعيش فى أم الدنيا ، والبعض الآخر يبالغ فيؤكد أنه رآه رؤية العين فى الهيئة الفلانية أو الهيئة العلانية. وكتب لى أحدهم ورقة زعم أن فيها عنوان الهيئة التى يعمل فيها أخى .

* * *

دهمتنى العاصمة فلم أعرف لها أولا من آخر ، واتخبل حالى فلم أعرف لى رأسا من ذنب ؛ لكن الذى يسأل - حقا - لايتوه .

* * *

ذهبت إلى المكان الذى يعمل فيه أخى . وكنت أظن أننى سأقوم برحلة مضنية فى سبيل البحث عنه ؛ ولدهشتى فوجئت بأنه فى نفس

العنوان الذى يسمونه هيئة لا أعرف ماذا . وقد تفاعلت وحلت بى سعادة غامرة مرة ، إذ أحسست أن أخى شخصية مهمة جدا فى هذه الهيئة ، يعمل تحت إمرته عدد من الموظفين ، وآلة التليفون بجوار مكتبه هو ، وكلهم يجاملونه ويأخذون الإذن منه . غير أننى بعد ساعة واحدة قضيتها فى مكتبه اكتشفت انهم جميعا يكرهونه بشدة ، ربما لكثرة تدقيقه في كل شئ ومراعاة الأصول والضمير كما علمه أبى تماما فحينئذ عرفت أنه فى هذه الناحية ابن أبيه بمعنى الكلمة . وخلال هذه الساعة سمعت أكثر من واحد – بدون مناسبة – يغرية بالسفر إلى أى مكان يقدر كفاءته بعيدا عن هذه المخروبة . على أن هذا لم يخيفنى إنما الذى مرر حلقى هو حالة أخى الذى بدا عجوزا كركوبا وهو بعد فى عز الشباب ، نحيف القوام بارز عظام الوجه غائر العينين مرهقا حتى النخاع ؛ وعرفت أنه يعمل صبحا وظهرا ومساء ليفى بنفقات الحياة فى المخروبة التى لم يبارك الله فى شئ فيها قدر بركته فى عدد العيال .

* * *

إنحشرنا فى الأتوبيس بعد أن تصلبت أقدامنا من الإنتظار الطويل على المحطة . وبعد هبد ورزع وكتم أنفاس وبهدلة لمدة ساعة هبطنا .

* * *

إذا بنا فى قلب بحر غريق والناس يمخرون عبابه بأقدامهم فى لا مبالاة . وقال أخى إنها مياه المجارى ؛ ولم اكن فى حاجة إلى هذا القول . وكانت السيارات التى يركبها الصياع المخبولون العائدون من العراق وليبيا تمر سريعة فتطلق علينا رشاشات من الغائط العتيق .

* * *

وقفت حائرا أنظر فى أخى الدكتور الذى بدا كأنه لا يعانى من أى مشكلة ، بل إنه جعل يتأهب للقفز فوق حجر على مرمى حجر آخر عليه أن يعبره ليقف على فردة كاوتشوك . قلت لنفسى : ماذا نفعل الآن يا

حسان ؟ الوحل من ورائك والغائط من أمامك فأيهما تختار ؟ العجيب أننى رأيت أن لا مفر من اختيار الغائط فهو فى الواقع لم يكن محل اختيار بل كان هو الملاذ الوحيد فى هذا الوقت فى هذا المكان . وقد عجبت للأطفال يسبحون فى بحر الغائط على إطارات من الكاوتشوك، يلعبون الكرة ، كأنهم جميعا كائنات غائطية لم نعرفها فى قرانا من قبل .

* * *

أشرفنا وسط بحر الغائط اللزج المتلبد ، على حارة ضيقة فصرنا نتقافز كالقردة والبهلوانات فوق نتوءات صلدة يعرفها أخى جيدا وينبهنى إلى عدم الإنخداع فى أى نتوء فليس كل نتوء صلدا . بعد عناء شديد ومسخرة وصلنا إلى بيت جميل ، الشكل من الخارج كعمارة من سبعة طوابق ذات شرفات ونوافذ يتدلى منها الغسيل فوق الحبال . فما أن دخلنا حتى خضنا فى أكوام من القمامة فى مدخل الباب وحواليه . ظلت رائحة الروث الإنسانى المتعفن ترافقنا على السلم الضيق الواقف ، حتى الطابق الأخير .

* * *

استقبلتنا وفود من البط والدجاج والكلاب والقطط والأطفال فلم نستطع تمييز القط من الكلب ولا الكلب من الطفل ولا الطفل الزاحف من الأوزة . أخذنا نتخطى كل ذلك دون أن نفلح فى تجنب الخوض فى أوان بها أكل البط ، لندخل بعد ذلك فى ضجيج هائل : صياح وصراخ وجعير وعواء وزئير ونباح وصوصوة وحمحمة واصطدام أشياء بأشياء واصطكاك الأرض بأوان جعجاعة الصوت كأننا أخطأنا فدخلنا غابة مفترسة . تبينت صوت سيدة مرهقة بائسة ترقع بالصوت الحيانى – مثلما كانت أمى تفعل منذ أكثر من أربعين عاما – إلهى أشرب ناركم ! أعدمكم واحد واحد يارب ! . إربد وجه أخى وظهر عليه الغضب والإنقباض . صرنا فى قلب فسحة ضيقة يطل عليها باب تتصاعد منه الروائح الكريهة تقدمنى

أخى داخلا ، فدخلت وراءه ، فاتجه مباشرة إلى كنبة رفيعة تشبه المصطبة فى دارنا القديمة ، وقف عليها وأقام الصلاة ، فيما رحت أتعود على الظلام المتراكم فى الحجرة .

الحَوْل

كنت قد وصلت إلى المعزى متأخرا ؛ فحمدت الله أن توافق الزمن مع هدفى المرسوم : أن ألحق ولو بالربع الأخير ، لأمكثه كله ، فأكون بذلك قد أديت الواجب بصورة لائقة ، فى واحد أعتبره من الأعزاء القليلين فى حياتى . لحظة إقبالى على السرادق الفخم المهيب فى ساحة عمر مكرم كان المقرىء يتأهب لقراءة ما بدا لى أنه الربع الأخير ؛ حيث راح عامل الفراشة يعدل مكبر الصوت فى مستوى فم المقرىء المتربع على أريكة عالية وينفخ فيه فيصفر ويخرخش ..

نهض صف طويل من الرجال بمجرد ظهورى عند حائط مجمع التحرير ، فى خيمة الضوء البرتقالى المنبعث من ثريات متدلية من سقف السرادق كالعناقيد يعانق ضوؤها بطانة السرادق الحمراء المخططة بشرائط خضراء على شكل مربعات ومثلثات فى وسطها كلمات وحروف تنطق بألفاظ الجلالة والآيات القرآنية واسم المعلم صاحب المفروشات وعنوان محله . كان صف الرجال طويلا مهيبا ، كلهم رجال أشداء وقورون فى ملابس رسمية كاملة وعلى سنجة عشرة ؛ بوجوه حليقة مزنهرة مضروبة ببوية الحزن المتقنة المعجون ..

سلمت عليهم واحدا واحدا ، مرددا كلمة واحدة : ذنبكم مغفور ! ذنبكم مغفور! ذنبكم مغفور ! .. ثم تهت فى السرادق لبرهة كالعبيط أتمنى أن تنشق الأرض وتبلعنى قبل أن أتعثر فى البحث عن كرسى ؛ حتى لقد تخبطت فى ناس انتهزوا الفرصة وقاموا لينصرفوا قبل أن يستبقيهم المقرىء نصف ساعة أخرى ..

لحقت بكرسى فى نهاية صـف الصدارة فى مواجهة المقرىء ، فجلست ، فعاجلنى الفراش بملابسه الرسمية حاملا صينية القهوة ومن خلفه واحد آخر يحمل إبريق ماء وكوبا فارغا . شكرتهما بحركة تقليدية وعقدت ذراعى على صدرى ورميت بنفسى فى بحر الحزن الأليف المسيطر . ثم استعاذ المقرىء بالله من الشيطان الرجيم ، وبسمل ، وشرع يقرأ سورةالرحمن ، فتفاءلت خيرا ، إذ أننى أعشق موسيقاها وتواتر صورها فى دفق الشعور بذبذبات لا نهاية لتردداتها المدوية التى لا تنداح من الذهن أبدا ..

غير أننى مالبثت حَتى رفعت رأسى وجلت ببصرى فى المعزى فرأيتها على درجة عالية من الأبهة ، فداخلتنى فرحة غامرة هدهدت جوانحى . فعلا ، هذا ما يستحقه «عبدالرءوف عجلان» أنبل رجل فيمن عرفتهم على الإطـــلاق . فجأة رأيت «عبدالرءوف عجلان » بنفسه يدخـل مخترقا الطريق نحوى مباشرة كالمدفوع بامتنان شديد لكى يتقبل بنفسه عزائى له فيه ، فاقشعر بدنى وانتفض برعدة الشروع فى البكاء الحار . كان معفر الثياب مترهلها كالعادة ، بوجهه الكروى المكلبظ كوجه طفل مقشر الوجه لم يتشكل بأى ملامح بعد ، مجرد كرة ينزوى فيها عينان عميقتا الغور كناروزتين مفتوحتين على الفضاء ينفد منهما قرطاسان من الضوء المشع الصافى ؛ بعد مساحة متاخمة لهاتين العينين تلوح فتحتان أضيق كعلامتى استفهام متقابلتين ، فوقهما أنف يكاد لرقته ورهافة تحديده ينوب فى كروية الوجه. وقد لا تشعر أنك أمام وجه بشرى إلا حين ينفجر ضاحكا ؛ لحظتئذ فحسب، ينفتح فم واسع رهيف الشفتين ، تنضغط كرة الوجه كأن يدا خفية تقبض عليها فتعجنها حتى لتكاد تنصفط ، تتفصد بالعرق الأحمر القانى كأن صاحبها يعرق دما ورديا لامعا مشعا بالبهجة العريضة المعدية فى سرعة مذهلة ، فسرعان ما تشعر بالرغبة الدافقة فى الضحك الصافى والسرور اللانهائى . وعند الإنفعال تكاد كرة الوجه تقفز لتنطط فوق هضبة كروية أخرى هى كرشه

الخفيف الظل ، الذى يرتفع حزام السروال حتى منتصفه تماما فإذا كرشه قد انقسم بالعرض كقوس قزح ، وإذا هو على الدوام يمد يديه ليرفع الحزام بين آونة وأخرى ليظل السروال شالحا فوق الحذاء الأسود اللميع والجورب الرمادى . رغم ما يثيره فيك من بهجة وسرور إذا ابتهج يثير فيك الحـــزن العميق القاطع إذا حزن : طفلك الحبيب قد ألمت به نازلة أفقدته النطق فحولت وجهه إلى كرة من اللهب يثير فيك حرارة الألم . ها هو ذا يسلم على فى حرارة ووجهه كرة من اللهب ، ثم جلس بجانبى ، فأيقنت أننا نجلس فى معزى لعله معزى زميلنا «عاشور» كاتب الصادر والوارد بالهيئة التى نعمل بها . أيقنت أيضا أن صديقى «عبدالرءوف عجلان» قادم لتوه من القرافة ، وأنه قام بالواجب فى حق زميلنا الراحل خير قيام : إنه ليس مجرد رئيس حسابات الهيئة ، وليس مجرد رئيس اللجنة النقابية الخاصــة بالهيئة ، إنما هو إلى ذلك أمين صندوق لا أحد يدفع فيه مليما واحدا : هو منشئه ومموله الوحيد خدمة للزمالة وإسعافا لعسرات الحياة ومواجهة أزماتها الطارئة على أى زميل ، إذ أننا جميعا على باب الله قد يعجز الواحد منا فى لحظة عن الذهاب بإبنه للطبيب فيموت الولد فى شربة ماء ، وقد تكون زوجة الواحد منا فى حالة وضع إن لم يتطلب طبيبا أو مصحة فعلى الأقل يستلزم مواجهة إنفاق ضرورية . وهكذا : وكان المفروض أننا جميعا قد وافقنا على أن تخصم الإدارة من مرتباتنا قروشا معدودة لصالح صندوق الزمالة لكن الإدارة لسبب ما لا ندريه لم تفعل ، مع ذلك ظل «عبدالرءوف عجلان» يقدم الخدمات ويؤدى الواجب من جيبه الخاص ، إذ أنه محترف جمعيات يدبرها من مصروف يده التى لم نرها تصرف شيئا على الإطلاق للإنفاق على صاحبها . زوجه وأولاده لا يعرفون عن هذهالجمعيات شيئا : إذ هو يقبضها فيرمى بها فى بعض محلات تجارية تربطه بأصحابها صلات طفولة وقرابة وعلاقات متينة موثوقة ، يديرون بهذه الجمعيات أحوالهم نظير عمولة ربح متفق عليها تضاف تلقائيا إلى المبلغ ، ليمر هو فجأة على واحد منهم فينتحى

به جانبا : «شوف لى معك ميتين جنيه بأى كل ! دلوقت حالا !» . ودى الوقت حالا يأخذها ، ليجرى لاهثا فيتجرأ لأول مرة فى حياته فينادى : تاكسى ! إذ لابد أن يلحق بمريض من الزملاء فى مستشفى ، أو أن فى انتظاره صديقا على مقهى معذورا فى قرشين ، أو سيلحق «بطلعة» ميت يمت بصلة قربى لأحد الزملاء ويحب أن يعزم عليه بشىء من النقود أويتقدم من تلقاء نفسه فيحاسب الفقيه وعمال الفراشة ..

– .. «بينهما برزخ لا يبغيان .. فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟» سحبنى قرار الصوت . لم يكن بجوارى في معزى «عبدالروف عجلان» أحد سوى بعض الكراسى الخالية ؛ لكن السرادق مع ذلك ملآن بالناس من مختلف الأشكال والألوان؛ شىء مبهج حقا ؛ شخصيات تبدو شديدة الأهمية على

درجة كبيرة من الأناقة فى أثمن الثياب وأربطة العنق ؛ والرايضون بمدخل السرادق كثيرا ما يتسلل بعضهم ليمضى فيعيد الترحيب بهؤلاء وأولئك ممن بدا أنهم شخصيات ذو مراكز مرموقة ، لعلهم وزراء أو كلاء وزارات أو رؤساء مجالس إدارات ، يشير إلى ذلك هذه الأرتال من السيارات المرسيدس السوداء والفورد والفولفو ، التى راحت تتزايد أمام السرادق . لم يكن «عبدالروف عجلان» من ذوى المناصب الكبيرة ولم يكن من الحكام لكنه كان ذائع الصيت فى الهيئة وفى هيئات كثيرة لها صلات عملية وثيقة بهيئتنا . كذلك كان معروفا معرفة جيدة لدى نسبة كبيرة من وكلاء الوزارات ورؤساء مجالس الإدارات ؛ كثيرا ما كانوا يطلبونه فى الهاتف أو يرسلون له التحيات مع بعض الوسطاء والسعاة ؛ لاغرابة فهو متوقد بالنشاط لا ينصرف من مكتبة ووراءه ورقة واحدة فى حاجة إلى استكمال، لا يرجىء عملا للغد أبدا ، لو كان الود وده لأنهى عمل العمر كله فى يومه . وكان هذا يخدم مصالح هيئات كثيرة وناس كثيرين ، سرعان ما يندهشون من أنهم ليسوا مضطرين للعودة غدا ، بل لم يكن بعضهم يتوقع أن يدعى للجلوس وشرب فنجان من القهوة ريثما تنتهى مصلحته

بعد دقائق . مفتشو الجهاز المركزى ومندوبوه كثيرا ما يتحرجون فى التفتيش عليه ، فيكتفون بالمراجعة المطمئنة الواثقة دون تلكؤ عند التأشيرات لاستكناه مضمون غير مضمونها واستقرائها مخالفات وتساهلات وموالسات كما يفعلون مع غيره فى أماكن كثيرة . أتذكر الآن أنه ذكر لى مرة فى حديث عارض أن أمه من عائلة كبيرة جدا فى الصعيد كان منها الباشوات والبكوات قبل ثورة يوليو؛ وهم أغنياء إلى حد أنهم لم تعد تربطهم بأمه أية صلات اللهم إلا فى المناسبات الضرورية ، لكن إسمه واسم أبيه يرددان فى أى نعى تنشره العائلة فى جريدة الأهرام عندما يموت واحد منهم إذ يقولون : وصهر فلان الفلانى وإبنه فلان رئيس حسابات هيئة كذا . ترى هل نشرت العائلة اليوم نعيا خاصا بها ؟ الواقع أننى مررت على صفحة الوفيات بسرعة فلم تتوقف عينى إلا على النعى الذى نشرناه باسم الهيئة مع صورة له ..

- « .. يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان .. فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟» ..

ها هو ذا زميلنا «محمد عزوز» صراف الهيئة يقبل نحو السرادق . هو الآخر يجىء متأخرا وقد أوشكت المعزى على الإنتهاء ؟ أشعر نحوه بكثير من الإحتقار والسخط لكننى مع ذلك فرحت بمجيئه ، يكفى أنه الوحيد من الهيئة الذى أراه الآن فى المعزى . ترى هل جاء غيرنا ؟ لا شك أنهم جميعا حضروا وانصرفوا ، وقاموا بالواجب فى عملية الدفن وإقامة السرادق . فجأة دخل «عبدالرءوف عجلان» إلى الحجرة التى تضم مكاتبنا نحن الخمسة العاملين فى قسم شئون الأفراد ؛ كان ممتقع الوجه لاهث الأنفاس زائغ النظرات يحمل بين يديه مظروفا تطل منه أوراق مالية من فئة العشرات والخمسات : وقف وسط الحجرة قائلا بلهجة حزينة متلعثمة بالحرج : «ياجماعة ! كل واحد منكم يلافينى على الأقل بخمسة جنيه ! فيه عجز كبير فى الخزنة والواد محمد عزوز حيدخل فيها السجن

مفتش الجرد قاعد مستنى عشان يقفل الخزنة ! اللى عنده أى اعتراض أو زعل من عزوز يأجله دلوقت ! المهم دلوقت سمعة الهيئة لأن ده فى وشنا كلنــا ! إنتوا عارفين إن دى مسألة ما فيهاش هزار ! جايز يكون لكم رأى فى عزوز إنه ملعب ويتاع ثلاث ورقات ! لكن أنا شخصيا بأشوف إنه اهمال ! نوع من الاستهتار والمعيلة ! وواجب علينا نديله فرصة المرة دى! عشان خاطر عياله بس ! بعد كده هو الجانى على نفسه ! يلا بقى يا خوانا اهرشوا فى جنابكم امال !» ..

— « .. يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

إختفى «محمد عزوز» فى ركن قصى . أخذت أجول ببصرى فى السرادق بحثا عنه . شد بصرى شخص جديد أقبل ؛ إنه زميلنا «عبدالرحمن عرجاوى» مدير العلاقات العامة فى هيئتنا ، مهياص كبير ، يتنفس الكذب ، لكنه مع ذلك لطيف وطيب ورقيق ولا بأس من عشرته إذ أنه مفضوح الكذب ، كذبه نوع من الفشر والفشخرة والمعر الناتج عن تضخم فى الشخصية ؛ الطريف أن هذه الصفات فيه هى التى جعلت منه مدير علاقات عامة ناجحا ، يعطى للهيئة مظهرا فخما . كان «عبدالرءوف عجلان» يهرول فى اتجاه حجرة رئيس مجلس الإدارة حينما اصطدم بى وأنا خارج من دورة المياه : «مالك ملهوف على إيه ؟!» . قال مشوحا : «الواد عرجاوى مسكين ! تصور مخصوم منه عشرة أيام بعد تحويله للتحقيق ؟ أصله كان كذب كذبة من المعر بتاعه كلفت الشركة خسارة كبيرة! تفتكر رئيس الهيئة حيوافق على رفع الخصم لو أنا دخلت كلمته ؟ الواد صعبان عليه والعشرة أيام كتير برضه يقسمو وسط المرتب ! على كل حال ادخل له برضه واتحايل عليه شويه ! إن كان كده نبقى نلمهم من بعضنا فى السر ونحطهم له فى الخزنة يقبضهم مع المرتب !» ؛ ثم هرول نحو الحجرة ..

ها هو ذا «عبدالرحمن عرجاوى» يسلم على المستقبلين ، الذين سلموا عليه فى حرارة . كان من الواضح أنه يعرفهم واحدا واحدا ..

- « .. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ .. فبأى آلاء ربكما تكذبان؟» ..

بعينه الصقرية ذات الرموش الطويلة السوداء لمحنى «عبدالرحمن عرجاوى» ؛ فأقبل نجوى متمهلا بقامته الطويلة الرشيقة وأناقته المفرطة، ووجهه المزنهر بالحمرة كأنه يشرب كوبا من الدم صباح كل يوم ، وبشعره المفلفل المتسق على جبينه وفوديه بمقص حلاق فنان ، وملامحه الوسيمة المسمسمة . سلم على وجلس بجوارى ؛ همس فى أذنى : «أنت وحدك هنا ؟!» . قلت : «ومحمد عزوز» . قال مستنكرا : «فقط؟!»؛ ثم أضاف : « إحنا أصلنا اتأخرنا ! أنا والله قطعت الأجازة وجيت من البلد حالا !» ..

- « .. فيهما عينان نضاختان .. فبأى آلاء ربكما تكذبان؟» .

همست فى أذنه : «كان المفروض أن يقف جماعة منا بين المستقبلين! ألسنا أصحاب المعزى ؟! » . احمر وجهه ولوى شفتيه فى أسف : «المفروض طبعا!» . قلت : « هل تعرف أحد من الذين استقبلوك؟». قال : «ولا واحدا» : كدت أبتسم . شدنى منظر طائفة من المعزين مقبلة نحو السرادق ، تبينت فيهم مجموعة كبيرة من زملائنا فى الهيئة ، توقفوا أمام السرادق فى ارتباك شديد ؛ أوشك منظرهم أن يصير مضحكا مثيرا للإستنكار ؛ إنزوى جماعة منهم فى المنطقة المظلمة، لحقنا الآخرون فتشجعوا لإنهاء التردد ، خاصة أن المستقبلين وقفوا تأهبا لملاقاتهم . دخلوا ؛ تناثروا فى السرادق كسحابة من الدخان ، جاء بعضهم نحونا ، «سالم عيد» و«سيف الكردى» و«السيد زيدان» ، جلسوا بجوارنا والقلق باد عليهم . مال نحونا «سالم عيد» وقال هامسا : «أمال فين طارق وفيصل ؟!» . قلت : «من يكونان ؟!» . قال : «إبنا

المرحوم ! ما شاء الله طارق فى الثانوية العامة يعنى لازم يكون هنا ! دوروا عليه عشان نعزيه !» حينئذ مال «سيف الكردى» وهو يكتم ابتسامة أسف حرجه : «يا جماعة ! هذه ليست معزى عبدالرءوف عجلان ! معزى عبدالرءوف فى السرادق المجاور !» . شعرت بغيظ يأكل قلبى : «إزاى ! أنا ماشفتش معزى تانيه هنا !» . قال : «أصلها معزى فقايرى ! عشان كده مش باينة جنب السرادق اللى احنا فيه ده!» ..

رغم الشعور بالأسف تبسمنا فى كثير من الضيق والتوتر ، صرنا نستعجل المقرىء ، لكنه شبك فى قصار السور فسمرنا فى جلستنا فصرنا كالفئران الحبيسة فى المصيدة . قال «عبدالرحمن عرجاوى» فى توتر : «لابد أن نلحق بأولاده ولو فى آخر لحظة وإلا فمنظرنا ليس لطيفا!». حين صدق المقرىء وطلب الفاتحة كنا أول من وقف ؛ أسرعنا إلى الخروج . هرعت فى مساحة الضوء أبحث عن معزى «عبدالرءوف عجلان» . صاح «سيف الكردى» هاتفا : «أهه طارق اهه !» واندفع مهرولا نحو سيارة أجرة شرعت تتحرك حاملة «طارق» وأخيه . جرى «سيف» وراءها مناديا : «طارق !» ، لكن السيارة اندفعت مارقة فى الشارع الخالى ، ثم مالبثت حتى اختفت . وقفنا حائرين كفلول جيش ضال ، إنضم إلينا الكثيرون من الزملاء ؛ أخذنا نتابع العمال وهى تفك حبال سرادق شديد التواضع خافت الضوء . وحين فوجئت بأننى مستلق وحدى على كرسى خلفى فى سيارة أجرة تزأر على طريق الكورنيش كنت أغالب الرغبة فى البكاء وأتمنى لو أننى لحقت بطارق عبدالرءوف لأعتذر له قائلا: لا تؤاخذنى يا ولدى ! فأبوك وأنا ! .. كنا نعزى فى شخص آخر!

المرجع

مثلما يدق جرس الحصص بانتظام ، ومثلما نواظب على الحضور يومياً ونتخذ مجالسنا خلف الأدراج ، كان مدرس الفصل يواظب على توبيخى دون ملل ، وكنت أواظب - أيضاً - على هز الرأس فى طاعة عمياء ، والنظر حولى فى حرج شديد ، ومحاولة الإستمساك بالإبتسامة المعلقة على شفتى خوف أن تسقط أوتنمحى فتنتصر الدموع ..

يقف ناظراً إليّ بما يشبه التهديد والوعيد ، أخيراً يفتح فمه بالعبارة المنتظرة :

- طلعوا المرجع .

فترتفع موجة من الأصوات يحدثها انفتاح الأدراج وانغلاقها ، بعدها يستقر الكتاب (المرجع) فوق كل الأدراج إلا درجى أنا وهو لسوء الحظ لصق درج المدرس مباشرة ، مدرس الفصل يعرف مقدماً أننى بلا نسخة من كتاب (المرجع) وأننى كالعادة لم أفتح درجى .. مع ذلك يبعد نظرته عنى إلى عمق الفصل صائحاً كأنه يعنينى أنا وحدى :

- افتحوا على صفحة كذا ..

فتنبعث خرخشة الصفحات أما هو فيتراجع إلى الوراء مرسلاً إلى الوراء نظرته المنكلة التى صرت أكرهها قدر ما أرهبها ، ثم يعاجلنى :

- أمال فين يا خوية المرجع بتا .. عا .. ك ؟!

أتلعثم للمرة المليون ، أبلع ريقى الناشف ، أحاول إختراع سبب جديد :

- أصل .. أصل يا أستاذ .. ربنا يخليك .. أبويا ..

ثم لا أعود أعرف ان كان ما يرتسم على وجهه ابتسامة أم كشف عن الأنياب .. أحس كأن مبنى المدرسة كله فوق دماغى .. كلمات المدرس تقرع رأسى تضربها فى التختة :

- ده علم يا شاطر مش هزار .. السنة قربت تخلص .. ثم ده كتاب ثمنه تلاتين قرش .. أمال لو ماكانش التعليم مجاناً كنتوا عملتوا إيه ؟ .. عايزين كل حاجة ببلاش ! .. جتكم البلا ..

ثم يسحب نظرته عنى فى قرف ، يخطو بين الصفوف ، فيرتد ناظراً نحوى :

- لازم تجيب المرجع يا شاطر وإلا ماتجيش خالص ..

يقذف الطباشير فى الأرض يسحقها بقدمه صائحاً :

- الولد فلان يقرأ ..

ويشوح لى فى يأس قائلاً :

- بص مع اللى جنبك

اكسر رقبتى ناحية جارى وأروح انظر فى مرجعه ..

أصبحت أعرف ماذا على أن أفعل حين يوبخنى المدرس هذا التوبيخ ، لكننى لم أكن أعرف ماذا على أن أفعل حين يمتنع جارى عن اشراكى فى النظر إلى مرجعه ، مع أن هذا المرجع قد أصبح محفوراً فى رأسى كلمة كلمة بل ربما كنت الوحيد الذى يحفظه عن ظهر قلب كما يقولون ، كنت دائم التودد إلى جارى ، أبرطله بكل قطعة سكر أو عسلية تقع فى يدى ، فأصبح يعطى نفسه الحق فى تفتيش مخلاتى وجيوبى بحثاً عن شىء يأخذه . كل الأشياء التى أخذها منى - وما أكثرها - كانت ميسورة إلا ثمن كتاب (المرجع) وقد بكيت لأبى عشرات المرات ، وهو لا يريد الإقتناع بأن نترك كتب الوزارة وندرس فى كتب خارجية ، فأقول

له إنه كتاب فيه كل العلوم التى ندرسها ولكنها مختصرة ومنظمة ، وأن فيه نماذج من امتحانات السنوات السابقات والإجابات عليها ، وأن كل الأولاد اشتروه ما عداى .. فلا يفعل أبى شيئاً بل يبسط يده قائلاً فى ألم :

- منين ... أجيب تلاتين قرش منين .. لو كنا نقدر كنا وديناك المدرسة إنما إنت اللى رحت لوحدك ..

وكان لابد أن أرفع قامتى فى الفصل ؛ فصرت أذهب إلى سوق البلد والأسواق المجاورة أساعد الناس فى حمل أشيائهم المشتراة ، فيعطوننى قروشاً وملاليم أصرها فى منديل محلاوى اربطه على وسطى، فلما تجمع لدى ما يزيد على القروش العشرة ذهبت إلى ولد من ولدان السنة الماضية وطلبت منه أن يبيعنى مرجعه القديم ، كان قد تهرأ وفقد غلافه وصفحات كثيرة من بدايته ونهايته ولكنه كان حقيقة بين يدى حملته إلى الدار فسهرت الليل كله أفصل له غلافاً من الكرتون ألصقه بالدقيق العلامة حتى إذا ما أقبل الصبح ارتديت ثيابى واهتممت بنظافتها على غير العادة ..

حملته وحده بدون مخلاة ، تأنقت فى ابرازه ، وكان أول شىء فعلته ذلك اليوم أن هزأت بجارى وجررت «شكلّه» حتى شتمنى .. فمزقت له ثوبه وضربته بالشلوت والبونية ولم يخلصه منى سوى الجرس .

ما ان دخلت الفصل حتى وضعت (المرجع) على سطح الدرج ورحت انتظر فى زهو دخول المدرس ، ولكن الوقت مر بطيئاً ثقيلاً ، فات نصف الحصة ، أخيراً دخل رجل جديد لم نره من قبل أبداً ، قال أنه المدرس الجديد ، ثم قال أنه سمع عن كتاب ندرس فيه اسمه (المرجع) فماذا يكون يا ترى ، فعلى الفور تطلعت بإبرازه فى زهو كبير : أهو يا أستاذ..

فتناوله وأخذ يتصفحه بإمعان ثم جلس فى فرح صائحاً :

- طب طلعوا صفحة كذا ..

فخرخشت الصفحات وانفردت فأشار المدرس لواحد بعيد وأمره أن

يقرأ ، ثم نظر نحوى فى اعتذار قائلاً :

- بص مع اللى جنبك !

منزلة الشوق !

حدثني صديقي الطويل «جودة أبوظريفة» أنه كان في تلك الليلة يعاني من حالة اشتياق شديد جداً لزوجته ، حالة وصلت إلى حد الوجد المشبوب والشعور بالهياج العصبي المثير للغيظ أن زوجته لم تكن بالبيت ولا بالمدينة ، كانت قد سافرت إلى الخارج لزيارة شقيقها المقيم هناك ، وقد تعاهدا بالعين القوية عند لحظة الوداع منذ حوالي ثلاثة أشهر أن يدخر كل منهما للآخر زاداً كبيراً من الشوق لا ينفس عنه إلا عندما يحين اللقاء بينهما .

غير أنه لم يكن يعرف أن لحظات الشوق إن طالت تسبب كل هذا العذاب وتخرج الإنسان عن طوره فيفعل حركات صبيانية تكاد تكون فاضحة . وبإعتباره رجلاًمحترماً يبزغ الشعر الأبيض على فوديه ويظلل وجنتيه بمسحة من وقار الأربعين ، فإنه تعود حين يركب الأتوبيس الذي يوصله إلى الضاحية البعيدة مقر سكنه أن يتجنب الإنحشار قدر الإمكان. وأن قضى عليه بالإنحشار - ولا بد أن يقضى - فإنه ينكمش على نفسه ويقشعر حين يلتصق به اللحم الأنثوي في غير مبالاة وتحتك بأعضائه احتكاكاً قوياً مستفزاً ، ويروح هو يبحث لنفسه عن موضوع ملح يشغل به دماغه حتى يسرح بعيداً ولا يظهر عليه أي ردود فعل للإحتكاك ، ولكن على كثرة ما في حياته من مشاغل ومشاكل تنتظم وقته دقيقة بدقيقة فإن جميع المشاكل والموضوعات تهرب كلها في تلك اللحظة. ويبدو كأن ذهنه يعاني من البطالة . وكان في العادة ينجح في الإحتفاظ

بإحترامه لنفسه وبوقاره حتى المحطة الأخيرة ، ثم يمضى إلى شقته فى الشوارع الهادئة الساكنة التى لم تكتمل تقاطعاتها بعد ولم تمتلىء كل فراغاتها ، فيتسلل إليه فى ضوء القمر أو فى الظلام الخافت شعور وردى بأن ثمة من سينشق عنها هذا السكون فجأة لتسأله المساعدة فى شىء أو ربما سألته المبيت حتى الصباح

وفى تلك اللحظة كان قد برح به الشوق فقرر تدبير سفرة سريعة يلتقى فيها بزوجته هناك ويعود بعدها بها أو بدونها أو لايعود فكل ذلك يمكن مناقشته بعد أن ينتهى من التعبير عن شوقه العارم بكل ما فى مدخرات الأيام الفائتة من رغبات وانتظارات حارة . وكان القمر الساطع فى السماء ليلتها يفضح ما فى نفسه من أوهام حول السفر ، أهمها أنه ليس معه من نفقات السفر مليم واحد .

ثم أن طائفة من الكلاب خرجت من أحد التقاطعات تجرى مهرولة فى ابتهاج وشقاوة صبيانية ، ولاحظ أنها جميعاً تجرى وراء كلبة أنثى ، ثم توقفت فى الأرض الفضاء وصارت تتقافز فوق الرمال برشاقة ، ثم تتسارع فى ملاعيب مسرحية ، فيما أقعت هى على مبعدة وراحت تتابع فى شعور بالملل الساخر كأن كل هذه الملاعيب لم ترق لها . كأن هذه الإستعراضات لم تكشف لها عن الذكر الحقيقى الذى يملأ دماغها فتعطيه نفسها .

وجد نفسه مسمراً فى وقفته يتأمل المشهد بلذة فائقة يتقمص موقفها تارة وموقفهم تارة أخرى ، فكان يبتسم مشجعاً لأحد الكلاب على مهارته فى رد الخصم بالقوة ، ويكاد يصفق لآخر على رشاقته فى التصرف ، ويكاد يحكم بفوز ثالث لتكامل جسمه وبنيانه . لكن الكلبة كالملكة ما تزال تقلب البصر فى ملل وتنظر فيه هو شخصياً كأنها تقول له ولا أنت أيضاً يعجبنى ذوقك .. لك مقاييسك ولى مقاييسى التى لا تفهمها

أنت ولا تعرفها . ثم أمعنت فى احتقارهم جميعاً واعتدلت واقفة ثم شمشت فى الأرض ثم انطلقت تجرى وحدها بسرعة فائقة ، واستمرت بقية الكلاب تتعارك حيث انقلبت ملاعيب الفتوة واستعراضاتها إلى معركة حقيقية بينها .

أحس هو بالإحباط الشديد ، فاندفع يمشى فى أثر الكلبة محاولاً الإسراع قدر الإمكان . وإلى أن بلغها على الناصية الأخيرة البعيدة كان قد تجاوز التقاطع الذى يقع فيه مسكنه . وكان كلباً آخر خرج من مكان ما على غير موعد ، وكان مهزولاً وليس فى شكله أو هيكله ما يوحى بالإغراء ، وكانت هى قد جلست على مؤخرتها مستندة بأماميتها رافعة رأسها فى اتجاه الكلب المهزول كأنها تقول له : تعال أين كنت ؟ .. الكلب المهزل أخذ إتجاهه نحوها مباشرة وبدأ بينهما ود عظيم.

لابد أن أنامل الود العظيم تزحف فى صدره لتعزف عليه لحن الهدوء والخلود والأمان . وكان ، ليس فقط يتابع الكلبين اللطيفين بل يباركهما من كل قلبه ويخفق قلبه بالأمل ، لكن لحظة الإلتحام ماكادت تبدأ وتتحقق حتى انشقت الأرض عن كلب أسود زرى الهيئة غليظ خشن الصوت ، غوغائى ، اندفع نحو الكلبين اللطيفين فى عدوانية شرسة ، فانقض عليهما فاتكاً دونما تفاهم ، عقر الكلب المهزول فارتمى بعيداً يعوى ، وخمش بأظافره الكلبة المحبة فانسريت خجلى تعض على نواجذها من الألم .

غلا الدم فى عروق صاحبى . ولو كان فى يده مسدس لأطلق النار فوراً على هذا الكلب الحقير الزرى . ما غاظه أكثر وأشعل النار فى قلبه أن الكلب الأسود الزرى اندفع بكل همجية نحو الكلبة طامعاً أن يستأثر بها وحده ، ولكن ذلك كان محالاً فى نظر صاحبى .. لقد قرر أن ينتقم منه شر انتقام .. فرمى بحقيبته على الأرض ، وجمع كومة من الطوب والزلط، ثم اندفع يطارد الكلب الزرى وينشن عليه فى مقتل ، والكلب يتلقى قذائف

الطوب متتالية ، فيلهث صارخاً متوجعاً ، لم يوقفه سوى طوبة قاسية فى قدمه السفلى أعجزته فانطرح على الأرض يعوى .. فارتد صاحبى وقد شعر براحة كبيرة ..

بحث عن الكلبة فوجدها تقف، هناك بعيداً جداً ، فظل يقترب منها، فإذا بها واقفة بجوار حقيبته التى كان قد تركها فى مطاردة الكلب الأسود . فوقف ينظر إليها فى امتنان . وبعد برهة جاء الكلب المهزول يتقافز فى مرح ويؤدى أمام الحقيبة وصاحبها رقصة الإبتهاج الكبير . لكن صاحبى كان غافلاً عن ذلك كله فى أول الأمر ، كل أعصابه معلقة متوترة فى انتظار أن يستأنفا اللقاء من جديد . غير أن وقفته طالت وباخت فحمل حقيبته ومضى عائداً إلى بيته ، وعندما اقترب من بيته نظر بجواره فرأى الكلبين يمضيان وراءه مباشرة ، أحدهما على يمينه ، والآخر على يساره ، فنظر إليهما وابتسم .. فظلا يلاحقانه فى حراسة مشددة حتى اختفى فى الدار

قيام الواجب

لو كانت المشيخة بتطويل اللحية وتقصير الجلباب والحرص على أداء كافة الفروض الدينية فى أوقاتها المعلومة؛ أو بالتفقه فى علوم الحديث والتفسير والشريعة وما إلى ذلك، لما استحق أبويا عبد المعطى أبو حسين القزاز من هذه المشيخة مثقال ذرة. إذ أنه لا يحمل من هذه الصفات أى شئ على الإطلاق، ومع ذلك تعطى له، لله فى لله، وليس يعرف أى أحد فى بلدتنا، ولا هو نفسه، متى درج الناس على تلقيبه بالشيخ، دون شبهة سخرية أو تريقة أو مقلته. إلا أن ذلك فيما يبدو قد بدأ منذ وقت بعيد جدا العله من طفولة أبويا عبد المعطى أبو حسين القزاز. المشيخة تمضى معه في كل مكان يذهب إليه، حتى إذا طالعه شخص لم يسبق له معرفته من قبل واضطر لمخاطبته فإنه بتلقائية شديدة يقول له يا عم الشيخ؛ ربما لأن سمت أبويا عبد المعطى أبو حسين فيه شفرة السر التى تنطق بالمشيخة على أصولها رغم عدم وجود زبيبة الصلاة في جبهته. أياً ما كان الأمر فإن لقب الشيخ قد بات جزءا من اسمه كأنه مدون في شهادة ميلاده، ينادى به في قعداته التى لا تنتهى صبح مساء ليل نهار؛ وفى سرحاته الليلية التى يدبر فيها الفصولات الشقية لخلق الله على شطآن الترع والمصارف وغيطان الذرة، ليمتع نفسه وشلة مارقة من صحابة العابثين مثله بمنظر الفزع يدب فى الناس الآمنين السائرين فى حالهم، بمنظر شخص كان يدعى المرجلة فإذا هو ينكفئ فى مسطاح المصرف صارخا من الرعب يبول على نفسه، بمنظر خفير مغرور بحكم البندقية واللبدة الحكوميتين إذ يتملكه الخوف فيفزع جعبة ذخيرته الحكومية في حصير

مبروم وواقف فى الجرن يتحرك بفعل خيوط خفية ممسوكة بأيد تختفى فى مكان بعيد.. هى مسخرة في مسخرة يموت فيها أبويا الشيخ عبد المعطى أبو حسين القزاز؛ يفقد فيها كل وقاره بل إنه لا يعترف أصلا بما يسمونه بالوقار؛ لا يتورع عن لبس جلابيب النساء ولف الرأس بطرحهن ليتقمص شخصية النداهة التى يجب أن تتسلل في الهزيع الأخير من الليل إلي بيت فلان الفلانى تناديه بهمس واعد حلو تدعوه إلى صحبتها لمرافقتها فى أى مكان يشاء: «عايزاك فى كلمتين صغيرين! أنا فلانة مانتاش عارفنى يا فلان؟!»؛ فيمضى معه الموعود بالعذاب؛ يلف به أبعد الغيطان وكل الخرائب بحجة البحث عن بقعة آمنة، حتى يكل صاحبنا من المشى وتأجج الانتظار، ثم ما يلبث حتى يفاجأ بما يثير جنونه، بأصبع خبيث يبعبصه في مؤخرته بسرعة مفاجئة فيتلفت حواليه منتفضا صارخا كالموتور؛ فما يكاد يمضى خطوتين حتى يفاجأ بأصبع آخر يحاصره أينما لف يجده، ففى اللحظة التى يرتفع فيها صراخه بطلب النجدة تكون النداهة قد دفعته إلى عشة نائية: «خش هنا يا حبيب قلبى متخافش! دانا باهزر معاك!»؛ وتتركه وتختفى فى الحال. هو ونصيبه حينئذ، حسب قدرته على الاحتمال، بعضهم يظل يهذى فى العشة وحده حتى الصباح؛ بعضهم بارد القلب يخرج بعد فترة ليقفل عائدا إلى داره منتفضا متلصصا يبسمل ويحوقل ويقرأ عدية يسن..

الأعجب من ذلك كيف ينتقل الخبر إلي أهل البلدة في الصباح الباكر في حين أن أبويا الشيخ عبد المعطى ابو حسين القزاز لم يؤت فرصة مقابلة أحد يبلغه الخبر؛ كما أن الموعود بالفصل السخيف ربما لم يفضح نفسه بنفسه بصياح أو جعير؛ إذ هو فى العادة يبقي نائما حتى الضحى العالى لا يستطيع أن يلم نفسه من الفرشة. وهكذا أيضا أبويا الشيخ عبد المعطى بعد أن يفعل فعلته يظل نائما ولا على قلبه خبر بأن الدنيا من وراء ظهره مقلوبة تتحدث عما جرى لفلان الفلانى بالأمس..

بمجرد خروج الموعود بالفصل البايخ من عتبة داره يجد الحادث

يبرق في أعين جميع من يلتقيهم؛ الكل يبدو أنه يكتم في نفسه خواطر مثيرة للضحك، ربما نشط الخيال فضخم الحادث أضعاف أضعاف حجمه، ولكن حسب درجات العشم، ومركز الشخصية في البلد؛ فلقد يظل الواحد منهم يضحك بعمق غير عابئ بأن صاحبنا قد انجرح أم لم ينتبه؛ ولقد ينجح في كتم الضحك حتى يبتعد صاحبنا، لينفجر حلقه بصوت كحشرجة الكلاب عندما تكشر عن أنيابها لحظة الغضب. فإذا مر صاحبنا بمصطبة في الطريق العمومي بدا الجالسون عليها كأنهم كانوا فى انتظاره من صبيحة ربنا؛ يردون عليه السلام بحماسة مبالغ فيها، يشددون فى العزومة عليه بكرم حاتمى أن يتفضل الشاى؛ هيهات أن يفلت منهم بأى عذر أو حتى باصطناع الغضب. إن أفلت بمعجزة من أى مصطبة فإن ذلك مستحيل عليه بالنسبة لمصطبة دارنا، التى ربما هى أشهر مصطبة فى البلدة كلها..

أبويا الشيخ عبد المعطى أبو حسين القزاز هو الراقوبة التى يبيض فوقها المساء رجالا ضاحكين عديدين. الوقت ملكه؛ فهو يملك أرضا يزرعها أولاده الأشداء الذين هم فى الأصل أولاد أعمامى ويدخل ضمنهم فى نظره إخوته الصغار من أعمامى. يقضى النهار على هذه المصطبة يذب الشرد أو الذباب عن وجهه، يعيد تبليغ عبارات المؤذن فوق جامع العصاروة القريب من دارنا، مرسلا كل عبارة بعبارة من عنده تستغفر، تدعو بالستر، تطلب غفران الذنوب، تستشفع بالنبى فى رد عذاب الآخرة المتوقع، تستهول نيران جهنم الحمراء. ضمن ذلك يوقف أى عركة تنشب، إذ مهما تعظم شأن العركة وارتفع اللجاج بين المتعاركين لدرجة تنذر بطلوع النبابيت، فإن كلمة واحدة منه - ينطقها بحرفنة عظيمة - لابد أن توقفها فى الحال مع أن العمدة نفسه لو ظل ينطق نفس الكلمة طول النهار فلن يأبه له أحد. إن لم تنفع الكلمة فشخطه حادة تحسم؛ فإن لم تبلغ الشخطة سمع الموتورين فقفزة سريعة عن المصطبة يصير بها في قلب العركة فاصلا بين الأطراف وهو على أتم ثقة أن أحد الطرفين لن

يجرؤ على دفعه بعيدا لينقض على خصمه، بل سوف تتهدل أعصابه في الحال ويمتثل خازيا الشيطان. غالبا ما يعود الأطراف كلهم في نهاية الشوط إلي المصطبة للتحقيق في أصل السبب وفي حله من جذوره بشاى يشربونه جميعا من براد واحد. فإن لم تكن عركة فإن أبويا الشيخ عبد المعطى لابد أن يجد ما يفعله في قعدته؛ يرشد الغرباء إلى الطرق الصحيحة الموصلة إلى أغراضهم؛ يتصيد شروة سمك تفوت بها امرأة صياد تحملها في طبق أو مصفاه مغطاة بورق الخروع، فيناديها قائلا: «وريني يا ام فلان!»، فإذا هى تنزل الشيلة عن رأسها وترفع الورق؛ فيبسمل ناظرا في الشروة بعينيه الضيقتين نظرات تعبر شاربه الضخم المنفوش وأنفه المدبب، تتقبض جبهته المتغضنة تحت عمامة محندقة بشال حول طاقية صوفية كإصيص مقلوب؛ ثم يقول: «يلا بالبركة! وديهم للعيال!» مشيرا بكوعه إلى باب الدار المجاور للمصطبة؛ يتبع الإشارة بصيحة: «يا بت يا فكيهة!»؛ فما تكاد أي فكيهة تخف لتلبية النداء حتى يكون قد حدد السعر الذى سيدفعه، ويبدأ الفصال من تحته ببضعة قروش؛ لتظل المرأة تردد خلفه: «ويفتح الله!» إلى أن يصل لما حدده فلا يرتفع عليه مليما واحدا. ثم ينصرف إلى تدبير الحيل لتصيد الرجال كى تجلس معه، بأن يضع صينية الشاى بالبراريد والأكواب وطبق من القراقيش الناعمة كالبسكويت بجواره على الدوام، ليقول لكل فائت ألقى عليه السلام: «الشاى اهه! جاهز وسخن! حود حود والله لتحود!». لا بأس أن يدخل الشاى الدار للتسخين أو للتجديد طالما أن الضيف قد تم اصطياده، ترك بلغته على الأرض وتربع فوق الحصير الجميل ومن خلفه المساند الوثيرة... الشاى يسحب شايات، والسلام يشد رجالات، تصير الزَربية كلها كمهرجان يومى تحت شمس الأصيل القرمزية كبطن الخيمة المضاءة؛ تطرح المصطبة ملاحق وقعدات إضافية حولها بحصير على الأرض أو بدكك خشبية عتيقة تسحب من المندرة مجرجرة إلى جوار المصطبة؛ تنتعش الحكايات والنوادر والطرف والأخبار، يتألق الفرافير

البارعون فى التشخيص والمقلتة. يا ويل من تعرض للفصل البايخ إذا مر لخطتئذ؛ فأر أغلقت عليه المصيدة؛ إلا أن الجميع بوحى من أبويا الشيخ عبد المعطى يستقبلونه في جدية كأنهم لم يعرفوا أى شئ عما حدث. وتمر لحظات طويلة يأمن خلالها صاحبنا ويطمئن ويندمج معهم فى الحديث الكلى وفى الضحك. وفى عز اندماجه في الانبساط يعتدل أبويا الشيخ عبد المعطى فى قعدته، يميل نحو صاحبنا كأنه يحدثه عن شخص آخر مجهول:

– «يقولون إن هلفا وقع بالأمس فى يد النداهة! ألا تعرف من هو يا فلان؟!..

عندها يحمر وجه صاحبنا يصير كالكبدة، يطرق بوجهه إلى الأرض؛ يحاصره أبويا الشيخ عبد المعطى..

– «وبعد يا رجال؟ ! لقد استفحل خطر النداهة والناس مع ذلك يصدقونها حينما تعود فتناديهم! أصلها نداهة بنت حرام تنده لكل واحد منهم بما يريده ويصدقه!»..

وهكذا ينخرط السامر فى ضحك عاصف، حتى المضحوك عليه لا يجد مفرا من المشاركة في الضحك على نفسه وعلى كيفية استغفاله؛ يضحك بصدر رحب، في غير حقد أو غيظ، لأن أبويا عبد المعطى أبو حسين القزاز لابد أن يغسل له صدره أثناد تريقته عليه؛ يكفى أن ينظر المغيظ إلى أبويا الشيخ عبد المعطى وهو مندمج فى الضحك، إذ يتحول وجهه الملوح بالشمس إلى وجه طفل غاية فى البراءة والصفاء، ولاينى يردد خلل ضحكه المنطلق المنفعل بالبهجة والغبطة عبارات متقطعة جذلة تفيض بالحبور والسرور والحب:

– «لمؤ..ا .. خذه الـ .. كلا .. م ... مباسطة! كلنا في النهاية إخوة مفيش حاجة! بس و ... لا .. د الـ .. حرام اللى .. سارحين فى البلد دو ... ل .. لرزم .. نوقفهم عند حدهم! دول حيخلصوا على رجالة البلد! دى

مصيبة حلت علينا!»..

ويمسح دموع الضحك بظاهر يده. المغيظ الذى صار الآن مستعدا لغفران ما حدث له؛ لم يعد يغيظه سوى شئ واحد: أن يكون واثقا بينه وبين نفسه ومن شواهد كثيرة أن أبويا الشيخ عبد المعطى هو الذى فعل به ما فعل؛ في حين أن أبويا الشيخ عبد المعطى ليس فحسب ينفى عن نفسه التهمة بثقة راسخة الأعصاب، بل يصب جام غضبه على فاعل مجهول غريب عن بلدتنا برمتها. إلا أن المغيظ فى النهاية لابد أن يمضى وقد اقتنع بشكل ما أن أبويا الشيخ عبد المعطى ليس هو الفاعل مطلقا؛ فليس من المعقول أن هذا الرجل العجوز الشايب يمكن أن يفعل هذه الأفاعيل الدسبيانية الصغيرة الخطرة في بعض الأحوال، التى لا يفعلها سوى الصيا ع وقطا ع الطريق الغرباء الأشرار؛ لاسيما أنه غير مستفيد على الإطلاق من فعلها، ليس يسعى من ورائها إلى مكسب أو سلب أو نهب أو كيد أو انتقام، اللهم إلا سبيل الضحك فحسب، كى تظل قعدة المصطبة قائمة على الدوام تؤنس ليالى البلدة بنوادر الأخبار والطرائف، والأخذ والرد والحديث الشهى بأصوات منطلقه مبحوحة من فرط الحماسة والانفعال البهيج، حيث الضحكات تندلق من الصدور إلى الصدور بغير حساب..

إنما كل الناس فى بلدتنا دائما أبدا مستعدين لغفران هذه الفصولات التى يفعلها أبويا الشيخ عبد المعطى؛ إلا أبى المدرس بالبلدة. وبقية أعمامى الفلاحين، الذين لا يرضيهم هذا اللعب العيالى من رجل كبير مثله:

– «يا أخى اكبر بقى! بطل شغل المصغره دى! ضحكت علينا اللى يسوى واللى ما يسواش!»..

هكذا كان يقول له أبى فى لحظات الصفاء خاصة بعد تناول العشاء على طبلية واحدة أيام الاسواق والمواسم، فيؤيده أعمامى كل واحد بكلمة،

حتى أعمامي الأصغر سنا في عمر أولاده يوافقون على هذا الزجر من أبي، ولكن بالصمت وهز الرءوس علامة التأييد. لكنهم جميعا - بما فيهم أبي نفسه - لا يمكن أن يكونوا جادين في هذا، لأنهم يكتمون الضحك حتى وهم يعترضون. إذ تصحو في الحال أخبار ونوادر وحكايات بسبب فصولات أبويا عبد المعطي تشد حبال الضحك على آخرها حتى ليستلقى أبي نفسه على قفاه من فرط الضحك؛ في حين يفقد جميع أعمامي وقارهم وهم يخبطون بأكفهم على جباههم أو يخلعون الطواقي ليقذفوا بها على الأرض من شدة الانبساط؛ فيما يتابعهم أبويا الشيخ عبد المعطي في جدية بالغة. في هذه اللحظة بالذات يتحول إلى شخص آخر تماما، هو الوحيد الذى لا يضحك حينئذ بل يشفي غليله بالنظر إليهم في استنكار؛ إمعانا منه في الإيهام بأنه ليس مسئولا عن هذه الأفاعيل الصبيانية التي يتحدثون عنها. ولربما يكون أحد الرجال قد اشتكى لأبي بالأمس؛ وإذ يضطر أبي للتصريح بهذه الشكوى، يسحب أبويا الشيخ عبدالمعطي نفسا من سيجارته الرفيعة ويشوح بذراعه الطويلة نحو الخلاء فيما هو متربع:

- «طب أهو فلان الفلاني ده سهران معايا امبارح لأدان الفجر مجابليش أي سيرة للموضوع ده! يا عم دى ناس بتخاف من خيالها! بتهر على روحها لو قلت لها: بخ! وعلى العموم اللى يظبطني ويمسكني باليد حلال عليه قتلي!»..

يعرف أبي أن هذا لن يكون، لأنه فشل كما فشل كل أعمامي في ضبط أبويا الشيخ عبد المعطي متلبسا بإحدى أفاعيله، مع أنهم تعقبوه كثيرا وسهروا من ورائه طويلا حتى سئموا من حصاره، ومع ذلك يسمعون في الصباح الباكر أن فلان الفلاني قد حدث له بالأمس كيت وكيت، وجدوه متكوما على نفسه في مرحاض المسجد، وجدوه يهذى عند ساقية الوقف، وجدوه عاريا في الخرابة، وجدوه يتسلق دار النصارى بحثا عن كنز مزعوم. حينئذ يكون أبي وأعمامي أول المنطلقين في الضحك؛ حتى ليبدو

أبى منخرطا فى البكاء الحاد إذ هو يضحك بصوت مكتوم؛ يضحك رغما عنه؛ لا سخرية مما حدث فحسب، بل سخرية بنفسه وبإخوته الذين تعقبوا بالأمس أبويا الشيخ عبد المعطى ختى الصباح ومع ذلك أفلت منهم خلسة ليفعل ما فعل..

غير أن أبى كان واثقا أن أحدا في البلدة لن يكره أبويا الشيخ عبد المعطى أو يسعى إلى الإنتقام منه بأى حال من الأحوال. ولم يكن أبى ليقسوا عليه؛ فهو فى النهاية أخوه الأكبر. صحيح أن أبى بحكم كونه مدرس وأفندى يلقى الاحترام والتوقير من الجميع ولا أحد يخاطبه إلا واقفا؛ إلا أن العين لا تعلو على الحاجب؛ ثم إن أبويا الشيخ عبد المعطى - وهو الأكبر - هو أول من يوقر أبي ويقدمه على نفسه فى كل شئ حتى لقد تنازل له عن دور كبير العائلة، توقيرا للعلم الذى حصله أبى فى المدارس حتى شهادة الكفاءة، وبالأخص للقرآن الذى يحمله كله فى صدره..

على أن البلدة كلها؛ رغم ضيقها الشديد من فصولات أبويا الشيخ عبد المعطى، ترخى الحبل دائمل إذا ما احتدم العتاب بين واحد منهم وبينه، حتى لا يصل العتاب إلى مرحلة الخلاف ويقفز الخلاف إلى العراك، وهو أمر لا يتصوره أحد فى بلدتنا - فإن نسى أحدهم فى غضبة الإنفعال وأوشك أن يفقد أعصابه ويسف فى الألفاظ؛ سرعان ما يخف الأخرون لتنبيهه، ففي الحال يموت الخلاف فى مهده قبل أن يتجاوز نطاق فرد لفرد ليصير بين عائلات لا يستهان بشأنها..

وفى الواقع ليس هذا السبب وحده ما يعتقل الخلاف ويمحوه؛ إنما السبب الحقيقى الذى يعرفه الجميع ويفخر به أبى وأعمامى ، أن أبويا الشيخ عبد المعطى هو - ويا للعجب - النجم الأوحد فى بلدتنا، المتخصص في فض المنازعات ووأد الخلافات ببين الناس، ليس فحسب بين فرد وفرد، بل بين بلدة وبلدة. هو فى هذه المهمة موهوب صاحب

عبقرية لا يدانيه فيها أحد في بلدتنا أو بلاد العب كله. صاحب جيل بارعة ذكية لا تنتهى أبدا، وصاحب لسان ذرب طليق، وعبارة موزونة مشحونة مؤثرة حاسمة، ليس فيها لت أو ثرة. ولقد تستيقظ الفصول الهازلة في ذهن من يستمع إليه - بل هو مستيقظة علي الدوام - لكن المستمع له ينظر في عينيه حينئذ فلا يجد فيهما سوى الجدية الباعثة على الثقة والصفاء الباعث على النسيان. ذلك أن كلامه المنطق المحكم الملئ بالصدق والحرارة يملأ دماغ المستمع؛ إذا أن أبويا الشيخ عبد المعطى يدخل فى الموضع مباشرة، فيخترق ذهن المستمع يفاجؤه بأنه يعرف ما يفكر فيه الآن على وجه التحديد وما يود أن يقوله؛ يصرح له بأن الرد وضوح، وأين أذنك يا١٤٩الحقيقى الأمثل على ذلك يكون كذا وكيت بكل جحا؟ قال: من هنا، ويلف ذراعه حول رأسه ليمسك الأذن البعيدة، تعبيرا عن السخرية من جحا الذى كان بإمكانه أن يلمس بيمناه أذنه القريبة من يمناه. ثم إن أبويا الشيخ عبد المعطى يسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية حتى ولو كانت باعثة على الخجل أو الحرج، لا يهمه وجود حريم، لا يختش من عمدة أو إمام مسجد أو شيخ طريقة. ولقد يتحرج الوقورون والوقورات وربما وضعوا أيديهم على آذانهم أو عيونهم من فرط الانزعاج والخجل من لفظ قبيح أو تعبير حاد لم يتعودوه في أى حديث بينهم، تقشعر ملامحهم من شدة كتمان الضحك؛ إلا أنهم سرعان ما يكشفون عن أعماقهم الموافقة على هذه اللهجة لأنها رغم شكلها الصارم تريحهم تماما إذ تضع النقط على الحروف تؤكد صدقه إلى حد الأنفة من تجميل الشئ بلفظ موارب أو مرواغ؛ من هنا فالمعانى عنده دائما محددة وقاطعة، خاصة إذا كان الحديث فى أمر تحقيق الحقوق وجلسات المصالحة؛ ولا ينسى أحد أن ألفاظه العارية وعباراته الساخرة هذه كثيرا ما فثأت غضب المتخاصمين فمزجتهم جميعا بضحكة واحدة صاعقة صافية يصعب بعدها استئناف لبس قناع الزعل، ويسهل الاسترسال فى عبارات الأريحية الميالة نحو التصالح يدعم ذلك أن لديه مخزن لا ينفد من

الحكايات القديمة والجديدة تبدو كأنها كلها من تأليفه يقحم فيها عمر بن الخطاب وسيدنا علي وأبا حنيفة والإمام الشافعي أو سيدي إبراهيم الدسوقي أو السيد البدوي؛ لأن أحدا غيره لا يعرفها؛ وجميع المشايخ المحترفين والمتنورين لم يقرءوها في مصادرهم وأمهاتهم؛ وكلها حكايات تنتهي نهايات محبوكة على الموقف الراهن دامغة صارمة، تحض على الحلم وتبين مخاطر الغضب وعواقب الاندفاع وفضيلة الاعتراف بالحق ومكرمة العفو عند المقدرة، وضرورة انتقام السماء فعلى الباغي تدور الدواير، والعدالة الإلهية التي بني عليها الكون، هل أتاكم حديث ذلك الرجل المؤمن الذي نزل ضيفا على أحد معارفه في غيبته فزاغت امرأته في عينيه وزاغ في عينيها فهمت به وهم بها لولا أنه تذكر برهان ربه فاستغفر وصان نفسه من الخطيئة؛ فلما عاد إلى داره رأى زوجته في حالة اضطراب غير طبيعية فسألها عما يكربها فقصت عليه كيف أن السقا جاءهم بالماء اليوم فلما شعر أن رب الدار غائب تطاول عليها فغازلها بمعسول الكلام حتى كاد يستميلها لولا أنها ردته بخشونة ولقنته درسا قاسيا؛ حينئذ اتعظ الرجل المؤمن وصفق كفا علي كف وهو يقول: «دقة بدقة! ولو زدنا كان زاد السقا!»؛ نعم يا جماعة؛ داين تدان، العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم... إلى آخر هذه الحكايات والطرائف التي تمتلئ بها جعبة أبويا الشيخ عبد المعطي أبو حسين القزاز..

كثيرا ما يمر على مصطبته في عز الليل ناس منهمكون في المشي بحماسة وانفعال؛ فإذا هو قائم يعترض طريقهم، يجبرهم على رمي السلام، وعلى الطلاق بالتلاتة لتشربوا الشاي، وشاي في حكاية، ومثل في آية، وموعظة في حديث، يمضي الوقت؛ وفي النهاية ينصرفون وقد داخلهم ما يشبه اليقين بأنه كان على علم بأنهم ذاهبين لتقليع زرعة أو سرقة زريبة أو التربص بغريم، وأنه عمد إلى تعطليهم حتى تضيع الفرصة فيثوبوا إلى رشدهم. مهما يكن من أمر فإن قعدته الليلية هذه على المصطبة أمام الدار كثيرا ما لعبت دورا في وأد جريمة في مهدها، أو

في تدبير مؤامرت تكشف عن طوايا نفوس صافية لنفوس صافية أخرى كانت متخاصمة، فتعيد وصل ما كان انقطع بين نفوس ونفوس..

مؤامرة بريئة كهذه فضت خلافا بين عزبتين مجاورتين؛ ومثلها قضت على عداء متحكم بين بلدين. يعزم على الغداء في منزله أقطابا من عائلات المتخاصمين دون أن يعلم هذا بحضور ذاك؛ وعلى طبلية الغداء يتم التصافى بكل الحيل الجميلة والطرق القصيرة. شيئا فشيئا - وبأساليب جهنمية - يسعى للربط بين عائلات المتصالحين حديثا في مصاهرات، يغرى هذا بخطبة إبنة ذاك لابنه، ويساهم فى تذليل أى عقبات تنشأ في سبيل إتمام الزيجات، ربما تعهد لنجار الموبيليا بضمان بقية فلوسه، ربما ابتدع صيغة لكتابة قائمة العفش ترضى الطرفين، ربما تطوع بمحاسبة المغنين أو الطباخين، وربما أرسل النقوط خروفا ثمينا أو أردبا من الأرز..

الحق كل الحق أن ذاكرة الناس فى بلدتنا أصبحت تربط بينه وبين النقيضين فى صورة محيرة: السعى بين الناس بالصلح، والسعى فيهم بالهزل والمسخرة. إلا أن عقلاء بلدتنا كانوا يؤكدون أن هذه الأخيرة جزء من تمام الأولى؛ وبهذا أراحوا أنفسهم واعتبروا‌ه قرينا لفعل الخير بوجه عام..

لهذا، لم يكن أحد في بلدتنا أو فى العب كله يتوقع أن أبويا الشيخ عبد المعطى أبو حسين القزاز ينتهى هذه النهاية الفاجعة؛ بل لم يكن ليرضاها له أحد على الإطلاق: ذلك أن أبويا الشيخ عبد المعطي أبو حسين القزاز قد قتله أشباه الرجال فى غفلة من الزمن فى فصل هزلى لا يقل خرقا ولا طرافة عن فصوله الهازلة التى طالما افتتن بتدبيرها والقيام بتنفيذها بنفسه: كان بكرى خفير التفتيش الغلبان المكسور الجناح قد اشتكى له من خليل البقال، الذى دأب على مغازلة امرأته الجميلة وإغرائها بارتكاب الفحشاء معه أو تطلق نفسها من بكرى لتتزوجه. وكان أبويا الشيخ عبد المعطى يعرف أن وهيبة زوجة بكرى امرأة جميلة بالفعل

وتساوى رقبة عشرة مثل بكرى وخليل معا، هكذا يقول له دون حياء، لكن هذه نقرة وهذه نقرة، الحق حق، ونجاسة الذيل سبة للبلدة كلها. وهكذا أقسم أبويا الشيخ عبد المعطى لبكرى خفير التفتيش أن يجعل خليل البقال يتوب عن هذا الفعل على يديه توبة نصوحا، ليجعلنه يفقد الخلفة يصبح هو والمرأة سواء. وبعد منتصف الليل ترك جلاسه الساهرين معه على ذمة أن يفعل مثلما تفعل الناس ويستنجى ويتوضأ لصلاة الفجر؛ ثم دخل الدار، ثم تسلل من الباب الخلفى المطل على الغيطان، بعد أن لف جسده بالملس الحريمى ولثم وجهه بالطرحة، وزرق فى الحوارى الموصلة لدار خليل البقال الجديدة المبنية بالطوب الأحمر على شاطئ مصرف نمرة تسعة. وتحت شباك الحجرة التى ينام فيها خليل كمن أبويا عبد المعطى حتى رأى خليل البقال قادما بعد تشطيب الدكان يتخبط في الظلام يدوس فوق الكلاب النائمة. ناداه في همس وغنج: «سى خليل! سى خليل!». ففزع خليل وبصق فى عبه: «بسم الله الرحمن الرحيم! مين ؟!»..

- «هش ش ش! وطى صوتك يا سى خليل!

متخافش دانا وهيبة! جوزى بايت فى التفتيش الليلة وبكره وبعد بكره! الدار خالية وأمان! تعال ورايا!»..

ومضى أبويا الشيخ عبد المعطى كشبح يتقصع فى الظلام ويطرقع اللبانة في فمه - كإحدى أبرز سمات وهيبة - ويطرقع بالشبشب فى كعبيه، ويكاد لبراعته فى التمثيل والتقليد يكون وهيبه بذات نفسها بمشيتها المعجبانية المعروفة.. ومن خلفه مضى خليل البقال يتراقص من الفرح والغبطة لاهث الأنفاس خشية أن يتوه الشبح من عينيه بين أحراش الحلفاء وأعواد التيل والبوص وشجر الجزورين؛ حيث اخترق أبويا الشيخ عبد المعطى دروبا مختصرة تخترق غيطانا وحدائق وتعبر قنوات، تجنبا للخوض فى حوارى وسط البلد حتى لا يراهما أحد؛ مما ضاعف من مصداقية الملعوب، حيث قد وقر فى ذهن خليل البقال أن المرأة اللعوب

جادة في دعوته والوصول به إلى دارها في أطراف البلدة من الناحية القبلية..

الذي لم يكن يعلمه أبويا عبد المعطي أن وهيبه كانت قد تواعدت بالفعل مع خليل البقال ولكن بالإشارة فحسب؛ إذ كانت في دكانه في الضحى تشترى شريطا لمبة الجاز نمره خمسه وذكرت له أن بكرى سيبيت الليلة في التفتيش في حراسة ماكينة الرى، وأنها تخشى المبيت وحدها في الظلام ولهذا جاءت تطلب شريطا للمصباح، فأعطاها الشريط بالمجان، ونخبة من فصوص اللبان النتاية، حفنة من اللب والسودانى للتسلية، وشريحة من الحلاوة الطحينية، ولم تكن المسكينة تعرف أن زوجها بكرى المكار قد أوهمها بأنه سيبيت في التفتيش لكى يفاجئها في الليل؛ فبعد أذان العشاء صفرت عليها الدار، ورسم لها ضوء المصباح على الحائط أشباحا من المخاوف، فتذكرت أن خليل البقال وهو يغمزها بالهدايا قال لها: «يمكن أفوت اشرب الشاى معاكى!»؛ فردت عليه قائلة: «تشرف البيت بيتك!» لأنها كانت واثقة أن خليل البقال لا يمكن أن تواتيه الجرأة على فعل شئ كهذا، وواثقة أن ردها هذا مجرد واجب كلامى لا أكثر ولا أقل؛ إلا أنها استعادت ضغطة يد خليل على يدها، والشبق المجنون في عينيه، والحرارة الواثقة في صوته، فاقشعر بدنها، فخشيت أن يركب خليل عقله فيفعلها ويجئ وتكون الفضيحة، استعادت شريط خليل من يوم ما بدأ يعاكسها فتمثل لها شيطانا مجنونا يمكن أن يفعل أى يفعل أي شئ لينام معها بأى شكل؛ فرأت أن أسلم شئ تفعله أن تقوم الآن فتذهب لتنام مع أمها العجوز الوحدانية في دارها في عزبة العبيد؛ فسحبت الملس فتلفعت به وانطلقت مهرولة إلى هناك. قرب منتصف الليل آن لبكرى أن يفاجئ زوجه ويقطع دابر الشك من نفسه بعد أن فاحت الرائحة فى البلدة ووصلت إليه الأخبار من شهود العيان تؤكد رؤيتهم لوهيبة مختلية بخليل في ركن قصى من دكانه. كانت ركبه سائبة وقلبه يتفزز من موضعه كلما اقترب من داره، وبندقية التفتيش تهتز على

كتفه فيشدد قبضته على حزامها. فتح الدار فلم يجد زوجه، فركبه الجنون – سأل الجيران فردا فردا فلم يجد لها أثرا عندهم؛ وأخبره طفل صغير أنه شاهدها واقفة مع خليل البقال عند داره. قرر أن يعاجلهما من أقصر طريق، أن يخرم من المزارع ليكون فـي مواجهة الدار مباشرة، نفس الدروب التى سلكها أبويا الشيخ عبد المعطى وهو متنكر في زى النداهة. كان أبويا الشيخ عبد المعطى ينوى تتويه خليل وتعذيبه في الغيطان والمصارف بقية الليل حتى يمسخره ويربى له الخفيف، فجعل يموه على خليل البقال كى يوقعه فى معجنه بشعة علي مشارف دار بكرى، إذ أن الخريجية قد تريحوا كنائف الجامع الكبير منذ ثلاثة أيام فقط فملأوا بالخراء بركة عريضة جافة حتى سووها بالأرض وتركوها لتجففها الشمس فجففت سطحها فحسب. كانت الخطة أن يتركه غارقا في الخراء حتى أذنيه ويرجع إلى جلاسه على المصطبة كى يستمع معهم إلى صراخ خليل طالبا النجدة بعدما تعييه الحيل..

ولم يكن قد بقى على المعجنة سوى خطوات قليل حينما لمح أبويا الشيخ أبو المعطى شبح خفير بندقية معلقة فى كتفه يمشي بانفعال والشرر يتطاير من وقع قدميه على الأرض. حاول أن يدارى نفسه في جزورنية قريبة. إلا أن الخفير لمحه، فتتبعه متلصصا، فإذا بشبح خليل البقال يظهر لاهثا في البحث عن شبح وهيبة الذى احتجب بالجزورنية، فصار يهمس مناديا بصوت متهدج «وهيبة! رحتى فين يا وهيبة؟»، واتجه إلى الجزورنية ملتحما بشبح وهيبه. حينئذ صرخ فيه بكرى: «استنى عندك ياابو ديل نجس». وكان خليل قد أمسك بطرف الملس وجذب شبح وهيبة يريد احتضانها حينما رن الصوت فزلزله. ما كاد بكرى يرى الملس الأسود ينسلخ عن جذع الجزورنية حتى صرخ: «آه يا فاجرة!»، ولم يدر إلا والبندقية قد قفزت مستقرة بين يديه، وأحكمت النشان وأفرغت فى الشبحين كل رصاصها فسقطا فوق بعضهما على الأرض جثة واحدة متداخلة الأطراف مختلطة الدماء..

قرب العصر صدر التصريح بالدفن. كان يوما عصيبا مؤلما على عائلتنا كلها. ركبهم الذهول حتى عجزوا عن البكاء وعن فعل أي شيء، بل انعقدت ألسنتهم في حلوقهم وعلاهم الشحوب والحيرة فصاروا كالبلهاء الخرس يتخبطون في المهانة والخزى. لم يكن في الوقت متسع لحمل الجثة إلى الدار. كان لابد من التعجيل بالدفن كيفما اتفق. ورجال البلدة كلهم فى عز موسم الشغل في الحقول البعيدة..

أقرب مكان يصلح لتغسيل الجثة وتكفينها وإقامة الصلاة عليها هو جامع سيدنا هارون، ذلك المسجد العتيق البالغ من العمر خمس مئات من السنين كما هو ثابت فى لوحة بجوار منبره العتيق. يقع فى مكان معزول وحده خارج مبانى البلدة في بقعة متاخمة للمقابر، فمع أنه أفخم مسجد فى البلدة من حيث طراز البناء وطول المئذنة وضخامة قبة الضريح إلا أنه كان يبدو كالمنبوذ المكفهر؛ لا يؤمه للصلاة إلا مجموعة قليلة جدا من مجاذيب الطرق الصوفية والدراويش حيث يتيح لهم فرصة الاختلاء بأنفسهم لوقت طويل، اجذابا إلى سيدنا هارون؛ ذلك الولى الزاهد الذى أقام لنفسه خلوة فى هذا المكان منذ ذلك التاريخ البعيد، فلما مات دفن فيها؛ فبعد دفنه زار بعض الموسوين في المنام وطالبهم ببناء مسجد له، فامتثلوا على الفور فأقاموا هذا المسجد حول الضريح فصرفوا عليه مبالغ طائلة لكى يجعلوا منه تحفة نادرة؛ إلا أنه قد أحيط بالشؤم من أول يوم، حيث سقط من على سقالاته أثناء البناء ثلاثة من الفواعلية فماتوا، وحدث خطأ هندسى في بكية البوابة القبلية فسقطت بعد عامين من بنائه على بعض من كانوا نائمين في ظله فماتوا. إبان بنائه واكتماله حلت بالبلدة غزوات من عسكر من ملل كثيرة نهبت وهتكت وسفكت وخربت؛ فكان أن هجره الناس هجرانا شبه تام؛ فخيمت عليه سحابة من الكآبة والمهابة والرهبة؛ وكان مع ذلك يبدو للقادمين من الطرق الزراعية شيئا جميلا ثمينا يضفى على بلدتنا عراقة وأبهة، خاصة أنه محاط بخلفية من أبراج الحمام كالقوس يكاد يحتويه في حضنه. وكانت قبة الضريح والمئذنة

يغوصان فى أحشاء الأبراج يلتحقان بها كأنهما المركز المتميز الذى تتفرع عنه هذه الأبراج البيضاء المستطيلة الشامخة بعشرات المئات من العيون المفتوحة فى تشكيلات عديدة. أجيال لا حصر لها من الحمام تربت وتعلمت الطيران فوق هذه المئذنة وهذه القبة حتى استوطنتها بأعداد مهولة. أبدع مشهد فى بلدتنا على الإطلاق هو قوس الأبراج وفى قلبه الجامع كخاتم يحيط بحجره الكريم..

عندما شرعوا يغسلون الجثمان فوق الضرابية فى الميضأة كان الحزن قد وصل بأبى إلى منتهاه، حتى سمعته يهذى بالكلام لأول مرة منذ جاءنا الخبر المشئوم. الحزن لم يكن بسبب الموت فحسب، ولا الطريقة البشعة السخيفة التى تم بها الموت، إنما لاكتمال الشؤم الفاجع، بأن يتم تغسيل الجثمان والخروج به من هذا المكان المشئوم خرجة لا تليق أبدا بسمعة عائلتنا ولا بقدر ابويا عبد المعطى بالذات وهو نار على علم فى العب كله؛ فكيف يخرج هكذا في يوم خلت فيه البلدة تماما من الرجال؟! وكان أبى ينظر إلى الذين يؤدون صلاة الجنازة فيجدهم يعدون على أصابع اليدين؛ فينكس رأسه في الأرض محمر الخدين متهدل الملامح كالمضروب على وجهه بنعل جزمة قديمة..

ما كاد النعش ينتصب واقفا فى صحن المسجد غير المسقوف حتى انهالت عليه اسراب الحمام بغزارة كالمطر، تسقط فوقه جماعات جماعات، عموديا كتساقط الفاكهة الناضجة من أفرع الشجر؛ في مظاهرة شديدة الصخب من صفق أجنحة ورفرفة وهديل. ما إن ينطلق سرب حتى يحط بدلا منه أسرابٌ تحتل كل بقعة في خشب النعش وفوق غطاء الجثمان، كأنها اكتشفت لعبة جديدة مثيرة مبهجة. والفقيه الذى أمّ صلاة الجناز راح يرفع صوته ليغطى على لغط الحمام؛ والمصلون ملخومون متوترون يدفعون عن وجوههم رفرفة الأجنحة ويختلجون من اندفاعها أمام وجوههم مباشرة. وحتى بعد أن انتهت الصلاة وتقدمت الرجال لحمل النعش لم يجفل الحمام، بل ظل في مكانه منكمشا انكماشا

وادعا إذ يرى نفسه يرتفع بارتفاع النعش فوق الأكتاف، ويهتز النعش بشدة إثر اندفاع سرب على حين غرة يحتل مكانه سرب آخر. وإذ خرج الموكب الصغير من البوابة القبلية وانعطف على الطريق المؤدى إلى المقابر كان ثمة نعش يتهاوى وسط حوالى عشرين رجلا تتسع المسافات بينهم؛ فكأنهم أعمدة قامت فوقها خيمة عريضة هائلة من أجنحة الحمام ترفرق صاخبة مزغردة صاعدة هابطة في تشكيلات تتسلخ من بعضها لتدور حول بعضها لتعود فتتلاحم تتداخل تتشاكل تملأ الفضاء بنتف غزيرة بيضاء من الريش كالقطن المندوف. وصارت الخيمة تتسع وتمتد لتلتحق بالمقابر المقامة على مرتفع جبلى، فتختفى الاشباح الصاعدة شيئا فشيئا يخفيها ذيل رداء شديد البياض؛ فيما يرتفع النعش بغطائه الأبيض فكأنه المنطاد يسبح فى السماء معلقا فى مظلته بحبال خفية.

العرجاوى عطا

لى أعمام كثيرون جدا فى بلدة الشقُّة، لكنهم جميعا، على شدة بأسهم، ينضاءلون أمام عمى العرجاوى عطا. ذلك أن جميع الناس فى بلدتنا وكل البلاد يحترموننا بشئ كثير من الرهبة لأننا من سلالة العرجاوى عطا. وحين نقوم بزيارة أعمامى فى بلدة الشقة نقول إننا ذاهبين لزيارة عمى العرجاوى عطا..

تبعد بلدة الشقة عن بلدتنا مسافة ساعتين بالركوبة من طريق الكنيسة فى اتجاه الجنوب الشرقى، على طريق متعرج ثم مستو على شاطئ مصرف نمرة تسعة، ثمْ يتعرج مرة أخرى فى كوعة على اليمين فى أعلى الجنوب مرورا بعزبة الطوال؛ ثم يأخذ الطريق في الاتساع على شاطئ ترعة تحفها على الجانبين أشجار الجميز والتوت والصفصاف، تلقى على حافة الترعة ظلا لا داكنة تتماوج بحركة مضببة سرعان ما يبين أنها تلال صغيرة تتصاعد منها دوائر وتروس وصلبان خشبية فوق رقاب ماشية مغماة تدور بالسواقى.. تلك هى أحلى وصلة فى الطريق، عندها يتبأطا الحمار في خطوه يمشى باطمئنان وروية، حيث تلفظنا خيم الأشجار كل حين إلى عراء الشمس لتستقبلنا خيم الأشجار من جديد تحتوينا، إلى أن تزداد كثافة الظلال لمسافة طويلة يتلذذ الحمار بقطعها فى خطو مهيب ذى إيقاع مبهج؛ إن الحمار يعمل حسابا لعمى العرجاوى عطا إذ ربما التقاه فى الطريق ماشيا بشكل غير مهذب فيسلخ جلده من الضرب، كما أنه يعرف أن راكبه قد بدأت تعتريه بهجة الفرح بلقاء أهله،

يعرف كذلك أنه منذ وطئ وصلة الأشجار قد صار بالفعل في رحاب الديار، أى تحت سمع وبصر عمى العرجاوى عطا، الذى يبدو طريق هذه الوصلة كأنه شعاع من عيني عمي العرجاوى عطا الجالس كالصقر أمام الدار على مبعدة حوالى ستة كيلو مترات، فيبلغه نبأ قدوم ضيفه قبل وصوله بوقت طويل. يميل الحمار إلى التروى فى السير لإضفاء مزيد من الوقار على دخلة صاحبه، ولإعطاء فرصة لأبناء العائلة المنتشرين في حقولها على الجانبين لأن يروا ضيوفهم. الحمار ينحرف عن الطريق العمومى إلى الجرن الواسع المرصع بأكوام من الردم والسباخ وأعواد الذرة وقش الأرز وبرك صغيرة منحدرة من الترعة تسبح فيها طوائف من الأوز والبط والدجاج، وثمة مواش مربوطة فى أوتاد أمامها حزم من البرسيم الجاف؛ ومرصع أيضا بشوارب عمى العرجاوى عطا، وبنظراته التى لا تكف عن التنقل بين الأشياء تغسلها من الكسل والغفلة تصحيها بوخز كوخز الإبر، لدرجة أن اللص – يقولون – حين يفكر في السطو على أى شئ فإنه سيصطدم بنظرات عمى العرجاوى عطا في أى مكان يسطو عليه فى أى لحظة إذ أن عمى العرجاوى يترك نظرته على الأشياء ويمضى فتبقى هى حتى بعد أن تزول الأشياء..

ما يكاد الحمار يدخل في هذا الأنس الزاخر بروائح الروث والردم الطازج والقشدة الزاعقة فى الأفران حتى يندمج فى رقصته الجميلة المعهودة كأنه يهدهد راكبه؛ ففى الحال يقفز الراكب هابطا إلى الأرض تاركا الحمار يمضى مهرولا فى رقصته السريعة حيث تهتز مؤخرته فيبدو تحت البردعة المنجدة بالقطيفة الرصينة اللون كالرهوان؛ يتوجه مباشرة إلى الباب الكبير لهذه الدار العريضة، فيخترقه إلى الزريبة التى يعرف مكانها جيدا، ولابد أن يجد من يستقبله فى منتصف الطريق بترحاب ليقوده إلى مذود حافل بالتبن والفول، ينزع عنه البردعة، يربطه فى الوتد ويتركه. أما الراكب فإن خبر وصوله يكون قد تهاتف به الطريق والشجر ومياه الترعة، فخف لاستقباله عدد من الرجال كلهم صور منسوخة من عمى العرجاوى عطا..

تلك هى الدار الأصلية لعائلة عطا، التى تفرعت عنها كل هذه القرية برمتها، بدورها المتراصة على الجانبين تتخللها شوارع وحارات ورحبات، ومدرسة إلزامية أقاماتها وزارة المعارف العمومية منذ أكثر من خمسين عاما بطلب من عمى العرجاوى عطا الذى تبرع بالأرض وعمال البناء وظل لسنوات طويلة مسئولا عن إيواء المعلمين إلى أن تعلمت أجيال من العذاوية فصار منهم معلمين فى المدرسة فانحلت مشكلة السكن وتحقق حلم عمى العرجاوى عطا فأصبح العطاوية يعلمون العطاوية زيتنا فى دقيقنا. هى الآن مبنى جيرى كالح مصفر ذو سور من الأسلاك الشائكة، تطل على جرن آخر خلف ظهر القرية، يطل على مصرف عريض، له كوبرى مبنى بالأسمنت على قضبان من الحديد بمثابة قنطرة تنحدر قليلا لتلتحق بالطريق الزراعى السائح فى جرن القرية كأنه متفرع منه، مبقع على الدوام ببطش من الجلة والروث. في مواجهة هذه القنطرة حارة طويلة ضيقة كشق متعرج في جسد الدور، فيه يمضى السالك بين جدران من الطوب اللبن الملِّيس بالطين المخلوط بالتبن لا يفتح عليها أى باب أو حتى طاقة صغيرة. يتفرع منها حارتان يشطرانها كالصليب، إن حودت على يمينك وجدت كُتاب الشيخ طلبه الحيطاوى، الذى اختاره وزينه عمى العرجاوى عطا لكى يذهب إليه الأولاد قبل سن الذهاب إلى المدرسة حتى إذا ما انتقلوا إلى المدرسة كانوا على دراية بالقرآن الكريم يجيدون القراءة والكتابة. وإن حودت على يسارك وجدت كُتَّاب الشيخ بسيونى جمعه، الذى اختاره ورتبه أيضا عمى العرجاوى عطا إذ أن أولاد العطاوية فى تكاثر مستمر باسم الله ماشاء الله. كلاهما ضرير وعتيق لكن الشيخ طلبه مكرش بصورة فاجعة، وشكله وهو قاعد يشبه قبة الولى؛ أما الشيخ بسيونى فإنه نحيل ربعة القوام يحرص دائما على ارتداء الجبة والقفطان والعمامة على عكس الشيخ طلبه الذى يلبس الجلباب الكالح المتجلد والطاقية الدبلان الحائلة، ويميل إليه الأولاد لأنه مرح مهزار يتفنن في

العقاب الذى يوجع البدن ولا يوجع النفس لكنه مع ذلك يتقن تعليم الأولود.
وكلا الكتابين في الأصل مندرة تستقبل الولدان في الصباح لحفظ القرآن الكريم وفى المساء تستقبل ضيوف الأسرة حيث يجلسون على المصاطب المفروشة بالحصير، وبجوارهم شباك مستطيل مغلق وفوق أرضه رصات من الورق المصفر الشايط تتخللها فتلات الخيط ويقع الدقيق العلامة والصمغ والأحبار، هى نسخ من المصحف الشريف وسيرة الهلالية وعنترة وكتاب ألف ليلة وليلة وتفسير الجلالين ونسخة متهرئة من صحيح البخارى.
إن حودت إلى اليسار قادتك الحارة الفرعية إلى مزارع تمتد على مساحات شاسعة إلى بحر نشرت؛ وإن حودت إلى اليمين قادتك نفس الحارة إلى مزارع أخرى تمتد على مساحات يقطعها الحصان السريع في نصف نهار حتى يصل إلى بلدة الحصة. هذه المساحات وتلك كلها ملك لناس تنتهى أسماؤهم بلقب «عطا»، وليس فى البلدة البالغ عدد سكانها حوالى عشرين أو ثلاثين ألف نسمة، من لا ينتهى اسمه بلقب «عطا»، فلاحا كان أو من الأعيان أو عمدة أو شيخ بلد أو صعلوك أو شحاذ أو معتوه أو شاعر رباب أو أجير؛ كما أن الأسماء المشهورة فيها متكررة بصورة لافتة للنظر، فدائما أبدا هناك نسخا مكررة من عمى العرجاوى عطا والحاج عطية عطا والشيخ عبدالعزيز عطا والحاج شعبان عطا والمغنى سالم عطا ولص الماشية ريشه عطا وقاطع الطريق علوان عطا؛ ناهيك عن سواقى عطا ومواشى عطا ومحاريث ونوارج وجمال عطا، كلها أشهر من نار على علم في جميع حقول الناحية، كلها لها على حقول الجيران أفضال لا تنسى، كما لشباب عطا فى أفراح الجيران ومعازيهم على السواء حضور أساسى بارز..

وجوههم جميعا ماركة مسجلة، عليها بصمة العطارية الزاعقة، بالشقرة الضاربة إلى الحمرة فى لون الشعر والشوارب والرموش والحواجب، والخدود المنتفخة بالقشدة والحليب المخلوط بالشاى، والرقاب المبرومة المطوقة بدوائر فوق بعضها فكأن الرقبة رصات من أقراص

الحلوى السمسية، يولد بها الأطفال ذكورا والأناث، صوتهم واحد، جهورى، يضخم الكلمات يعطيها هيبة وجلالا حتى لو كانت من الألفاظ السوقية، لهم فى صوتهم جعصة كجعصتهم حين يجلسون على الكنب المنجد أو الكراسى الخيرزان، فإذا هم يتحدثون بصوت منجعص هو الآخر، ولكن في غير غطرسة أو ترفع، إنما هى تربيحة في الصوت عند الاندماج في الكلام إذ أنهم جبلوا على التدفق في الحديث بحماسة وانفعال تتزايد حرارته فى الحلق حتى ليبدو الواحد منهم كأنه يبكى إذ هو فى الواقع يعبر عن ترحيبه الشديد فى لهجة ودودة طيبة، تتزايد هذه الطيبة كلما توغلنا في بيوت الفرع الفقير من العطاوية الذين عثرت حظوظهم فى الحياة لسبب أو لآخر، حتى لتصل الطيبة إلى حد العته أحيانا واللامبالاة أحيانا أخرى نتيجة للإفراط فى زواج الأقارب كما يقول المتنورون العطاوية؛ بعكس الأعيان الذين هيأت لهم مراكزهم المالية زيجات من بيوتات غنية من بلاد أخرى أخرى. ولقد فاضت نساؤهم عن شبانهم منذ وقت مبكر، فصاهروا بهن عائلات كبيرة في بلدان مجاورة أصبحت تدين بالولاء للعطاوية، وانتشرت بذلك بصمة العطاوية على كثير من الوجوه فى الناحية كلها باستدارة الوجه واكتناز الملامح وطول الرموش وثقل شعر الحواجب الواقف أبدا كالأسلاك الحمراء..

جدى الأكبر، ذو الصورة المعلقة فى برواز على حائط مندرتنا فى البلد يعلوها التراب، كأنها شباك كبير مفتوح على الماضى، حيث يطل وجه جدى «أبو السعادات عطا» ببسمته الخفية السمحة، ولحيته القصيرة المشذبة المنسقة المبرقشة بدوائر بيضاء، وجبين مضىء تحت طربوش داكن، وربطة في عنقه تحت ياقة القميص الأفرنجي، والسترة على كتفيه تنبئ عن أجود صوف. جدي هذا – يقولون – كان يخدم في الخاصة الخديوية إذ يعمل ناظرا لزراعة أفندينا الخديوى فى ضيعته الواسعة التى تقع بلدتنا على تخومها. وقد منحته الخاصة الخديوية إقطاعية فى أراضى الناحية، شأنها مع كل من يلتحق بخدمة القصر الخديوى من غير

الدم الخديوى، وتسميهم العائلة الخديوية: الأوباش. إقطاعية جدى كانت كبيرة، حوالى ثلاثمائة فدان من أجود الأراضى فى زمام بلدتنا. ولما كان مصرحا لذوى النفوذ من هؤلاء الأوباش الباشوات بأن من يستصلح منهم أرضا بورا فهى له مهما كانت مساحتها؛ ولما كان جدى - بحكم وظيفته - يمتلك الفلاحين والأجراء والأنفار العاملين كلهم في أرض أفندينا؛ لذا فقد تمكن جدى بشطارته من استصلاح خريطة شاسعة هى المنطقة التى أقيمت فيها بلدة الشقة..

تزوج جدى تسعا وأربعين زيجة، جمع فيها بين العائلات الأرستقراطية والمتوسطة الحال والفقراء بل والخواجات أيضا. لم يكن يحكمه سوى جمال المرأة فحسب، إن راقت له تزوجها في الحال ليشبع نفسه الظمآنة أبدا، إلى أن تكشف العشرة عن عوامل النفور وضرورة الانفصال فيطلقها بالمعروف مثلما تزوجها بالمعروف،. وقد عاش مائة وأربعين عاما، ظل خلالها يحتفظ دائما بأربع زوجات في عصمته في أربع أماكن يتردد عليها لمباشرة مهام عمله في المعيه: القاهرة والإسكندرية والأقصر وبلدتنا؛ ذلك أن لأفندينا أطيان في زمام كل هذه البلدان. أنجب جدى حوالى مائة وخمسين ابنا وإبنة. وكان عند الاختلاف مع زوجاته لأى سبب من الأسباب يتسامح في كل شيئ إلا في حضانة الأولاد، ما إن يشب الإبن أو الإبنة عن الطوق حتى ينتزعها أو ينتزعه ليضمه ويضمها إلى معيته فى بلدتنا. فمنهم من عمل موظفا في الحكومة فى بلدان بعيدة، ومنهم من عمل في التجارة في بلدان أمهاتهم؛ وصفصف الأمر على حوالى المائة من أبنائه الأشداء رآهم يميلون للفلاحة فأطلق أيديهم فى أراضيه الصالحة فانتزعوها شيئا فشيئا من شاغليها ثم قسموها فضعف ريعها فبيع معظمها لناس آخرين.. إلا أراضى بلدة الشقة المستصلحة فإنها بقيت فى حوزة العطاوية بفضل قوة عمى العرجاوى عطا في ردع من يفكر فى البيع وتخويف من يفكر في الشراء..

هذه الدار الكبيرة المطلة علي هذا الجرن الكبير. الممتدة على مساحة أكثر من فدانين، بأكثر من زريبة وأكثر من منخ للجمال وأكثر من مراح للغنم وأكثر من مندرة وأكثر من مخزن للحبوب وحجرات نوم ومعيشة تتكشف في قلبه الدار في صفوف متقاطعة متداخلة .. ابتناها جدى في الزمن الغابر كاستراحة تليق بأن يستضيف فيها علية القوم لأزمنة راحة طويلة، وأن تكون مستقره النهائى حين تجئ اللحظة التى لا يصبح فيها قادرا على خدمة أفندينا بصدق وإخلاص. وهذا ما قد حدث بالفعل كما تقول حكاوى العائلة وأغنياتها وجدران الدار ودواليبها وما تبقى فيها من أشياء أصيلة بنت أصل عريق. تقول الأغنيات وحواديت الجدات أن هذه الدار شهدت سنوات من الليالى الملاح لم تشهد المديرية كلها شبيها لها، زارها واستراح فيها طوائف من جميع أنحاء الأرض؛ وعلى واحد من هذه الأسرة النحاسية الأثرية نام جدى نومته الأخيرة بين أحضان زوجته الكبيرة ذات الأصل الصعيدى، من زيجاته المبكرة جدا، الوحيدة التى عمرت معه مصرة بعناد مازح أن تكون قدمه إلى القبر أسبق من قدمها. كانت ذالت سلطان جبار وسحر لا يقاوم، استمدته من عراقة أصلها العربى المستوطن في الصعيد في بيت تسكنه الباشوية منذ وقت بعيد، هى العقل المدبر وصاحبة اليد الطولى فى كل شئ، هى التى اختصرت عدد أبناء جدى بإغرائهم على الرحيل حتى يتم تسيد أبنائها هى وعلى رأسهم عمى العرجاوى عطا. كانت في الواقع محقة، يكفى أنها أنجبت العرجاوى عطا، فيه وحده حق لها أن تشتهر في جميع أنحاء البلد بأنها أم العرجاوى عطا؛ شهرتها بأنها أم العرجاوى عطا أذيع وأشد فخرا لها من شهرتها أنها زوجة ناظر الخاصة. ثم إن أبناءها هم أبرز أبناء جدى على الإطلاق، أكثرهم عددا، أشدهم رجولة ومدعاة للفخر، أميل إلى العمل والسيادة وملء الهدوم بجواهر الرجال؛ إليهم يرجع الفضل فى قيام اللون الأخضر على هذه المساحات المهولة التى كانت مجرد رمال وبرك ومستنقعات. كانوات أكثر من ثلاثين رجلا، كل رجل فيهم بمقام بلدة

بكاملها، ورثوا عن جدهم حب الزواج والإنجاب حتى ملأت بطونهم هذه الدور كلها..

قدر لجدى في أيامه الأخيرة أن يستمتع بمنظر هذه المملكة، وأن يدعو من قلبه لعمى العرجاوى، الذى عيشه كأفنديناا بالضبط فى كل شئ وإن على نطاق مصغر نوعا، أكبر ما كان يفرح جدى أن أبناءه وأحفاده بات منهم الزعيم والعمدة وشيخ البلد والخفراء والمعلمين وموظفى الميرى، السلاح فوق أكتافهم وتحت آباطهم وفى سراديب مبنية في قلب الحيطان بكميات كبيرة وبدون ترخيص. أما يوم وفاة جدى فقد جعله عمى العرجاوى يوما واقفا على شعر رأسه لمدة تزيد على مائة وسبعين ساعة لم تنقطع خلالها الوفود ولم تهدأ الطرقات من الركايب التى تشغى بها. لعلع في سماء العب كله صوت القرآن الكريم بحناجر بلبلية خاصة بالقصر الخديوى، وتعاقب على منصة الخطابة باشوات ووزراء وعمد ،زعماء أحزاب فألقوا خطبا نارية تلهج بأمجاد جدى وتصب المديح على رأس عمى العرجاوى عطا..

حق لأنباء العربية الأقصرية من جدى – التى قيل إنها من أصل يمنى ثم قيل بل مغربى، بل هو خليط من اليمنى والمغربى – أن يحتلوا هذه الدار وحدهم، فصارت لهم السيادة المطلقة على العب كله، إذ أن كافة الأوراق والسجلات والخزائن في مستقرات لها في أماكن من هذه الدار. كان يسرى فيهم عرق غطرسة تركية كانت مدسوسة في صلب جدى من قديم"، لكن عرق الغطرسة تحول عند ابناء العربية الأقصرية – خاصة عمى العرجاوى عطا – إلى مجرد شعور بالإعتداد بالنفس مبالغ فيه قليلا، أو كثيرا فى بعض الأحيان. اعتداد بالنفس تضخمه عادات موروثة كالحرص عى اقتناء نسخة من شجرة العائلة، وحفظ التواريخ والمأثورات والحكايات عن الآباء والأعمام والأخوال، وأيام المعارك وأيام الأفراح وما أكثرها فى حياة العطاوية..

أبناء جدى هؤلاء لم تكن تخلوا طبائعهم تماما من اللطشة التركية، إلا أنها كانت تمتزج بكثير من اللطشات الفرعونية والبدوية والعربية، حتى لقد كان عمى العرجاوى عطا يبدو أحيانا كفرعون، وأحيانا أخرى كعمر بن الخطاب، وكثيرا ما يبدو وكأنه الحجاج بن يوسف الثقفى. هو - عمى العرجاوى عطار رجل ذو هيبة ورهبة بكل معنى الكلمة؛ يرتبط مع الحياة بلسانه؛ إذا قال فعل، وإذا فعل لا يتراجع، وإذا اقتنع لا يتزحزح، وإذا هوجم فالنصر أو الموت، وإذا لحقه عدوان فالثأر في الرقاب قاب قوسين أو أدنى من الهلاك...

أى حكايات تحكى عن عمى العرجاوى وإخوته لابد أن يصدقها المرء. مهما بدت خيالية خرقاء لا تحدث إلا لعفاريت من الجن. فأفاعيلهم ونوادرهم واشتداد بأسهم أمور لا يكاد يصدقها عقل، لكن العقل يقبلها مع ذلك فى حالة واحدة فقط: إذا حكيت عن عمى العرجاوى عطا أو أحد من إخوته.. فلقد اعتاد العقل السائد فى بلدتنا والبلاد المجاورة أن يتعامل مع أعمامى هؤلاء باعتبارهم أنصاف آلهة شياطين، إذ أن الواحد منهم قد يرمى بابنه في المصرف لقاء رهان التزم به حول شئ، وقد يقتل عشرات الناس لقاء وعد أقره، وقد يبيع قطعانا من الماشية ليفى بسداد مبلغ كان ضامنا فيه لأحد المدينين فلم تمكنه ظروفه من الدفع، وقد يرتكب الواحد منهم فعلا أخرق ليدلل بنتيجته على مقولة يود أن يلفت إليها الأنظار، مثلما فعل عمى العرجاوى نفسه ذات يوم. كان عائدا من سوق التلات على ظهر بغلته يحتضن بلاص عسل، إذ أنه يعتبر العسل الأسود ماء المحاياه، وكل صباح على الريق يشرب منه كوبا كبيرا قبل الإفطار بساعتين، ولذا فهو يحرص على انتقاء نوع العسل بنفسه. وقرب داره استوقفه اثنان من البرابرة كانا مندمجين فى عراك شديد، فطلبا إليه أن يتوقف قليلا ليحكم بينهما، في الحال طافت بذهنه الندرة القبلية المعدة لمبيت الضيوف الغرباء؛ وأيقن أن مجموعة من البط والأوز ستطير رقابها بعد قليل على شرف هذين الضيفين الغريبين. فما إن توقف حتى لاحظ

أن العراك بينهما يدور حول حصانين معهما أحدهما أبيض والآخر أسود. فلما استفسر منهما عن سبب العراك أخبراه أنهما غريبان سيضطران اليوم للمبيت خارج ديارهم، والمشكلة الآن هى أن الحصانين سينامان بعيدا عنهما فى الزريبة، فحين يأتى الصبح كيف يتسنى لكل منهما أن يتعرف على حصانه من حصان الآخر؟! أحدهما يقترح على زميله بأن يقطع أذنا من حصانه كعلامة يميزه بها، والآخر يعترض قائلا: اقطع من حصانك أنت، فماذا يكون الحل يا عمنا الحاج؟!..

فما كان من عمي العرجاوى إلا أن رفع بلاص العسل على طول ذراعه وهبده في الأرض بغيظ شديد فجاء إلى ستين حتة. ثم أشار بأصبعه إلى العسل المندلق صائحا فى أسف شديد:

- «وحق من أسال هذا الإدام على الأرض إنكما لأغبى من رأيت طول حياتى!! يا بنى آدم أنت وهو! كل منكما لابد أن يميز حصانه بلونه على الأقل!»..

ثم تركهما وواصل السير إلى داره كأن شيئا لم يكن.. الحكايات ليست في حاجة إلى شهود عيان من الزمن المنصرم تشهد بصحة ما جرى فيها. ليست فى حاجة إلى وثيقة فالواقع نفسه وثيقتها المتجددة...

عمى العرجاوى عطا فولكلور قائم بذاته يعتبر من تراث العائلة رغم أنه لم يرحل عن الدنيا بعد بل إنه ما يزال فى عنفوانه وقوته وصحوة رأسه رغم تجاوزه المائة عام، ويتوقع له الناس بقاء أطول من أبيه. إنه طويل القامة ضخم الجثة كعامود في معبد الكرنك، جارم الملامح والأطراف، مستطيل الوجه مسترخ العضلات ثقيل شعر الجواجب كمظلة فوق عينين صقريتين تبعثان شواظا من لهب، واسعتان، إذا نظر في الواحد جففه، أفقده في الحال إرادته: إقعد يا فلان فيقعد في الحال دون مماحكة؛ قل ما وراءك فيقول ما فى جوفه بكل صدق وأمانة وترقب؛ فضها سيرة يا فلان يعنى يفضها سيره؛ أعد السريقة لأهلها فلابد أن

يعيدها دون أدنى تردد. هو - كعمدة - ليس فى حاجة لاستخدام يده في الضرب لأنه لو صفع شخصا براحة اليد فإنها الصفعة التي لا قيام بعدها. تكفى النظرات يدير بها كل الأمور، وما الخفراء إلا صورة رسمية فحسب من قبيل الأبهة مثل آلة التليفون والسلاحليك وصندوق البريد المعلق تحت شباك الدوار. لهذا فإنه عمدة البلدة بالتزكية منذ وقت موغل في القدم وإلى ما لا نهاية؛ تجيئه العمدية وهو قاعد على المصطبة أمام الدار. يفتل حبلا أو يشرب النار جيلة التى يغرم بها على غرار أجداده وتمييزا لنفسه عن رعاياه الذين يدخنون الجوزة. لا يعترف بزوال الملكية ولا ثورة يوليو وإن كان مع ذلك يهنئ الفقراء بها! ظل سنوات طويلة يشمئنط ويشيح بوجهه كلما جاءت سيرتها في قعدته؛ حينئذ يبدو وفى جلسته بين الرجال شبيها بتمثال شيخ البلد، خاصة إذا خلع العمامة المصرية المملوكية الكبيرة فألبسها ركبته المرفوعة تاركا رأسه الحليق كالبطيخة النمس معرضا للهواء تعبيرا عن أن رأسه قد ضاق بما يقولون. فإن طال المديح فى ثورة يوليو وزاد الملق من بعض «المتفلسفين» فى القعدة، الذين يرى أن الثورة قد عملتهم بنى آدمين على آخر الزمن؛ فإنه يشد زمام ابتسامته الغامضة على سره فلا تعرف إن كان موافقا على المديح أم رافضا له، لكن صفحة وَجهه الغنية بالدماء وعمق التصميم وقوة الإرادة تكتسى بدهاء مخيف. بصنعة لطافة يتسلل فى الدخول إلى الكلام مغيرا مجرى الحديث، بطريقته الخلابة فى إثارة الانتباه، وألفاظه العتيقة الرنانة، وأسلوبه المشوق، وصوته المؤثر بنبراته الجهورية، يحكى حكايات وطرائف من التاريخ أو من الأساطير، عن رجال فقدوا رجولتهم منذ خصيهم السلطان؛ عن سلاطين توهموا القدرة على كسر أنف الشعوب فقهرتهم الأيام والأحداث في عزل واغتراب وذل وعوز؛ عن عواقب الظلم، عن الشطط في فرض الأحكام ومعاملة الناس بغير الحسنى. قليلون هم الذين تبلغهم رسالته الخفية في الحكايات والطرائف؛ والكثيرون يأخذونها كمواعظ فى الحياة مقحمة، دون الانتباه لمغزاها السياسى الذى يجيد

إخفاءه في تلافيف الحكاية. إلا أن عداءه للثورة كان معروفا للجميع ولكن لا أحد يستطيع الجهر به؛ إنما قد يجد شيئا ما فتفلت منه تعليقه عابرة تكشف موقفه بكل وضوح فتنفجر صدور السامعين بالضحك البهيج..

الكل يعرف أن عمى العرجاوى عطا لا يهمه من أحد، ولا يخاف إلا من الله، ويعطى لكل ذى واجب واجبه على أكمل نحو، ويأخذ من كل ظالم حق المظلوم كاملا، إذ أنه العمدة والقاضى وشيخ الخفراء والخفراء. وأى جلسة في أي مكان فى أى لحظة تنعقد لأى سبب من الأسباب فإن عمى العرجاوى عطا لابد وأن يكون هو مديرها ورئيسها وصاحب الكلمة الأخيرة فيها. الغريب أنه لا يفرض نفسه أبدا بل لابد أن يدعى لذلك بإلحاح شديد يحلو له أن يتجاهله طويلا، ذلك أن قوته أصابت الآخرين بالضعف. وكان ذلك يحزنه جدا، ويصفق كفا على كف قائلا في توتر:

– «كل شئ لابد أن أفعله أنا بيدى؟ متى يتعلم العطاوية المساكين أن يصبحوا مسئولين؟ أمنيتى أن يجتمعوا مرة بدونى! أن يفعلوا شيئا دون سؤالى في الفارغة والملانة! ماذا يفعلون لو مت غدا أو بعد غد؟!»..

هو إلى ذلك شديد الأدب، دمث الخلق، حيي، محب للعمل اليدوى. سرعان ما يخلع الجلباب الكشمير والقطنية الشاهى فيرميهما بجوار العباءة الجوخ والشال الحرير، يخلع المركوب البنى والجورب، يمضى بالفنلة والسروال الداخلى ذى التكة بشراريب، والصديرى يحيط بجذعه الأعلى منتفخ الجيوب من الناحيتين، على اليمين منظر المحفظة الكبيرة مطبوع تحت قماش الجيب منتفخة بالفلوس الفضية والورقية التى لا تنفذ مطلقا؛ وعلى اليسار منظر الطبنجة واضحا؛ وقبضة الخنجر العاجية المشغولة بالأحجار الكريمة تطل بجرابها من تحت كم الفانلة القطنية.. وهكذا ينزل إلى الجرن ليقوم بمهمة تكييل القمح أو البرسيم، حيث يمسك بعيار الكيلة المصنوع من الخشب المعشق المرصع برءوس المسامير؛ إذ يدبه في كومة الحصاد ليملأه؛ وبيديه يمسكه من عنقه ويروح يهزه بقوة

ويغرف الحب ويملأ؛ دون كلل حتى يتهاوى التل فى دقائق..

أو تراه وقد تخلى فجأة علي الأبهة فأمسك بالفأس وراح يعزق. ضربة فأسه بقوة عشرة رجال؛ يعزق وحده فدانا كاملا في زمن قليل. أقصى راحة له كي يستأنف العمل ربع ساعة يقضيه في تدخين حجر من التبغ المعسل علي النارجيلة التى تصاحبه فى كل مكان..

رأيته ذات مرة متربعا على الأرض أمام البوابة الكبيرة، لا ويا تحت وركه خروفا سمينا، وبالمقص راح يجز صوفه، صانعا حوله أكواما من الصوف تنتظر من يجمعها لمن سيجئ ليشتريها. وكان يومها قد تسلم مراح الغنم من صبيحة ربنا ليجز صوف الأغنام، فما كاد الضحى يعتلى سقف المراح حتى كان عدد الأغنام الزعراء الحليقة الملطخة بآثار ضربيات المقص قد بدأ يتكاثر بين الأغنام. قام متجها إلى المصطبة ليشرب حجرا على النارجيلة في هدوء وروية وبمزاج. كان بالفانلة والسروال فحسب، وقد اغبر وجهه بتراب الصوف، وانحسر طرف السروال عن ساقية الطويلين المشعرين وعن جزء من لحم وركه. ولم يكن يتحرج من ذلك لثقته أن جنس الحريم الذى يمر من هنا يعرفن أن أى جزء من جسده يعتبر عورة لكن عيونهن لشدة رهبته لن تنظر إلى الجزء العارى فيه بل قد لا تلحظه أصلا..

سحب النارجيلة أمامه؛ أمسك بورقة التبغ المعسل ماركة السلوم وفتحها؛ وجد التبغ ناشفا؛ صار يبلل أطراف أصابعه بشفتيه ويدعك في التبغ فيما يصيح في بوابة الدار: «النار يا ولد الفرطوس». فبعد قليل أقبل الغلام ممسكا بالماشة وبين فكيها قطعة نار حمراء متوهجة قال:

- «النار يا جدى»..

أشار عمى العرجاوى إلى وركه العارى، قائلا:

- «حطها هنا!»..

وراح يواصل ترطيب التبغ بريقه ودعكه بأصابعه. نظر إليه الغلام

في تشكك وحرج وتردد. فسلط فيه عينيه شاخطا فيما يشير إلى وركه العارى:

- «قلت لك حطها هنا وامشى!!»..

فامتثل الغلام لأمره في الحال، فوضع جمرة النار على فخذه العارى، وانصرف. فلم تصدر عن عمى العرجاوى أية وحوحة، أو أية ارتعاشة أو حتى اختلاجة رمش، فكأن الغلام قد وضع الجمرة فوق رخام. بقى عمى العرجاوى متربعا يدعك فى التبغ حتى أصلحه، ثم وضعه بكل هدوء فوق الحجر وسواه ودندشه؛ ثم أمسك الجمرة المشتعلة بأطراف أصابعه فوضعها فوق التبغ وراح يجذب الأنفاس على مهل..

عمى العرجاوى عطا هذا، ليس مستعدا لغفران أى غلطة مهما كانت تافهة. أنت غلطان فلابد أن تدفع الثمن حتى لا تقع في الغلط بجميع أنواعه مرة أخرى. ذات يوم كان أبناء عمومتى يجلسون حوله يتحدثون فى أمر من الأمور. من سوء حظ الواد عكاشة أن بطنه كانت مضطربة لأنه أكل وحده أوزة كاملة؛ فلم يشعر إلا وصوت ضرطة قوية ينفلت من مؤخرته داويا قبل أن يتحكم فيها. ذهل الولد وغاصت الدماء فى خديه من شدة الحرج الممزوج بالخوف من جده العرجاوى. لكن ذلك لم يشفع له؛ ما درى إلا والشومة المبززة الثقيلة تتراقص في الهواء لتهبط فوقه بغيظ جنونى، والولد المذهول قد التاث وعجز عن الجرى. حتى الجالسون كلهم تجمدوا في أماكنهم خوفا من أن تتحول الشومة إلى أدمغتهم. وهكذا راحت الشومة تنهال على ضلوع الولد صاعدة هابطة حتى كسرتها وشجت رأسه والولد يصرخ. حملوه إلى حلاق الصحة فحمله بدوره على الركايب إلى مستشفى البندر. وبعدها بأيام عاد الولد من المستشفى بعاهة مستديمة فى رأسه وأخرى فى ضلوعه..

إلى أن جاء يوم كان أشد حلكة.. كانت المندرة الكبيرة مرصعة بالرجال من عدة بلدان مجاورة: عمد ومشايخ عرب وأفندية وضباط شرطة

وعضو مجلس الأمة عن دائرة الناحية؛ جاء والإنهاء معركة مزمنة بين عائلتين متجاورتين بسبب مياه الرى الشحيحة، حيث يحتجزها أحد الطرفين عن الآخر لفترات طويلة يموت الزرع خلالها . وكان عمى العرجاوى عطا قد تكفل بحل النزاع إذا عقل الرجال وسحبوا أوراقهم ودعاويهم من أمام قضاة المحاكم. وصار من المؤكد لجميع الحضور أن عمى العرجاوى عطا لن يعدم وسيلة يذيب بها الجليد المتراكم بين العائلتين. وكانت أيدى المتخاصمين قد صارت على وشك أن تمتد للمصافحة علامة التصافى، لولا أن حدث ما حدث في لمح البصر وبشكل لم يكن يتوقعه أحد على الإطلاق، حتى عمى العرجاوى نفسه. لحظتها كانت جميع الأبصار منصبة عليه في انتظار أن ينطق بالحكم فى مسألة تعويضة مقترحة؛ فيما قد تربع هو، مندمجا في إطراقة طويلة كان لاشك خلالها يفكر في حل مناسب ينهى به الخلاف. وكان الجميع يعرفون أن عمى العرجاوى عطا في السنوات الأخيرة قد بدأ يكثر من الشرود لأوقات طويلة حتى أصبح لابد من تنبيهه ولو بصنعة لطافة؛ كان قد بدأ يفقد الكثير من القدرة على التركيز. ويميل جميع الحاضرين إلى الاعتقاد بأن عمى العرجاوى قد فقد الإحساس بوجودهم لبرهة وجيزة، أو أنه من فرط التركيز بينه وبين نفسه نسى وجودهم.. إذ فوجئوا به – بكل بساطة وبدون أدنى حرج – يرفع إليته اليسرى عن الأرض قليلا، ويدفع إلى الهواء بضرطة قوية رنت في الأرض رنينا مدويا، وملأت فضاء المندرة والأنوف برائحة كريهة..

في الحال أفاق عمى العرجاوى؛ شهق، تحجرت ملامحه تصخرت في عينيه نظرة رعب مرعبة، كغريق طفى على سطح الغرفة فلما أفاق تمنى أن لو غاص في القاع مرة أخرى. منظره التعيس وحده كان كافيا للإعتذار، خاصة أن الحضور قد جمدتهم المفاجاة فلم تلن وجوههم حتى عن ابتسامة ولو على سبيل الرثاء. وكان من الممكن أن يمر الأمر كأن لم يكن، لو أن ذلك حدث من شخص آخر غير عمى العرجاوى عطا، أما وقد

حدث ما حدث ومنه هو بالذات، وقد حدث وانتهى الأمر ولا سبيل إلى محوه من سجلات ذاكرة القرية؛ فإن الأمر قد بدا خطير غاية الخطورة ينذر بانهيار كونى داهم راحت نظراته المتصخرة تتفتت حوله وقد بدأ يعتريه الكثير من التوجسس المفاجئ، كأن أحدا غيره فعل هذه الفعلة النكراء في حضرة الرجال، كأنه ثمة مؤامرة كونية دبرت ضده وأدخلت في جسده شخصا آخر لم يتلق أى تربية يفعل هذه الفعلة ويختفى كالعفريت.
وقعت نظراته على الواد عكاشة الذى كان واقفا في الخدمة مع رهط من شبان الدار، توقفت النظرات عند العاهة المستديمة التى تركتها شومته على رأس الولد وعلى ضلوعه؛ انتفض راكسا على ركبتيه في حركة جنونية رعناء؛ تقلصت ملامحه فيما تمتد يمناه فتنتزع الخنجر من ساعده الأيسر لينتقم به ممن أوقعه فى هذه الورطة. ثم إنه حرك ساعده بالخنجر إلى الوراء، وبكل قوته وعنفوانه دك الخنجر عن آخره في فتحة مؤخرته دون أن يطلق أنة واحدة.. ثم تهاوى فوق الأرض غارقا في دمائه.

الصاعقة

على غير العادة فوجئت بشراعة باب شقتى مفتوحة، وضوء الردهة يفرش ظله الونيس على أرضية مدخل الشقة فى الطابق الأرضى يرسم على درجات السلم الأسمنتى شبكة الشراعة الحديدية بكل نقشها بصورة مكبرة. رأيتها بمجرد دخولى عتبة البيت، فداخلنى شعور غامض بالبهجة والفرح، إذ لابد أن يكون ثمة ضيف حميم جدا يزورنا الآن. ثم تذكرت أن زوجتى لا تفتح باب الشراعة هكذا إلا حين يكون ذلك الضيف رجلا غريبا، أو عاملا جاء يصلح شيئا في الشقة، وذلك درءا للشبهات وتأمينا لنفسها؛ فاهتز قلبى بالخوف من المجهول، لبرهة ثقيلة حاولت أن أحدس شخصية الضيف وأسباب زيارته. وكنت مرهقا إلى حد الرهك فحاولت تجاهل الأمر..

خير يارب. قلتها فيما أسرب يدى من خلل شبكة الشراعة لأفتح الباب من الداخل. فإذا بى أفاجأ بما لم يكن يخطر لى على بال مطلقا. كانت هى أمى، نعم أمى، بلحمها وشحمها جالسة على الكرسى المواجه للباب وحولها بعض الشبان والفتيات، بين زوجتى وأولادى، وحالة من الأنس المكتوم تحيط بهم جميعا، وألوان التلفزيون تنبثق وتتراقص وتترادف فى فضاء الردهة. إنشد قلبى إلى أسفل من شدة الفرحة والرجفة والمفاجأة، فهذه أول مرة تزورنى أمى فى بيتى فى هذه المدينة الخرافية الإتساع، بل لعلها أول مرة تنتقل فيها أمى من قريتنا البعيدة في شمال الدلتا لتقطع كل هذه المسافة من أجل أن ترانى، ولابد أنها

داخت حتى اهتدت إلى عنواني. حينئذ تملكني شعور جارف بالذنب وتأنيب الضمير، فأنا الذى بت أستبعد المسافة بين القاهرة وبين قريتي واستثقل السفر إليها خاصة بعد أن كثرت عيالى، اضطررت أمي الكبيرة المرهقة إلى المجئ بنفسها لتراني..

حبست دموعى وأنا أملأ فراغ الباب داخلا. وقف الجميع في استقبالي فارتفعت بداخلي معزوفة الحزن المروع، وارتميت على صدر أمي فاحتضنتها واندفعت أبكى بحرقة وأقول:

– «إزيك يا امه! دانتي واحشاني خالص خالص! وتاعبة نفسك للدرجة دى؟ دانا والله كنت ناوى اجيلك الأسبوع الجاى! القلوب عند بعضها صحيح! وعاملة إيه يا امه؟ دانا نفسى أتكلم معاكى من هنا لحد يوم القيامة! عندى كلام كتير قوى!»

ثم تركتها تنسحب من صدرى باسمة بعد أن تعبت من طول الوقفة. رائحتها العتيقة تملأ خياشمي وتنتفض في عروقى بعد طول احتجاب، حتى لقدر رأيتني طفلا أتوق إلى التدلل واللعب، كما استيقظت في دمائي كل الأوجاع التي أتوق أن أسمعها صوتها طمعا في مزيد من حنانها الدافق اللذيذ، أستنيم لهذه الرائحة وأشعر بالأمان والاطمئنان في عبقها. لهذا جلست بجوارها بعد أن وسع لى أحدهم مكانه. في غمرة الانفعال نسيت أن أسلم على بقية الضيوف الذين لم أكن قد عرفتهم بعد وإن رأيت على وجوههم أختام دمائنا بتلك العلامة المسجلة التى تنوب في ملامح كل أبناء أسرتنا، فلابد إذن أنهم من أولاد إخوتي..

قالت أمي من خلال البلغم المتراكم دائما أبدا فوق صدرها يزيق ويعطل انتظام تنفسها عند الكلام:

– «لم تسلم على بقية العيال!»

– نسيت نفسى يا أم!»

وسلمت عليهم جميعا وأنا شبه غائب عن الوعى، حتى أولادى سلمت

عليهم بالجملة دون أن أدرى بالابتسامات العابثة في عيونهم والحركة المازحة في أيديهم وإن كنت قد لمحتها على الطاير. وقلت:

-«تعشيت؟»

قالت:

- «نعم! زوجك الأصيلة غدتنا وعشتنا وأكرمتنا كرما زائد عن الحد!»

ثم أضافت موجهة الحديث إلى زوجي:

- «هات لزوجك يتعشى!»

كان وجهها موردا، يشوبه قليل من الشحوب، وبعض شعيرات بيضاء صفيقة تحاول الظهور من تحت التعصيبة المحكمة على رأسها والطرحة البيضاء الملفوفة حول رقبتها.

تذكرت أننى لم أر هذا الوجه منذ سنوات بعيدة جدا، وأن عدم رؤيته كانت تحرمنى الكثير من هذه المشاعر الدافقة الطازجة..

وكنت أشعر أننى أريد أن أحدثها فى عشرات الموضوعات والمشاكل التى ضاقت زوجى بحديثى عنها فاعتقلتها في صدرى طوال سنوات وسنوات. جعلت أعصر دماغى لأتذكر ولو موضوعا واحدا من تلك الموضوعات فلم أفلح، فصرت أشرد طويلا لواقع تحت مخدر ثقيل، ومن حين لآخر أقطع شرودى ناظرا إليها فى وله حقيقى قائلا:

- «والله زمان! أنت نورتنى! شرفتنى! أحييتنى من جديد!»

تفك طرحتها وتعيد حبكتها من جديد حول عنقها، نفس حركتها المعهودة دائما، الحبيبة دائما، تقول بنبرة عتاب خفى:

- «لا نأخذ منك غير حلو الكلام!»

وتلمع في عينيها نفس النظرة المؤنبة العاتبة. أقول درءًا لشكها فى عظيم حبى لها.

– «قد لا تعرفين مقدارك عندي!»

تتسع الابتسامة تحت شفتيها المضمومتين، نفس الابتسامة التى أحببتها فاحتفظت بها طول عمرى بين شفتى:

– «أسمع كلامك أصدقك! أشوف أمورك أستعجب!»

نفس العبارة الأزلية في فمها التى طالما وجهتها لأبى فى لحظات الصفاء، والتى باتت توجهها لكل منا..

وكانت زوجتى قد انتهت من إعداد عشائى فوق الترابيزة الصغيرة وعدلتها أمام الكراسى المواجه لقعدة أمى، فانتقلت فصرت مواجها لها ففرحت بالقعدة وشرعت آكل ببطء..

وفجأة دهمنى دوار عاتى الشدة قابضا على قلبى، رأيت الأرض ترتفع أمامى وحوالى كأننى فى سفينة تتلاعب بها الأمواج الثائرة. إنبثق من داخلى شعور طاعن ساخر هازئ مصحوب برياح تكاد تعصف بالملابس من فوق جسدى وتخلف الأرض من حولى خرابا، وتملأ الأفق العريض ببقايا أعواد جافة. وبدا كأننى صرت راكبا فى قطار يمرح صاخبا فى بلقع بين جذوع أشجار جرداء كالحة.. ذلك أننى قد تذكرت أن أمى هذه الماثلة أمامى بلحمها ودمها قد ماتت منذ ما يزيد على عشر سنوات، نعم ماتت وشبعت موتا، ولم أكن حضرت جنازها إذ وصلت بعد دفنها بأيام لأن البرقية التى أرسلها إخوتى وصلتنى متأخرة ثلاثة أيام. تذكرت أيضا أن هذه البرقية ما تزال محفوظة بين أوراقى الخاصة في أحد أدراج مكتبى وأنها كثيرا ما وقعت فى يدى أثناء البحث عن أشياء أخرى. كدت أصاب بالشلل من فرط الرعب، وقد منعنى الروع من رفع عينى فى مواجهة هذه الحقيقة الشاخصة المجسدة المرعبة.

الفهرس

سمبو ٧
طبق الأرض ١٧
العروس ٢٣
طق الليل ٢٩
شق الثعبان ٣٩
ديك الجن ٧٧
سارق الفرح ٨٩
أمسيات الفحم الردىء ١١٣
عدل الطاسة ١٢٥
موقف الغرق ١٣١
الحول ١٣٥
المرجع ١٤٣
منزلة الشوق ١٤٧
قيام الواجب ١٥١
العرجاوى عطا ١٦٩
الصاعقة ١٨٥

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٢/١٥٩٩٥

I . S . B . N 977 - 01 - 8168 - 4



لقد [illegible]ركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق في
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ١٥٠ قرشاً